

التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

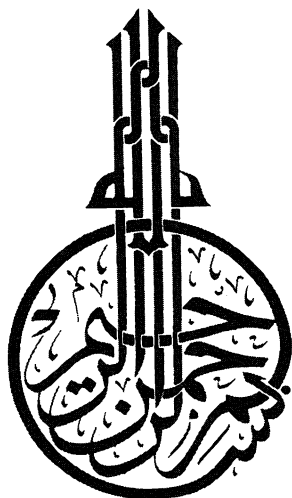
عبدحميد محمود طهراز

المجلد الثامن :

ويعتوي على تفسير

جزء الذاريات - جزء قد سمع - جزء تبارك - جزء عم

دار القام
دمشق



التفسير الموضوعي
لِسُورَةِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:
محمَّد بن عبد الوَّالِد
سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

ص.ب: ٢١٤٦١ هاتف: ٢٨٩٥ فاكس: ٦٦٥٧٦٢١: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245



تفسير سورة الذاريات العِبَادَةُ وَالرِّزْقُ فِي سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مقسّمات الرزق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَّتِ دَرُودًا ﴿١﴾ فَالْحَمِيْلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْحَدِيَّتِ يَمْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْبَلِيْنَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الذاريات بالأقسام التالية:

﴿وَالذَّارِيَّتِ دَرُودًا ﴿١﴾﴾ .

أي: والرياح التي تذررو وتفرق، قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقرئت: (والذاريات ذروداً) بإدغام التاء في الذال.

﴿فَالْحَمِيْلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾﴾ .

أي: فالحاملات حملاً، وهي السحب الحاملة للمطر.

﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ .

أي: فالسفنُ الجاريةُ في البحر جرياً سهلاً .
وقال بعضهم: ﴿فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا﴾ هي النجوم تجري يسراً في أفلاكها، ليكون ذلك ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، فالرياحُ فوقها السحاب، وفوق السحاب النجوم، وفوق كل ذلك الملائكة التي تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. والمعنى الأول أولى.

﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ .

أي: فالملائكةُ التي تقسمُ الأمور من الأمطار والأرزاق كما أمروا به .
أقسم الله بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على عجب صنعته، وكمال قدرته، ويجوز أن يكون القسمُ بالرياح لا غير، فهي التي تنشئ السحاب وتسيره، ثم تحمله وتقلُّه، ثم تجري به جرياً سهلاً، ثم تقسم الأمطار، ومع تقسيم الأمطار تقسم الأرزاق، فالفاء لترتيب الأفعال والصفات.
وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْبَيْنَ لَلْوَاقِعِ ﴿٦﴾﴾ .

أي: إنّما توعدون من الثواب والعقاب يوم القيامة لوعد صادق، وإنّ الحسابَ والجزاءَ لكائنٌ لا محالة .
أو: إنّما توعدون من رزق لوعد صادق مؤكّد الوقوع .
وفي القسم بهذه الأمور إشارةٌ إلى تحقّق مضمون المقسم عليه، فمن قدر عليها فهو قادر على غيرها .

القول المضطرب

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أَفْكَ ﴿٩﴾ قُلِ الْحَرِصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهٖ تَسْتَعِجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

ثم أقسم الله تعالى قسماً آخر فقال:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾.

أي: ذات الطرائق؛ وهي الأفلاك التي تسير عليها الكواكب والنجوم.

أو: ذات الخلق المستوي المتقن، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ومنه يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه: حبك الثوب يحبكه حبكا، قال ابن الأعرابي: كلُّ شيء أحكمته وأحسنه عمله فقد احتبكته.

أو: والسماء التي حبكت بالنجوم وزيّنت بها^(١).

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مضطرب متناقض لا يلتئم ولا يجتمع؛ وهو قولهم في حقه عليه الصلاة والسلام، تارة شاعر، وأخرى ساحر، وأخرى مجنون.

(١) تفسير القرطبي: ٣١/١٧.

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ .

أي: يُصرف عن القرآن مَنْ صُرِفَ، فلا صَرَفَ أقطعُ منه وأشد، فأقوالهم المضطربة لا يقبلها إلا مَنْ هو ضالٌّ في نفسه، لا فهم له ولا عقل .
وكان مشركو مكة يستقبلون القادمين إليها ليصدّوهم عن الإيمان، ويصرفوهم عن استماع القرآن .

﴿قُلِ الْخَرَصُونَ﴾ .

أي: لِعِنَ الكذّابون من أصحاب القول المختلف .
وأصله الدعاء بالقتل والهلاك أجري مجرى اللعن . ومعنى الخرص: الظنُّ والتخمين، وأُطلقَ على الكذب لأنه في الغالب يكون منشأ له .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ﴾ .

الذين هم في غفلة وجهالة عظيمة تغمرهم، لاهون غافلون عما أمروا به وخلقوا من أجله .

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

أي: متى وقوع يوم الجزاء؟! .
وسؤالهم للاستهزاء والاستعجال لا للاستعلام .
وجاء الجواب على استهزائهم يتوعددهم ويتهددهم:

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنُّونَ﴾ .

أي: يحرقون ويعذبون، وأصل الفتن إذابة المعدن الثمين لاختباره وإظهار غشّه، ثم استعمل في الإحراق والتعذيب ونحو ذلك .
ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

﴿ذُوقُوا فَنُتَكِرْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: ذوقوا عذابكم هذا الذي كنتم تستعجلون به مستهزئين .

* * *

المستغفرون بالأسحار

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٥﴾ ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَاسْحَارٍ هُمْ يَسْتَفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

وتحوّلت الآيات من الحديث عن اللاهين العابثين إلى الحديث عن المتقين

العابدين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتِ وَعُيُونِ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: بين جنات وعيون جارية لا تغيب عن أبصارهم .

﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿ءَأَخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: راضين بما أعطاهم ربهم .

فكل ما تفضّل به عليهم ربّهم حسن مرضي، مُتلقًى بالقبول والسرور، بينما كثير من الناس لا يرضون بما آتاهم ربهم من الرزق وبما يسّره لهم .

﴿إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: إنهم كانوا في الدنيا قد أحسنوا طاعة ربهم،

فتقبّلها منهم، وأثابهم عليها أحسن الثواب .

ثم بينت الآيات في معرض الشاء عليهم بعض أعمالهم الحسنة، فأبرزت

منها عبادتهم بالليل واستغفارهم بالأسحار:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل.
أو: كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً، أو: كان هجوعهم في الليل قليلاً.
والمراد بيان قلة نومهم وهجوعهم، وكثرة صلاتهم وعبادتهم.
وقد يكون المراد بيان حرصهم على قيام الليل، فقلَّ أن تمرَّ عليهم ليلة لا يصلون فيها لله ﷻ.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ويدأومون على الاستغفار بالأسحار، لأنهم يستشعرون تقصيرهم في العبادة.

فالآية تشيرُ إلى مزيد خشيتهم من عذاب الله، وعدم اغترارهم بعبادتهم.
والسَّحَر: السدس الأخير من الليل، ودلت الآية على فضل الاستغفار فيه،
قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

* * *

الأسباب السماوية للرزق

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾
﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِفُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

أي: وفي أموالهم نصيب وافر أوجبوه على أنفسهم قبل أن يوجبه الله عليهم
بفريضة الزكاة، للسائل الذي يسأل، وللمحروم المتعفف عن المسألة، فيكون
محروماً من قبل نفسه حين لم يسأل، ومن قبل الناس إذ لا يعطونه ولا يفتنون له.

فالقوم جمعوا بين العبادة البدنية والمالية، وعلموا أنّ الله سخر بعض الناس لبعض، فجعل رزق بعضهم على بعض، وأضافوا إليها أيضاً النظر والتفكير في بدائع المخلوقات:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وفي الأرض علامات وبراهين تدلّهم على وجود الله ووحدانيته، وكمال علمه وقدرته، وطلاقة مشيئته، وفرط رحمته.

فنظرة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك، وتحيي مشاهد الأرض فتتلق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحديثه عما وراءها من تدبير وإبداع.

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: وفي ذواتكم آيات كثيرة لا تُحصى أفلا تنظرون فيها نظر المتفكر المتعظ؟! . . فالآية تعنّف المعرضين عن التفكير والنظر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: وفي السماء أسباب رزقكم من سحب ومطر، وما توعدون من ثواب وعقاب، فكله مقدر مكتوب في السماء.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فوربّ السماء والأرض إن ما سبق ذكره في السورة لحق مثل نطقكم، فكما أنه لا شك أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكّوا في تحقق ذلك، وهذا كقول الناس: إن هذا لحق كما أنك ترى وتسمع، فكل ما أخبر سبحانه عنه من أمر القيامة والبعث والجزاء وتوزيع الأرزاق، كائن لا محالة، وحق لا مرية فيه.

وفي قراءة: (مثل) بالرفع صفة لحق.

وخصّ النطق من بين سائر الحواس لأن غيره من الحواس يدخله التشبيه.

ضيف إبراهيم

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾
 فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ جِيفَةً قَالُوا لَا
 تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا
 كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا
 أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
 فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً
 لِلَّذِينَ يَحْفَاؤُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

وتأكيداً لصدق الوعد والوعيد المذكور في صدر السورة عند قوله سبحانه:
 ﴿إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥] ذكرت الآيات أمثلة واقعية من تاريخ الأمم
 الهالكة المكذبة:

﴿هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

أي: هل أتاك يا محمد حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟
 وهم الملائكة الذين أتوا إلى إبراهيم في صورة الضيف، فأضافهم ﷺ،
 وهو يظن أنهم ضيف، وقام بإكرامهم وخدمهم بنفسه.
 وتوجيه الخطاب إلى النبي ﷺ بصيغة الاستفهام تفخيمٌ لشأن الحديث،
 وتنبيه على أنه ما علمه إلا من طريق الوحي.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: إذ دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلم

عليك سلاماً، فرد إبراهيم قائلاً: عليكم سلام، عدل به إلى الرفع بالابتداء
للقصد إلى الثبات والدوام، فكانت تحيته أحسن من تحيتهم.

وقرنا مرفوعين، وقرئ: (فقالوا سلام) (قال سلاماً) والمعنى واحد.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: قال إبراهيم في نفسه: قومٌ منكرون، لأنهم ليسوا ممن
عهدهم من الناس. أو: لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (٢٦)

فذهب إلى أهله في خفية وسرعة فجاء بعجل سمين مشوي.

فإنَّ من أدب المضيف أن يبادرَ بتقديم القرى، قال تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ
بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧)

فوضعه بين أيديهم، وحثهم بأدب ولطف على الأكل.

ولما رأى أيديهم ممسكة عن طعامه، أضمر في نفسه خوفاً، لأن من لم
يأكل طعامك لا يحفظ ذمامك:

﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ (٢٨)

وهو إسحاق عليه السلام.

ولما سمعت امرأته سارة البشارة دنت منهم صائحة متعجبة:

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ مُّصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (٢٩)

﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَخٍ﴾ أي: في صيحة من الصرير.

﴿مُصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لظمت وجهها متعجبة.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عقيم، كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يُونِثَىٰ ۚ أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ (٣٠).

أي: هكذا قال ربك، فنحن لا نقوله من تلقاء أنفسنا، إنه هو الحكيم العليم. ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة وهم لا ينزلون إلا لأمر عظيم؛ سألهم عنه:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١).

أي: فما الشأن الخطير الذي أرسلتم لأجله؟.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢).

هم قوم لوط.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ (٣٣).

أي: من طين متحجر.

﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٤).

أي: معلّمة في ملك الله وسلطانه للمتجاوزين الحد في الفجور والعصيان. وانتقلت الآيات من بيت إبراهيم إلى قوم لوط تصف بإجمال ما أنزل الله بهم من العذاب والنكال:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَأَوْحَيْنَا فِيهَا عِزِّي بِئْتِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦).

وهم أهل بيت لوط عليه السلام إلا امرأته، فإنها كانت كافرة. وفيه دليل على جواز إطلاق العام على الخاص، فإن الإسلام أعم من الإيمان.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: تركنا فيها علامة دالة على ما أصابهم من العذاب يعتبر بها الذين يخافون من العذاب الأليم؛ ولا تزال قائمة حتى الآن في ما يسمى بالبحر الميت أو بحيرة لوط.

* * *

عبر وعضات

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَحَدْنَاهُ جُودَهُ فَسَدَدْنَاهُمْ فِي آلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَلَدُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَحَدْنَاهُمْ الصَّيْقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

ثم أشارت الآيات إلى العبر والعضات في ما حل ببعض المعذنين من الأمم السالفة:

﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

أي: وجعلنا في قصة موسى موعظةً وعبرةً عندما أرسلناه إلى فرعون بحجة واضحة ومعجزة ظاهرة.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْبِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ .

أي: فأعرض فرعون بجمعه وجنوده الذين يركن إليهم، ووصف موسى بأنه ساحر أو مجنون.

﴿فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذْنَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ (٤٠).

أي: فأخذنا فرعونَ وجنودَه فطرحناهم في البحر، وهو آتٍ بما يلام عليه من الكفر والعناد.

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١).

التي لا خير فيها.

﴿مَا نَذَرْنَا مِنْ شَيْءٍ آتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَارِئِمًا﴾ (٤٢).

أي: ما ترك من شيءٍ مرَّت عليه إلا جعلته هالكاً بالياً.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤٣).

وذلك أنهم لما عقروا الناقة المعجزة قال لهم نبيُّهم صالح: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام.

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الصُّعِقَةَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٤٤).

فاستكبروا عن طاعة ربهم، فأخذهم العذاب والهلاك وهم يرونه وينظرون إليه.

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ (٤٥).

أي: فأصبحوا هامدين، لا حراكَ بهم، وما كانوا ممتنعين منه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (٤٦).

أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء المذكورين، إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة ربهم. وقرئ (من قبل) بالجر.

الفرار إلى الله

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ اتَّوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٥٣﴾ فَنُوحِيَ إِلَيْهَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْنَا فِي الذِّكْرِ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

وبعد بيان العبر والعظات أبرزت الآيات كمال قدرة الله في خلق المكونات :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: والسماء بنيناها بقوة وقدرة، وإنا لذو سعة أغنياء قادرين على خلقها وخلق غيرها، لا يمتنع علينا شيء نريده .

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

والأرض بسطناها لكم فنعم الماهدون نحن .

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

أن الخالق فردٌ وترٌ، ليس كمثلته شيء، فالزوجية مبثوثة في كل المخلوقات كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] .

وبهذا البيان مهدت الآيات لأمره تعالى للرسول ﷺ بأن يأمرهم باللجوء إليه سبحانه وإلى عبادته وطاعته:

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

أي: فالجؤوا إلى عبادة الله وتوحيده والاعتصام به، إني لكم منه نذير بين الإنذار .

وتعليه بأنه ﷺ ينذرهم من جهته تعالى، لا من تلقاء نفسه، وعد كريم بنجاتهم من العقاب وفوزهم بالثواب.

فالفرار بالحقيقة من الله إلى الله، من سخطه إلى مرضاته، ومن عقوبته إلى معافاته، كما في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدته ﷺ من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه، وهو ساجدٌ يقول: «اللهم إني أعودُ برضاك من سخطك، وأعودُ بمعافاتك من عقوبتك، وأعودُ بك منك، لا أحصي نناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» [رواه الترمذي (٣٥٦٦) وأبو داود (١٤٢٧)].

ثم بينت الآيات أن الفرار الحقيقي لا يكون إلا بإخلاص العبادة لله وحده:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

فالإنذار الأول متصل بالأمر، والثاني متصل بالنهي، والغرض من كل ذلك الحث على دوام العبادة والطاعة، والتحذير من الشرك وأسبابه، فتكذيب الرسل أمرٌ خطيرٌ كبيرٌ شائع بين الأمم.

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾

أي: كما كذبت قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذلك فعل الذين من قبلهم فقالوا عن رسولهم: ساحر أو مجنون. ولهذا استنكر سبحانه اجتماعهم على هذا القول ووبخهم عليه قائلاً:

﴿أَتَوْاصُوا بِهٖ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغُونَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعاً، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان، فالطغيان ومجاورة الحد هو الذي جمعهم عليه لأنهم لم يتلاقوا في زمن واحد.

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ (٥٤).

أي: فأعرض عنهم، ولا تبال بهم، فلا لوم عليك فقد أديت الرسالة وما قصرت في التبليغ.

وليس المراد من الإعراض عنهم التوقف عن تبليغهم وموعظتهم، فالواجب عليه ﷺ وعلى كل داعية أن يستمر في التبليغ والتذكير:

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٥).

أي: تنفع من قرأ الله إيمانه، وتزيد المؤمنين بصيرة وهداية.

* * *

الحكمة من الخلق

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠).

ثم بينت الآيات في آخر السورة حكمته تعالى في الخلق:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦).

أي: إلا لأكلفهم بعبادتي وطاعتي، فما خلقتهم عبثاً ولا لعباً ولا لحاجتي إليهم؛ فأنا الغني عنهم وعن عبادتهم.

﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ (٥٧).

أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، وأسند الإطعام إلى نفسه

سبحانه، لأن الخلق كلهم عياله، ومن أطعم أحداً من عياله فكأنما أطعمه ﷺ .
وخص سبحانه الإطعام بالذكر لأنه المقصد الأساس الأول من الرزق الذي دارت الآيات في فلكه .

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (٥٨)

أي: إن الله هو الذي يرزق كل مفتقر إلى الرزق، ذو القدرة والقوة الذي لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء .
وإذا أثبت أنه تعالى ما خلق الجنَّ والإنسَ إلا ليكلّفهم بعبادته ويشرفهم بطاعته:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ (٥٩)

أي: فإن للذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن عبادته تعالى وطاعته، واشتغالهم بغير ما خلّقوا له، نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة، فلا يطلبون مني أن أعجلَ في الإتيان به، فويل لهم وهلاك إن استعجلوا نصيبهم من الشر .
وأصل الذنوب: الدلو العظيم الممتلئ ماء، ولا يقال لها ذنوب وهي فارغة، وتُستعار للنصيب مطلقاً، شراً كان أو خيراً^(١) .

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (٦٠)



تفسير سورة الطور مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مصير المكذبين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ وَكُنِبِ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾
وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَورًا ﴿٩﴾
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَمُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوكَ
إِلَى نَارٍ حَهَمْتُمْ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُنصُرُونَ
﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْرَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

بدأ تعالى سورة الطور كما بدأ سورة الذاريات قبلها بالأقسام التالية:

﴿وَالطُّورِ ١﴾ .

وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ، أو هو الجبل الذي تغطيه الأشجار، وما لم يكن كذلك لا يسمى طوراً.

والأول أولى، أقسم الله به تكريماً له، وتذكيراً بما أوحى الله إلى موسى

ﷺ عنده، ويقوّيه أنه تعالى أقسم به في سورة التين فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ .

﴿وَكُتِّبَ مَسْطُورٍ﴾ (٢)

أي: مكتوب؛ وهو القرآن الكريم المكتوب في اللوح المحفوظ، أو الذي يسر الله كتابته وحفظه في المصاحف. ويمكن أن يكون كتاب الأعمال الذي وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿فِي رَقٍ مَّنشُورٍ﴾ (٣)

أي: مبسوط. والرق: هو الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، وصف بأنه منشور، للإشارة إلى صحته ما فيه، فجعل معرضاً لنظر كل ناظر.

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ (٤)

أي: لكثرة الواردين عليه من الملائكة، ذكره النبي ﷺ في حديث الإسراء والمعراج، فقال: «فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جَبْرِيْلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخَرَ مَا عَلَيْهِمْ» [رواه البخاري (٣٢٠٧)].

وأكثر الروايات أنه في السماء السابعة بحيال الكعبة، حُرِّمَتْهُ فِي السَّمَاءِ كَحَرَمَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ فِي الْأَرْضِ.

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ (٥)

وهو السماء، لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ (٦)

أي: الموقد ناراً، ويكون ذلك عند قيام الساعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ .

أي: إن عذاب ربك لواقع بالكافرين ما له من مانع .
ولا يخفى أن الأمور المقسم بها تدل على كمال قدرة الله وحكمته وعلمه ،
وإحاطته بتفاصيل أعمال العباد وضبطها .
ثم وصفت الآيات هول ما يحدث يوم القيامة عندما تضطرب النظم
الكونية ، ويختل إحكامها تمهيداً لتبديلها غيرها :

﴿يَوْمَ نَمُورُ السَّمَاءَ مَورًا ﴿٩﴾﴾ .

أي: يوم تضطرب السماء اضطراباً هائلاً فظيعاً .

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ .

بنسفها وإزالتها عن أماكنها ، قال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي
نَسْفًا﴾ [طه : ١٠٥] .

وتأكيد الفعلين بمصدريهما (موراً ، سيراً) يدل على غرابتهما ، وخروجهما
عن الحدود المعهودة المألوفة ، وإذا وقع ذلك وحدث :

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: الذين هم منهمكون في الأباطيل والأكاذيب يلهون ويلعبون .
فالحوض: هو الاندفاع في الباطل والكذب دون أناةٍ ونظرٍ في العواقب ،
ولا شك أنه يؤدي إلى الهلاك والشقاء :

﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾﴾ .

أي: يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً غليظاً ، ويقال لهم عندما يصلون إليها :

﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

أي: كنتم تقولون عنه في الدنيا سحر، أفهذا سحر أم أنتم لا تبصرون كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق؟! .

﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: ادخلوها وقاسوا حرَّها على أي وجه شتتم من الصبر وعدمه، فإنه لا محيص لكم عنها .
﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من التكذيب والكفر .

* * *

الفضل والعدل

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَتَكْبِهِمْ أَيْمَانُهُمْ وَمَا بَيْنَهُمْ مِنْ شَيْءٍ مِثْلِ شَيْءٍ يُرْمَى بِهِمْ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَرَوَّضَاتٍ لِحُمْرٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنْعَمْتُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَحِمْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْيِيدٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلُمَاتٌ لَمْ يَكَتْهُمُ لَوْلُوهُمْ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِيْ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ آتَى اللَّهَ عَالِيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكَرْنَا فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتْ رِيَاكَ يَكَاهِنُ وَلَا مَجْزُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

وبعد أن وصفت الآيات مصير المكذبين وأكدته بالأقسام السابقة، وصفت

في مقابله مصير المتقين :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُُنٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ يَمَآءِ أَنَّهُمْ رِيَهُمْ وَوَقَفَهُم رِيَهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُُنٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ يَمَآءِ أَنَّهُمْ رِيَهُمْ﴾ أي: ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم. وقرئ: (فكهين).

﴿وَوَقَفَهُم رِيَهُم عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: ودفع ربهم عنهم عذاب الجحيم. وإظهار (الرب) في موضع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم للتشريف والتكريم. ويقال لهم زيادة في تكريمهم وتشريفهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: أكلاً وشراباً هنيئاً لا تنغيص فيه، جزاء ما كنتم تعملون.

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: مرتبة منسقة على صف بحيث يظل الجالسون عليها متقابلين لا متدابرين. ﴿وَرَوَّحْنَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ من نساء الجنة.

وحتى يزداد سرورهم يجمع الله بينهم وبين أبنائهم المؤمنين في الجنة فيلحق المقصّرين بالسابقين، ويجمع بينهم على أحسن الوجوه:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْخَفَاءِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا لَنَنَّهُمْ مِنَّ عَمَلِهِمْ مِن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْخَفَاءِ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فالله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرّ بهم عينه.

وقرئ: (ذرياتهم) للمبالغة في الكثرة. كما قرئ أيضاً: (وأتبعناهم ذريتهم) أي: جعلناهم تابعين لهم بالإيمان.

﴿وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً، إنما رفعنا أبناءهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان، وقرئ: (ألتناهم، لتناهم، آلتناهم) والكل بمعنى واحد.

ولما أخبر تعالى عن مقام الفضل برفع الدرجة أخبر عن مقام العدل:

﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾ أي: مرتهن بعمله، فلا يحمل على أحد ذنب غيره، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾.

أي: وزدناهم على ما هم فيه من النعيم بأنواع شتى من الفاكهة ومما يشتهون من اللحم.

﴿يَلْتَمِعُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ﴾.

أي: يتعاطون فيها هم وجلساؤهم برغبة واشتياق خمرأ، ولا يتكلمون بلعوى الحديث في أثناء شربها، ولا يفعلون الآثام كما هو عادة شاربي الخمر في الدنيا، فخرم الجنة منزهة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها. وفي قراءة: (لا لَعُوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ) بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾.

أي: ويطوف عليهم بالكأس مماليك مخصصون بهم، كأنهم في جمالهم اللؤلؤ المصون المخزون، كما في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [يٰكُوْبِ وَأَبَارِيْقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِيْنٍ] [الواقعة].

وعندما تطيبُ المجالسُ يحلو الحديث وتبادل الذكريات:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي: يتساءلون عن أحوالهم، ويتراجعون ذكرياتهم.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: إنا كنا في الدنيا خائفين وجلين من سوء المصير.

﴿فَمَرَّتْ أَلَّهُ عَلَيْنَا وَوَقْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ففضل سبحانه علينا برحمته وتوفيقه، وأجارنا من عذاب النار النافذة في المسام.

وقرى: (ووقنا) بتشديد القاف. والسموم: ريح حارة معروفة.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: إنا كنا نعبد، ونتضرع إليه، ونرجو رحمته، إنه هو الصادق في ما وعد عباده المؤمنين، المتفضل عليهم بالرحمة، استجاب لنا، وأعطانا سؤلنا. وفي قراءة: (أنه) بفتح الهمزة؛ أي: لأنه.

ثم التفت الآيات إلى النبي عليه الصلاة والسلام تثبته على طريق الدعوة والتبليغ، وتنفي عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور:

﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: لست - بحمد الله - كاهناً ولا مجنوناً، فلا تبال بأقوالهم وأكاذيبهم، واستمر على طريق الدعوة. والكاهن: الذي يخبر بالغيب بضرب من الظن.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

أي: تأمرهم عقولهم بهذا التناقض في الأقوال، أم هم مجاوزون الحدود في المكابرة والعناد، محرومون من الرشد والسداد.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَفَقَلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

أي: أختلق القرآن من قبل نفسه؟ بل لا يؤمنون بسبب كفرهم وعنادهم، فيصفون رسول الله ﷺ بهذه الأباطيل والأكاذيب.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ .

أي: فليأتوا بمثل القرآن إن كانوا صادقين في زعمهم.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي: أوجدوا من غير موجد أم هم أوجدوا أنفسهم؟! .

والعقل والمنطق ينفيان هذا وهذا، ويؤكدان وجود خالق خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لمن يسمع هذه الحجج القاطعة أن يستجيب لداعي الإيمان، ويقرّ بوجود خالق واحد أحد، فعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَبُونَ ﴿٣٧﴾﴾ كاد قلبي أن يطير. [رواه البخاري (٤٨٥٤)].

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ بَلْ لَا يُؤْفُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

أي: أهم خلقوا السماوات والأرض؟! بل لا يتدبرون في الآيات، ولهذا يعرضون عن الإيمان.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمْ الْمَصِيطِرُونَ﴾ (٣٧).

أي: أعندهم خزائن رزقه حتى يضعوا النبوة حيث شاؤوا؟! أم هم الأرباب القاهرون الذين لا يخضعون لأمر ولا نهى ويفعلون ما يشاؤون؟!

﴿أَمْ هُمْ سَاهٍ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَعْمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨).

أي: هل لهم سُلْمٌ يستمعون بواسطته إلى الملائة الأعلى؟! فليأت مستمعهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم عليه من شرك وضلال.

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ (٣٩).

وهو من ضلالهم الذي كانوا عليه.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَبٍ مُثْقَلُونَ﴾ (٤٠).

أي: لست تسألهم على ذلك أجراً ولا شيء يثقلهم، ويصددهم عن الإيمان.

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ (٤١).

أي: ليس الأمر كذلك، فلا يعلم الغيب إلا الله.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢).

أي: أيريدون كيداً برسول الله ﷺ، والله سبحانه عاصمه من كيدهم ومكرهم؟ وكيدهم إنما يرجع عليهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣).

أي: أم لهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه؟! سبحانه الله عما يشركون.

ثم بعد هذه المطاردة والمحاصرة الشديدة بينت الآيات شدة عنادهم وطغيانهم:

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

أي: لو عذبناهم بسقوط قطعة من السماء عليهم لم ينتهوا عن كفرهم، وقالوا: هذا سحبٌ مجموعٌ بعضه على بعض.

ولا بد للآيات أن تواسي رسول الله ﷺ عما يلقاه من عنادهم وكيدهم:

﴿فَدَرَّهُمْ حَتَّىٰ يَلْقَوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: اتركهم، ولا تبالِ بهم، حتى يلاقوا يومهم الذي يموتون ويهلكون فيه. وفي قراءة: (يصعقون) بفتح الياء.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: لا ينفعهم كيدهم شيئاً عند الموت، ولا يمنعهم من العذاب، بل إن لهم عذاباً في الدنيا قبل عذاب الآخرة.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك، وإنما يصرّون على الكفر عناداً واستكباراً.

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى اليوم الموعود والأجل المسمى.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحراستنا.

وفائدة الجمع: الدلالة على المبالغة في الحفظ كأن معه من الله تعالى حُفَظًا يكلؤونه بأعينهم، وهي من الصفات التي نؤمن بها كما جاءت، مفوضين معناها إلى الله تعالى، كما سبق معنا في أكثر من موضع.

وقد مرَّ معنا أنه تعالى قال لنبيه موسى ﷺ: ﴿وَلِنُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ومن نظر بعين بصيرته علمَ من الآيتين الفرق بين الحبيب والكليم عليهما أفضل الصلاة وأكمل التسليم^(١).

ويا له من تقدير وتكريم! إنها مرتبة عالية عزيزة خصَّ الله بها نبينا عليه أفضل الصلاة والتسليم، ورفعه إليها، والله يؤتي الفضل من يشاء، فيها إعزاز خاص، وأنس خاص، ومع هذا الإعزاز والأنس والتكريم بيان الصلة الدائمة بالله ﷻ.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: سبح بحمد ربك حين تقوم من كل مجلس.
أو: حين تقوم إلى الصلاة في الليل.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩).

أي: ومن الليل فسيحه بالذكر والعبادة، وفي وقت إدبار النجوم في آخره. وفي الآية إشارة إلى أهمية الركعتين اللتين قبل صلاة الفجر، وقد ثبت في البخاري [١١٦٩] ومسلم [٧٢٥]: من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر». ورواية مسلم [٧٢٥]: عنها: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» والله أعلم.



تفسير سورة النجم الوحي والإنذار في سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
استقامة النبي ﷺ على الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ ﴿مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ٢ ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٣ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٤

أقسم الله تعالى في أول السورة بالنجم فقال:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ .

﴿وَالنَّجْمِ﴾ والمراد جنس النجوم، أو نجم معين؛ لعله الشُّعْرَى المذكور في آخر السورة: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ [النجم: ٤٩]؛ وهو نجمٌ وقادٌ كان طائفة من العرب يعبدونه كما سيأتي معنا. وللخالق أن يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أي: إذا غاب وأدبر كما سبق معنا في آخر سورة الطور عند

قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَّحَّهٖ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ ٤٩ .

ويدل ظهور النجوم وغيابها في وقت معين على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحق أن تعبد وتَعْظَمَ.

ومرَّ معنا أن إبراهيم عليه السلام استدَلَّ بظهورها وغيابها على بطلان عبادتها، عندما ناظر عِبَدَتِهَا من قومه، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

وقيل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المقدار النازل من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه من ملك الوحي جبريل عليه السلام، وسياق الآيات يقوِّي هذا القول. وجواب القسم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾.

أي: ما عدل محمد عن طريق الحق، وما اعتقد باطلاً قط. فالضلال نقيض الهدى، والغي: نقيض الرشد، فهو عليه الصلاة والسلام في غاية الهدى والرشد، وهو شهادة له بأنه راشد تابع للحق ليس بضال. ويكون المعنى على القول الثاني: والقرآن الذي هو عِلْمُ الهداية إلى مناهج الدين ومسالك الحق، ما ضلَّ عنه محمد صلى الله عليه وسلم وما غوى.

ووصفه صلى الله عليه وسلم بـ (صاحبكم) يدلُّ على وقوف قومه على تفاصيل أحواله الشريفة وأخلاقه العالية، وعلى معرفتهم لمحاسن شؤونه النفسية، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

ففي الآية إخبار عن أحواله الشريفة على التعميم، فقد كان عليه الصلاة والسلام على الحق والاستقامة أبداً.

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٣﴾﴾.

أي: وما ينطقُ بالقرآن عن هواه، إن هو إلا وحي يوحى إليه. أو: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، إنما يقول ما أمَرَ به يبلغه الناس كاملاً

من غير زيادة ولا نقصان، ويقويه الحديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنهني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق» [رواه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد (١٦٢/٢) و(١٩٢)].

* * *

لقاء الأمينين

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَذَلَكُنَّ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾﴾ .

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾﴾ .

وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾﴾ .

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوة في العقل والرأي، فبعد أن وصفته الآيات بقوة الفعل وصفته بقوة النظر، أو ذو حكمة، فإن كلام الحكماء متين. والمِرَّة في اللغة: القوة، كما في الحديث: «لا تحل الصدقة لغني»، ولا لذي مِرَّة سوي» [رواه أبو داود (١٦٣٤)].

﴿فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أي: فاستوى جبريل وهو بالأفق الأعلى، فقام في صورته التي خلقه الله عليها لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم أن يريه نفسه على صورته، فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض، ومرة في السماء، فأما التي في

الأرض ففي الأفق الأعلى؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأْفُقِ المَبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]،
وأما التي في السماء فعند سدرة المنتهى.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨)

ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فنزل على النبي ﷺ بالوحي، ومن جزالة رأيه وحصافة عقله أن الله ائتمنه على وحيه إلى رسله.
وأصل التدلّي: النزول إلى الشيء حتى يقرب منه، يقال: تدلّت الثمرة، وأدلى دلوه. والدوالي: الثمر المعلق.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (٩)

أي: فكان بين جبريل ﷺ وبين محمد ﷺ لما هبط عليه على الأرض قدر قوسين إذا مُدّا أو أدنى، وهذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه، ونفي ما زاد عنه، كما في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].
وقوله أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧].
فالقريب الداني هو جبريل ﷺ، وهو قول عائشة وابن مسعود وأبي ذر
رضي الله عنهم، كما ذكر ابن كثير في تفسير الآية.

وأما ما ورد في حديث الإسراء كما في البخاري: من حديث شريك بن عبد الله قال: سمعت ابن مالك يقول: «ليلة أسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة... حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلّى، حتى كان منه قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاةً على أمتك كل يوم وليلة» [رواه البخاري (٧٥١٧)].

قال ابن حجر رحمه الله: «وقد أزال العلماء إشكاله؛ فقال القاضي عياض في «الشفاء»^(١): إضافة الدنو والقرب إلى الله تعالى أو من الله، ليس دنو مكان

ولا قرب زمانٍ، وإنما هو بالنسبة إلى النبي ﷺ إبانةً لعظيم منزلته، وشريف رتبته، وبالنسبة إلى الله ﷻ تأنيسٌ لنيبه، وإكرام له، ويتأول فيه ما قالوه في حديث: «ينزل ربنا إلى السماء» [رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨)].

وكذا في حديث: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

وقال غيره: الدنو: مجازٌ عن القرب المعنوي لإظهار عظيم منزلته عند ربه تعالى. والتدلي: طلبُ زيادة القرب. وقاب قوسين بالنسبة إلى النبي ﷺ: عبارةٌ عن لطف المحل وإيضاح المعرفة، وبالنسبة إلى الله: إجابة سؤاله ورفع درجته^(١).

* * *

تحقيق الوحي وتأكيده

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ ۚ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۚ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَأَىٰ ۚ وَقَدْ رَآهُ رَلَّةً أُخْرَىٰ ۚ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۚ إِذْ يَعْشَىٰ الْبَدْرَ مَا يَعْشَىٰ ۚ مَا رَأَىٰ ۚ مَا رَأَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۚ﴾

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ ۚ﴾

أي: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمدٍ ما أوحى، أو فأوحى الله إلى عبد الله محمدٍ ﷺ ما أوحى بواسطة جبريل، وإبهام الموحى به للتفخيم، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَعَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ﴿١١﴾ .

أي: ما كذب فؤاد محمد عليه الصلاة والسلام ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، فقد عرفه بقلبه، كما رآه ببصره.
وفي قراءة: (ما كذب) أي: صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته.
فالآيات تؤكد على تحقيق أمر الوحي، ولهذا استنكرت موقف المنكرين له بقوله تعالى:

﴿ أَفْتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾ ﴿١٢﴾ .

أي: أتكذبونه فتجادلونه على ما يراه معاينة، من المراء وهو المجادلة.
وقرى: (أفتمرونه) بفتح التاء وسكون الميم، مضارع مریت، أي: جحدت.
والمراد بما يرى: ما رآه عليه الصلاة والسلام من صورة جبريل عليه السلام،
وجيء بصيغة المضارع مع أن الرؤية قد مضت؛ إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد،
فقد نزل جبريل بالقرآن على النبي صلى الله عليه وسلم منجماً.

﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزَّلَةً أُخْرَى ﴾ ﴿١٣﴾ .

أي: ولقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلقه الله عليها مرة أخرى، والمراد من الجملة القسمية نفى الريبة والشك عن المرة الأخيرة التي كانت ليلة الإسراء والمعراج.

﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ ﴿١٤﴾ .

أي: وهي شجرة في السماء السابعة، أو في السماء السادسة، إليها ينتهي علم كل عالم من المخلوقات، وما وراءها لا يعلمه إلا الله تعالى، ويمكن أن يكون أصلها في السماء السادسة وأعلىها في السماء السابعة.

ووقع بيان سبب تسميتها سدرة المنتهى في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم [١٧٣]، ولفظه: لما أُسريَ برسول الله ﷺ قال: «انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها ينتهي ما يعرجُ من الأرض فيقبض منها». وقال النووي: سُميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهي إليها، ولم يجاوزها أحدٌ إلا رسول الله ﷺ.

﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥)﴾

أي: عند السدرة جنة المأوى التي يأوي إليها المتقون يوم القيامة.
أو: الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٦)﴾

إذ يزيد الله في حسنها وزينتها وأنوارها تكريماً لرسول الله ﷺ.
والغشيان: بمعنى التغطية والستر.

وفي إبهام: (ما يغشى) من التفخيم ما لا يخفى، وفي بعض الأخبار تعيينُ هذا الغاشي؛ فعن الحسن: غشيتها نورُ ربِّ العزة جلَّ شأنه فاستنارت، ونحوه ما روي عن أبي هريرة: يغشاها نورُ الخلاق سبحانه^(١).

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (١٧)﴾

أي: ما مال بصرُ رسول الله ﷺ وما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها وما جاوزها إلى غيرها، فهو ثناء عظيمٌ من الله ﷻ على نبيه الكريم بأنه ما جاوز ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، فقد كان عليه الصلاة والسلام في غاية التمكن والأدب، وما أحسن قولَ القائل:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتأها

أكده تعالى فقال:

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ﴿١٨﴾ .

الدالة على قدرته تعالى وعظمته .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: رأى ررفراً أخضراً قد سدَّ الأفق. [رواه البخاري (٤٨٥٨)].

ويوضح المراد ما أخرجه النسائي والحاكم: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أبصرَ نبيُّ الله جبريلَ عليه السلام على ررفرٍ قد ملأ ما بين السماء والأرض. والررفرُ: كلُّ ما فضل من شيء فعطف وثني، ويقال: ررفر الطائرُ بجناحيه إذا بسطهما، ويحتمل أن يكون جبريل بسط أجنحته فصارت تُشبهُ الررفر^(١).

وقد اختلف السلف في رؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ربه، فذهبت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما إلى إنكارها، واختلف عن أبي ذر رضي الله عنه، وذهب جماعة إلى إثباتها، وحكى عبد الرزاق: عن معمر، عن الحسن: أنه حلف أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رأى ربه. وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتدُّ عليه إذا ذكر له إنكارُ عائشة، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وجزم به كعب الأخبار والزهري وصاحبه معمر وآخرون، وهو قول الأشعري وغالب أتباعه.

ثم اختلفوا: هل رآه بعينه أم بقلبه؟ جاءت عن ابن عباس أخبارٌ مطلقة، وأخرى مقيدة، فيجبُ حمل مطلقها على مقيدها، من هذه الأخبار ما أخرجه مسلم [١٧٦]: من طريق أبي العالية، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿١١﴾ أفتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴿١٣﴾ [النجم] قال: رأى ربه بفؤاده مرتين. وله من طريق عطاء، عن ابن عباس قال: رآه بقلبه. وأصرح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه: من طريق عطاء أيضاً، عن ابن عباس قال: لم يره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعينه، إنما رآه بقلبه.

(١) فتح الباري: ٦١١/٨.

وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يُحْمَلَ نفيها على رؤية البصر، وإثباته على رؤية القلب.

ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام، بل مرادٌ من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما تخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيءٌ مخصوصٌ عقلاً، ولو جرت العادة بخلقها في العين، وروى ابن خزيمة بإسناد قوي: عن أنس قال: رأى محمدٌ ربه.

وعند مسلم [١٧٨]: من حديث أبي ذر: أنه سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «نورٌ أتى أراه» وبهذا يتبين مرادُ أبي ذر من ذكره النور، أي: النورُ حالٌ بين رؤيته له ببصره^(١).

* * *

صرعى الأوهام والشهوات

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّدَّ وَالْعُرَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَنْوَةَ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿١٦﴾ تِلْكَ إِذَا فَسَمَةٌ ضَرِيحٌ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرِهَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يَعْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ دِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

بعد أن أبرزت الآيات حقيقة الوحي، وأكدت تحقق وقوعه للنبي ﷺ في

الأرض وفي السماء، التفتت إلى المشركين تخاطبهم وهي تقبّح أصنامهم، وتزري بعقولهم التي زينت لهم عبادتها:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ .

اللات: كانت لثقيف في الطائف، وقيل: لقريش بنخلة على طريق الطائف. وعن ابن عباس قال: كان اللات رجلاً يلبث سويق الحاج. [رواه البخاري (٤٨٥٩)]. أي: كان يجلس على صخرة يصنع عليها شراباً للحجاج، يخلط معه عدداً من الأشربة، ولما مات قال لهم عمرو بن لحي: إنه لم يمّت، ولكنه دخل الصخرة. فعبدوها، وبنوا عليها بيتاً، وعمرو بن لحي هو الذي حمل العرب على عبادة الأصنام.

وأما العزى: فكانت شجرةً عليها بناءٌ وأستار بنخلة، كان المشركون من قريش يعظمونها، ولهذا قال أبو سفيان يوم أحدٍ مفتخراً بها: لنا العزى ولا عزى لكم. بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وهو يقول:

يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنني رأيتُ الله قد أهانك

وأما مناة: فكانت في جهة البحر مما يلي قديد بالمُشَلَّل بين مكة والمدينة، وكان الأوس والخزرج في الجاهلية يعظمونها، ويهللون منها بالحج إلى الكعبة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنما كان من أهل لمناة الطاغية التي بالمُشَلَّل لا يطوفون بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فطاف رسول الله ﷺ والمسلمون. [رواه البخاري (٤٨٦١)].

أفرد سبحانه هذه الأصنام الثلاثة بالذكر لأنها كانت أشهر من غيرها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ لَذَّةٌ الْحَيَاةِ وَاللَّهُ مُجْتَبِئُ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: أتجعلون له ولداً، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكر.

فلو اقتسمتم فيما بينكم مثل هذه القسمة لكانت قسمة جائرة باطلة، ولهذا قال تعالى عنها:

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾

وهو ردُّ لقولهم الباطل: الملائكة بنات الله، كما مرَّ معنا.
وهوَن سبحانه من شأن هذه الأصنام فقال:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما هي إلا أسماء مجردة، ليس لها مسميات، ما أنزل الله بها أي برهان تتعلقون به.
﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أي: ما يتبعون في عبادتها إلا الظن بأنها تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضرراً، وما تشتهيهم أنفسهم الأمانة بالسوء، فهم صرعى الأوهام والشهوات، ومن أجل هذه الأوهام والشهوات أعرضوا عن الهدى الذي جاءهم من ربهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ وهو الرسول المرسل بالحق المنير والحجة القاطعة.
ثم بينت الآيات ضعف الإنسان وأنه مخلوق محدود، لا يستطيع أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه وتشتهي:

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾

أي: بل ليس للإنسان كلُّ ما يتمناه وتشتهي نفسه.
فليس للكفرة ما كانوا يطمعون فيه من شفاعة الأصنام ونزول القرآن على رجل من القريرتين عظيم ونحو ذلك.

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾ (٢٥).

فهو المالك الحقيقي للآخرة والأولى، يتصرف فيهما سبحانه كما يشاء، لا راداً لقضائه ولا معقب لحكمه ﷻ.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (٢٦).

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ فالملائكة مع علو منزلتهم لا تنفع شفاعتهم شيئاً، وهذا تأكيد لكمال سلطانه تعالى على جميع المخلوقات الظاهرة والخفية، والأرضية والسماوية، فأمر الشفاعة منوط بمشيئته وحده وبرضاه. ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٠٩) [طه].

وعادت الآيات مرة ثانية تؤكد بطلان معتقدهم في أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ﴾ (٢٧).

كان إنكارهم يوم القيامة هو الذي أوقعهم في هذا الضلال، فإن إنكار الحق يؤدي إلى الضلال.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ (٢٨).

فهم أسرى الضلالات والأوهام، والحق لا يعرف إلا بالعلم، لا بالظنون والأوهام، فلا تحرص على هداهم، وأعرض عن الذي أعرض عن الحق:

﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢٩).

فأعرضهم عن القرآن الكريم هو الذي أوقعهم في الظنون والأوهام، وجعل

أنظارهم قاصرة على الحياة الدنيا، وهممهم متجهة إليها.

* * *

كباير الذنوب

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبْرَ الْأَنْفِ وَالْفَوْحِشَ إِلَّا اللَّئِيمَ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَعْرِفَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْتَقَى ﴿٣٢﴾ أَمْرًا يَتَذَكَّرُ الَّذِي تُوَكَّلَ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَأْيِهِ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: الدنيا منتهى علمهم، لا علم لهم غيرها، وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» [رواه الترمذي (٣٥٠٢)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ فلا تتعب نفسك في دعوتهم، وسلّم الأمر لله تعالى، فهو العليم بأحوال الفريقين، المصيرين على الضلال، والتمسكين بالهدى والرشاد، ويوم القيامة يميز بينهم في المصير والجزاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴿٣١﴾﴾ .

وهي الجنة، فالجزاء من جنس العمل.

ومن صفات المحسنين: أنهم يجتنبون كباير الإثم والفواحش، ولا يصرون

على الصغائر:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ وكبائر الإثم: هي الشرك وكل ما يؤدي إليه، فهو أكبر الآثام، وفي قراءة: (كبير). والفواحش: الزنى، وكل ذنب فيه حد. وأما اللمم: فهي الصغائر، التي لا يسلم منها إلا من عصمه الله وحفظه، والتي تكفر بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقْرِبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْأَنْهَارِ وَزُلْفًا مِنْ الْأَيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهِونَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وحتى لا ييأس أصحاب الكبائر من رحمته ومغفرته قال سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ هو أعلم بأحوالكم منكم من حين ابتداء خلقكم خلقاً إجمالياً ضمن خلق أبيكم آدم، وعندما كنتم في بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة.

• التحذير من كبيرة العُجب:

﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ وإذا كان الأمر كذلك، فلا تشنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي، وتمدحوها، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته وتوفيقه وهدايته، فهو العليم بمن اتقى جميع المعاصي من قبل أن يخلقكم.

ودلت الآية على أنَّ العُجب من الكبائر المذمومة، وهو استعظام العبادة، والركون إليها، والإعجاب بها، ويدعو الإنسان إلى نسيان الذنوب وإهمالها، ويتولد الكبر من العُجب، ومنه تتولد الآفات الكثيرة، وقد يؤدي العُجب إلى الانقطاع عن العبادة، والفتور عن الطاعة، وهو ما حذرنا سبحانه منه فقال:

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ (٣٣)

أي: أعرّض عن اتباع الحق والثبات عليه.

﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (٣٤)

وأعطى عطاءً قليلاً ثم قطعها، من قولهم: حفر فأكدى، إذا بلغ كدية، وهي صخرة؛ فيقول: أكديت. ويترك العمل.

﴿أَعْنَدُهُ، عَلِمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرِي﴾ (٣٥)

أي: أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معرفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما في يده، فهو يرى ذلك عياناً؟!.

والأمر ليس كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة بخلاً وشحاً، متأثراً بوساوس الشيطان، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ولهذا كان النبي ﷺ أجود الناس، يعطي عطاءً من لا يخشى الفقر.

* * *

الانتفاع بسعي الآخرين

﴿أَمْ لَمْ يَنْتَهِ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ هَبَّ سَيْفُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَبَصُوا كَيْدَ الرَّسُولِ وَذَكَرَ الَّذِينَ أُتُوا ﴿٣٧﴾ وَأَنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ لَمْ يَنْتَهِ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِذْ هَبَّ سَيْفُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَبَصُوا كَيْدَ الرَّسُولِ وَذَكَرَ الَّذِينَ أُتُوا ﴿٣٧﴾﴾

أي: وإبراهيم الذي أتم ما أمر به، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ

أَبْتَلَجْ إِبْرَهَمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنْ جَاءَكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبْتَلُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿البقرة: ١٢٤﴾.

﴿أَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

فلا تحملُ نفسٌ وزر نفسٍ أُخرى، ولا يؤخذ أحدٌ بذنب غيره، قال تعالى:
﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾
[فاطر: ١٨].

وكما لا يؤخذ الإنسانُ بذنب غيره، كذلك لا يثابُ بعمل غيره:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: إلا الذي سعى به عمله، وهذا بالعدل، وأما بالفضل فقد ينفعه الله بسعي غيره إذا كان مؤمناً، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

قال ابن عطية: «والتحريم عندي في هذه الآية أنَّ ملائكة المعنى هو في اللام من قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَانِ﴾ فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه: لي كذا، لم تجد إلا سعيه، وما تمَّ بعدُ من رحمةٍ بشفاعةٍ أو رعايةٍ أبٍ صالحٍ أو ابنٍ صالحٍ، أو تضعيفٍ حسناتٍ أو تغمدٍ بفضلٍ ورحمةٍ، دون هذا كله»^(١).

قال في «الدر المختار»: «الأصل أنَّ كلَّ من أتى بعبادة ما، له جعلُ ثوابها لغيره، وإن نواها عند الفعل لنفسه، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ فمؤولٌ، كما حققه الكمال، حيث قال: حاصله أنَّ الآية وإن كانت ظاهرة فيما قاله المعتزلة، لكن يُحتمل أنها منسوخة أو مقيدة، وقد ثبت ما يوجبُ المصيرَ إلى ذلك، وهو ما صحَّ عنه ﷺ أنه ضحى بكبشين أملحين؛ أحدهما عنه، والآخر عن أمته، فقد روي هذا عن عدة من الصحابة، وانتشر مخرجه،

فلا يبعدُ أن يكونَ مشهوراً يجوزُ تقييدُ الكتاب به، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عمله إلا مِن ثلاثٍ...» [مسلم (١٦٣١)] فلا يدل على انقطاع عمل غيره، وقوله أيضاً: «لا يصومُ أحدٌ عن أحدٍ، ولا يصليُّ أحدٌ عن أحدٍ» فهو في حق الخروج عن العهدة لا في حق الثواب^(١).

ومرَّ معنا الأمرُ بالدعاء للوالدين، والإخبارُ باستغفار الملائكة للمؤمنين.

قال القرطبي: وكثيرٌ من الأحاديث يدل على أن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ خاصاً في السيئة، بدليل ما في صحيح مسلم [١٢٨]: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال ﷺ: إذا همَّ عبدي بحسنةٍ ولم يعملها، كتبها له حسنةً، فإن عملها كتبها له عشرَ حسناتٍ إلى سبعةٍ ضعفٍ، وإذا همَّ بسيئةٍ ولم يعملها لم أكتبها عليه، فإن عملها كتبها سيئةً واحدةً»^(٢).

﴿وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾

أي: يعرض عليه، ويكشف له يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عَفْوِهِمْ وَأُخْرَجَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿يُمْ يُجْزَى لَهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾

أي: يُجزى على عمله الجزاء الأتمَّ الأكمل.

(١) انظر: رد المحتار: ٢/٢٣٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/١١٥.

إنذار وسجود

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۖ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَكَ ۖ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ۖ ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ
الرَّوْحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ ﴿٤٥﴾ مِنْ نَفْثَةٍ إِذَا تَثْنَىٰ ۖ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ۖ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْيَىٰ وَأَقْنَىٰ ۖ ﴿٤٨﴾
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ ۖ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۖ ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا مِمَّا أَقْنَىٰ ۖ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ
كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ ۖ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۖ ﴿٥٣﴾ فَمَسَّهَا مَا عَشَىٰ ۖ ﴿٥٤﴾ وَيَأْتِي ءَالَءَ رَبِّكَ نَتْمَارَىٰ ۖ ﴿٥٥﴾
هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ۖ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ ۖ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۖ ﴿٥٨﴾ أَمِنَ هَذَا
الْحَدِيثِ فَعَجَبُونَ ۖ ﴿٥٩﴾ وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۖ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ۖ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۖ ﴿٦٢﴾﴾ .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ۖ ﴿٤٢﴾﴾ .

إليه منتهى الخلق ورجوعهم يوم القيامة كما في قوله: ﴿وَالِإِلَٰهَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ فكأنه يقول له: لا تحزن؛ فإن إلى ربك المنتهى، فهو منتهى الآمال ومحط الرجاء، أو أن منتهى الأفكار إلى الله ﷻ، فلا تزال الأفكار تسيّر في بيداء حقائق الأشياء حتى إذا اتجهت إلى ذات الله وحقائق صفاته وقفت وانتهى سيرها.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله وليتته» [رواه مسلم (١٣٤)].

ومما يدل على كمال قدرته تعالى وطلاقة إرادته، خلقه المخلوقات المتضادة ذات الأحوال والصفات المختلفة:

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَكَ ۖ ﴿٤٣﴾﴾ .

أي: قضى أسباب الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا﴾ (٤٤).

أي: خلق الموت والحياة.

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّرِّيَّةَ الْأُنثَىٰ وَالذَّكَرَ الْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ (٤٦).

أي: من نطفة واحدة تصب في الرحم، وأشارت الآية إلى حقيقة علمية: أن الذكورة والأنوثة مرتبطة بماء الرجل، وإلى حقيقة ثانية: وهي تعيينها جنسه في أثناء عملية إماء النطفة.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْآخِرَىٰ﴾ (٤٧).

أي: الخلق الثاني وهو البعث بعد الموت، وقرئ: (النشأة) بالمد.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ (٤٨).

أي: أغنى الناس، وأعطاهم القنية، وهو ما يقتنونه ويدخرونه.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ﴾ (٤٩).

أي: هو رب معبودهم الذي يعظمونه، وهو نجم كانت خزاعة تعبده وتعظمه.

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ (٥٠).

وهم قوم هود، وكانوا بالأحقاف.

﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ (٥١).

فما أبقى منهم أحداً. وقرئ: (وتمود) بتنوين وبغير تنوين. وديار ثمود هي الحجر، منها مدائن صالح حيث آثارهم ما زالت قائمة تدل على ما حلَّ بهم.

﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطغَىٰ﴾ (٥٢).

من عاد وثمود.

﴿وَالْمُونِيفَةَ أَهْوَىٰ﴾ (٥٣).

وهي قري قوم لوط التي اتفتكت بأهلها؛ أي: انقلبت.

﴿فَعَسَّهَا مَا عَشَىٰ﴾ (٥٤).

وهو تهويلٌ وتعظيمٌ لما صُبَّ عليها من العذاب.

﴿فِي أَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكَ نَتَمَارَىٰ﴾ (٥٥).

أيها المخاطبُ تشكك بما أولاك من النعم أو بما كفاك من النقم!

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ﴾ (٥٦).

أي: هذا القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ نذيرٌ من الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

﴿أَزِفَتِ الْأَافِقَةُ﴾ (٥٧).

أي: قربت الموصوفة بالقرب.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (٥٨).

أي: إذا وقعت لا يدفعها من دون الله أحدٌ، ولا يَطَّلَعُ على علمها سواه.

﴿أَفَمَن هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجِبُونَ﴾ (٥٩).

أي: أفمن هذا القرآن تعجبون إنكاراً؟.

﴿وَضَحَّكُونَ وَلَا يَبْكُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿وَضَحَّكُونَ﴾ استهزاءً .

﴿وَلَا يَبْكُونَ﴾ ولا تبكون على ما فرطتم في شأنه .

أخرج البيهقي في «شعب الإيمان»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ...﴾ بكى أصحابُ الصُّفَّةِ حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمعَ رسولُ الله ﷺ خنينهم بكى معهم فبكينا ببكائه، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يلجُ النارَ مَنْ بكى مِنْ خشيةِ الله تعالى، ولا يدخلُ الجنةَ مُصِرًّا على معصيته، ولو لم تُذنبُوا لَجاءَ اللهُ تعالى بقومٍ يذنبون، فيستغفرون فيُعَفَّرُ لهم» .

وأخرج أحمد في «الزهد» وابن أبي شيبَةَ وهناد وغيرهم: عن صالح أبي الخليل قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَضَحَّكُونَ وَلَا يَبْكُونَ﴾ ما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك إلا أن يتبسَّم^(١) .

﴿وَأَنْتُمْ سَاجِدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ .

أي: وأنتم لاهون مستكبرون .

﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا﴾ ﴿٦٢﴾ .

ويبدو أن المشركين أخذوا بجلال التنزيل وقوة الإنذار، فمرت بهم فترةٌ خشوع وخضوع فسجدوا لله، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . [رواه البخاري (٤٨٦٢)] .

(١) روح المعاني: ٧٢/٢٧ .

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم)، فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتِلَ كافرًا؛ وهو أمية بن خلف. [رواه البخاري (٤٨٦٣)].
وهذه آية سجدة تلاوة عند أكثر العلماء.



تفسير سورة القمر الإنذار بالساعة في سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
انشقاق القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعْتَبٌ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا بِهِ
مُزْدَجَّرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِيغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذَارُ ﴿٥﴾ فَنَوَّلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ
نُّكْرٍ ﴿٦﴾ حُسْعًا أَنْصَرَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ حَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ .

بدأ الله سبحانه سورة القمر بقوله:

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ .

وهو إخبار عن اقتراب يوم القيامة، وإخبار عن انشقاق القمر.

والساعة جزء من أجزاء الزمان عبّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها، أو لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم.

ووقع انشقاق القمر في زمان رسول الله ﷺ، وورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وقد مرَّ معنا قول ابن مسعود رضي الله عنه: خمسٌ قد مضين: الرومُ والدخانُ واللزائمُ والبطشَةُ والقمرُ.

قال ابن كثير رحمته الله: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أنَّ انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات.

فعن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما. [رواه البخاري (٣٨٦٨)].

والمراد من قوله: (أهل مكة) بعضهم، ولم يعاجل الله المكذبين بالعذاب كما حدث للأمم المكذبة السابقة، لأن إدراكها لم يكن عاماً، وقد بُعث عليه الصلاة والسلام رحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال].

والنبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، بُعث في الزمن القريب من الساعة، ولهذا كان ﷺ يقول: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ويشير بأصبعيه فيمدهما. [رواه البخاري (٦٥٠٣)].

ولا يعترض بما مضى من بعثته عليه الصلاة والسلام وما يمضي، فإن ذلك قليلٌ بالنسبة لعمر الكون، ولما مضى منه قبل بعثته عليه الصلاة والسلام، ودلَّ الحديث الشريف على أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة كنسبة فضل إحدى الإصبعين على الأخرى.

ولا معارضة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] ونحو ذلك، لأن علم قربها لا يستلزم علم وقت مجيئها معيناً^(١).

ثم إنَّ القمر بعد انشقاقه لم تفارق قطعته السماء، بل بقيتا فيها متباعدين تباعداً ما لحظة ثم اتصلتا.

(١) فتح الباري: ٣٥٠/١١.

وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعد، وهو منتظر، أي: اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر، وإن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره... قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية^(١).

قال ابن الجوزي رحمته الله: روى حديث الانشقاق جماعة؛ منهم: عبد الله بن عمر، وحذيفة، وجبير بن مطعم، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعلى هذا جميع المفسرين إلا أن قوماً شذوا فقالوا: سينشق يوم القيامة، وهذا القول الشاذ لا يقاوم الإجماع^(٢).

وأكد وقوع انشقاق القمر وصف الآيات عناد المكذبين وإعراضهم:

﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾.

أي: إن يروا دليلاً وحجة ومعجزة لا ينقادوا بل يعرضوا ويقولوا: هذا سحر باطل مضمحلٌ ذاهب، من قولهم: مر الشيء واستمر؛ إذا ذهب وضمحل.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾﴾.

أي: وكل أمر واقع ينتهي إلى غاية يستقر عليها لا محالة، ومن جملتها أمر النبي عليه الصلاة والسلام، فسيصير إلى غاية يتبين عندها صدقه وعلو شأنه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: ولقد جاءهم من أخبار الأمم السابقة الهالكة ما فيه واعظ لهم عن العناد والتمادي في التكذيب والفساد.

(١) تفسير القرطبي: ١٧/١٢٦.

(٢) زاد المسير: ٨٨/٨.

﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْذُرُّ﴾.

وفيما جاءهم حكمة بالغة غاية الأحكام والإتقان، ومع ذلك أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها، فهو استفهام في معنى التوبيخ، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالذُّرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَقَوْلٌ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾.

أي: أعرض عنهم، ولا تبال بهم، فإنهم يُدعون يوم القيامة إلى أمر فظيع عظيم. وقرئ: (نكر) بإسكان الكاف. وتأكيذاً لفظاعته، وصفت الآية أحوالهم عند خروجهم من القبور:

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾.

﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: خشعاً أبصارهم عند خروجهم من القبور، وأضاف الخشوع إلى الأبصار، لأنَّ أثر العزِّ والذل يتبين في ناظر الإنسان. ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ أي: يخرجون من القبور بعد أن يسمعوا الداعي فيقصده كالجراد المنتشر، لأنَّ الجراد له جهة يقصدها، وأما عند الخروج من القبور فيخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض كالفراش المبعوث^(١).

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين مادّي أعناقهم إليه. ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ أي: هذا يومٌ صعبٌ شديد كما قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

* * *

المنتصر بالله تعالى

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَفَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ دَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرِ ﴿١٣﴾ فَجَرَىٰ بِأَعْيُنِنَا حَرَاءً لِّمَن كَانَ كَفِرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ ﴿١٦﴾﴾ .

ثم شرعت الآيات تذكر بإجمالِ أحوال بعض الأمم المعاندة التي لم تنزجر بالأنبياء الموجبة تقريراً لفحوى قوله: ﴿فَمَا تَعْنِ الْنُذُرُ﴾ [القمر: ٥]، وبدأت بقوم نوح ﷺ:

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ .

أي: كذبوا نوحاً ﷺ تكذيباً إثر تكذيب، ولم يقتصروا على التكذيب، بل نسبوه إلى الجنون، وإنه أصرَّ على التبليغ، مع أنه زُجر عنه بأنواع كثيرة من الأذى، أو ازدجرته الجن وتخبطته.

ووصفه ﷺ بالعبودية مع الإضافة إلى نون العظمة، تفخيماً له، ورفعاً لمحلّه، وتقييحاً لمكذبيه.

واستنصر ﷺ بالله بعد طول صبر ومعاناة على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿٩﴾﴾ .

أي: مغلوب من جهة قومي، فانتقم لي منهم. وقرئ: (إني) بالكسر.

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمٍ ﴿١١﴾﴾ .

مطر مُنصب، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدة انصبابها.

ففي الكلام استعارة تمثيلية بتشبيه تدفق المطر من السحاب بانصباب الأنهار. وفي قراءة: (ففتّحنا) بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: جعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة. وأصله: فَجَّرْنَا عيون الأرض، فغير إلى التمييز للمبالغة.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾ أي: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمرٍ كائن لا محالة، قَدَّرَهُ اللهُ تعالى، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان.

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: وحملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح عريضة، ومسامير شُدَّتْ بها.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿١٤﴾﴾ .

أي: تجري - بمرأى منا، وبحفظنا وكلاءتنا - في ذلك الماء، جزاءً لنوح عليه السلام، فإنه كان نعمة أنعم الله بها على قومه فكفروها. أو جزاءً لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: جعلنا هذه الواقعة أو السفينة عظة وعبرة يُعتبر بها، فهل من متعظ ومعتبر. وأصله: (مدتكر) مفتعل من الذكر، فقلبت التاء دالاً تخفيفاً على الألسنة، وأدغمت الدال فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾﴾ .

وهو استفهام تعظيم وتعجيب، ولهذا كرر في المواضع التي تستدعي

التعظيم والتعجيب، والنذر: جمع نذير بمعنى الإنذار.

* * *

تيسر القرآن للذكر

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَرَعُ النَّاسُ كَانَهُمْ كَاعْبَارُ نَخْلِ مُنْفَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَشْرَكَ مِنَّا وَحِدًا نَجْعُهُمْ إِنَّا إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَتُلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَبَعَا مَوْنٌ عَدَا مِنْ الْكذَّابِ الْأَشِيرِ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ وَنِنَّةً لَهُمْ فَأَرْفَعَهُمْ وَأَصْطَبِرُ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِيسْمَةُ يَنْبَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ ﴿٢٨﴾ فَمَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذِرٍ ﴿٣٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَظِيرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٦﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْرِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَدَايَ وَنَذِرٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بَكْرَةٌ عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَدَايَ وَنَذِرٍ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الرُّبْرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾

أي: سهّلنا القرآن للذكر والاتعاظ، فهل من متذكر متعظ؟! .

وفيه حثٌّ على تدبّر القرآن الكريم، والاعتبار بما فيه من عبرٍ ومواعظٍ وحكم وأحكام، وأن من أراد ذلك فإنه يُعان عليه.

وهو قَسَمٌ أوردته الله في أواخر القصص الأربع المذكورة في السورة، تنبيهاً على أن كل قصة كافيةٌ في الازدجار، ومع ذلك لم ينزجر المشركون، ولم يتعظوا، وأول هذه القصص قصة قوم نوح التي سبق ذكرها، وثانيها قصة قوم عاد:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾﴾ .

أي: كذبت نبيها هوداً عليه السلام، فكيف كان عذابي ونذري التي أنزلتها بهم؟! كأنه يقول: فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: إنا أرسلنا عليهم ريحاً باردة أو شديدة الصوت في يوم شؤم مستمر عليهم حتى أهلكهم، أو مستمر عليهم نحسه لاتصال عذابهم الدنيوي بالأخروي، ولم يكن يوماً واحداً، وإنما استمر الشؤم عليهم في كل أيام العذاب، كما قال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَمِنِّيَّةٍ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦].

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: تنزع الناس من أكنانهم وملاذاتهم كأنهم أصول نخل منقلع عن مغارسه، ساقط على الأرض، ويبدو أن الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾﴾ .

وهو تهويل لهما، وتعجيب من أمرهما، بعد بيانهما، فلا تكرر. ثم ختم تعالى قصة عاد كما ختم قصة نوح بقوله:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾

والقصة الثالثة: قصة ثمود:

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾

فإن تكذيب أحدهم وهو نبيهم صالح ﷺ تكذيب للكل.

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَبِّعُهُمْ إِنَّا إِذَا أَلْفَى ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَحِدًا نَبِّعُهُمْ﴾ كأن كونه واحداً من جنسهم يمنعهم من اتباعه، وهم أمة كبيرة.

﴿إِنَّا إِذَا أَلْفَى ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ أي: إنا إذا اتبعناه لفي ضلال ونيران تتسعّر في قلوبنا، وهذا يدل على شدة عتوهم واستكبارهم.

﴿أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: ألقى عليه الوحي وفينا من هو أحق منه بذلك؟! فالحسد هو أيضاً من أسباب تمسكهم بالضلال، وجعلهم يصرّون على تكذيب رسولهم.

﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل هو كذاب، يريد أن يترفع علينا، ويتعاطم من غير استحقاق. والأشْر: المرح والتجبر والنشاط.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُ ﴿٢٦﴾﴾

أي: سيعلمون عند نزول العذاب بهم من هو الكذاب الأشْر.

وفي قراءة: (ستعلمون) بالتاء على أنه من قول صالح ﷺ لهم على الخطاب.

وقوله: (غداً) على التقريب على عادة الناس في تقريب العواقب.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَمِنَ لَّهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: إنا مخرجو الناقة من الصخرة حسبما سألوا امتحاناً لهم، فانتظرهم، وأبصر ما يصنعون، واصبر على أذاهم.

﴿وَنَبِّئَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وأخبرهم أن الماء مقسوم، لها يوم، ولهم يوم، كل شرب يحضره صاحبه في نوبته، كما في قوله سبحانه: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾

فنادوا صاحبهم، وهو أشقاهم، فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم، فعقر الناقة. ومعنى تعاطى: تناول الفعل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَدَاؤِي وَنَذِيرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْرِ ﴿٣١﴾﴾

أي: فصاروا كالحشيش اليابس، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته، وقرئ بفتح الظاء.

وعقبت الآيات على القصة بالدعوة إلى الاعتبار والاتعاظ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٢﴾﴾

والقصة الرابعة: قصة قوم لوط:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارة.

﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ بَجَّيْنَهُمْ إِسْحَارٍ﴾ في آخر الليل .

﴿نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ (٣٥) .

أي: جعلنا نجاتهم نعمة منّا عليهم كذلك نجزي من شكر نعمتنا فلا نعذبه عذاب الكافرين .

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ (٣٦) .

أي: ولقد أنذرهم لوط بطشتنا وعذابنا ، فشكّوا بالإنذار ولم يصدّقوا وكذّبوا .

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِيهِ فطمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (٣٧) .

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِيهِ فطمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أي: ولقد قصدوا الفجور بهم فطمسنا أبصارهم وأعمينا عيونهم .

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ أي: فطمس الأبصار من جملة ما أنذروه من العذاب إذ كان مقدمة العذاب .

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (٣٨) .

أي: عذاب ثابت لا يفارقهم أنزل عليهم في أول الصبح .
ويقال لهم توبيخاً:

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ (٣٩) .

وكذلك عقب الآيات على هذه القصة بالدعوة إلى الانعاز والاعتبار كما فعلت بالقصص التي سبقتها:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٠﴾﴾ .

والقصة الخامسة: قصة موسى وفرعون:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾﴾ .

أي: والله لقد جاءهم الإنذارات.

وهذا التوكيد القسمي في أول قصتهم لإظهار عِظَم ما في الإنذارات من معجزات، ومع ذلك:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: أخذ غالب لا يعجزه شيء، عزيمته.

ثم أقبلت الآيات على مشركي مكة توبخهم على عنادهم وإعراضهم:

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ أي: أكفاركم يا مشركي مكة أقوى وأشد من أولئك الذين أحلت بهم نقمتي وعذابي؟! وهو استفهام إنكار بمعنى ليسوا بأقوى منهم.

﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: أم أنزل لكم في الكتب أن من كفر منكم فهو في أمان من العذاب، فلذلك تصرُّون على الكفر والضلال؟! .

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي: نحن يدٌ واحدة لا نرام ولا نضام، منتصرون على من عادانا.

وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥)

أي: سيهزمُ جمعهم، ويولون الأدبار، وحدث ذلك يوم بدرٍ. وقد نزلت الآية في مكة قبل الهجرة حتى إن عمر رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ جعلتُ أقول: أي جمع يهزم؟ فلما كان يومُ بدرٍ رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله يثب في الدرع وهو يقول: «سيهزم الجمع» [رواه الطبري (١٠٨/٢٧)]. وقد أخرج مسلم عن ابن عباس: حدثني عمر ببعضه.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾ (٤٦)

أي: ليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد عقابهم الفظيع، والساعة أشدُّ وأمرٌ مذاقاً من عذاب الدنيا، فهم في عذاب مستمر في الدنيا والآخرة. وقد نزلت هذه الآية أيضاً في مكة؛ فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وآله بمكة وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾. [رواه البخاري (٤٨٧٦)].

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ (٤٧)

أي: إنهم في ضلال وهلاك في الدنيا، ويران مسعرة في الآخرة.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (٤٨)

أي: يوم يجرون في النار على وجوههم، ويقال لهم تقريباً وتوبيخاً: ذوقوا حرَّ جهنم.

إثبات القدر

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَعِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ اللَّائِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾ .

ثم قررت الآيات في ختام السورة كمال علمه تعالى وقدرته وحكمته :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ .

أي: إنا خلقنا كل شيء مقدرًا مرتبًا كما سبق في علمه تعالى وحكمته، فهو كقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

فلكل شيء قدر يحدد حقيقته وصفته وزمانه وارتباطه بما حوله .

وقد يكون المعنى المراد: إنا خلقنا كل شيء بتقدير سابق معلوم ومكتوب في لوح المقادير .

قال ابن كثير رحمته الله: يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه بالأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش يخاصمون الرسول صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: ﴿ يَوْمَ يُسْجَوْنَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ دُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [٤٨] إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ . [رواه مسلم (٢٦٥٦)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كلُّ شيءٍ بقدرٍ حتَّى العجزُ والكيسُ» [رواه مسلم (٢٦٥٥)].

والعجز: ضد الكيس، وهو النشاط والحذق في الأمور .

إن الآية الكريمة تعطينا مسألة من أهم مسائل علم التوحيد، وهي أن كلَّ مقدر بقدر حادث ممكن، لا بد له في وجوده واختصاصه بقدره الذي هو عليه،

من فاعل موجود واجب الوجود، أعطاه وجوده، وخصصه بالقدر الذي هو عليه، وما من شيء في العالم إلا وهو ذو قدر معين في ذاته ومكانه وزمانه وصفاته، من صَغَر وكَبُر، وطول وقصر، وخفة وثقل، ونور وظلمة، ولطافة وكثافة، وحركة وسكون... وما يستتبع هذا من أشكال وألوان، وطعوم وروائح، وصعود ونزول، وأمكنة وجهات، وقُرب وبعد، إلى سائر خصائص المادة، فكل ذلك تنطق الآية الكريمة بأنه مختص بالمخلوقات، يتعالى عن الانصاف بشيء منه ربها وخالقها. فإن كل ذي قدر مخلوق.

والخلق في اللغة يدور على معنى التقدير والإيجاد على قدر معين، ومَرَّ معنا أن فرعون لما سأل موسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] أجابه ﷺ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

فذو القدر المخصوص ينادي على نفسه بأنه حادثٌ ممكن مخلوق، وصدق الله العظيم القائل: ﴿اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر].

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠).

أي: وما أمرنا لشيءٍ نريد تكوينه إلا أن نقول له: كن؛ فيكون على قدر ما يلمح أحدكم ببصره، فأمره تعالى مرة واحدة لا يتكرر، مما يدل على سرعة نفاذ أمره، وتحقق مراده.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذْكَرٍ﴾ (٥١).

أي: ولقد أهلكنا أشباهكم ونظراءكم في الكفر فهل من متعظ ومعتبر؟!.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢).

أي: وكل شيء من خير وشر فعلوه مكتوب في كتب الحفظة، وفي لوح القدر، سواء كان صغيراً أم كبيراً.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾﴾ .

أي: مكتوب.

ثم تَوَجَّتْ السُّورَةُ خَاتَمَتَهَا ببيان مصير المتقين، في مقابل ما ذكرت من مصير المجرمين:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ .

أي: في أنهار.

﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ .

أي: في مكان مرضي، أو حق لا لغو فيه ولا تأثيم، عند من تعالى أمره في الملك والاقْتِدَار، فلا شيء إلا تحت ملكه وقدرته. وقرئ: (مقاعد).
فأَيُّ مَنْزِلَةٍ أَكْرَمَ مِنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ، وَأَجْمَعَ لِلْغِبْطَةِ كُلِّهَا، وَالسَّعَادَةِ بِأَسْرَهَا.
قال جعفر الصادق عليه السلام: وصف الله تعالى المكان بالصدق، فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق^(١). أسأل الله أن يجعلنا منهم.





تفسير سورة الرحمن التَّذْكِيرُ بِالنَّعْمِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَعْظَمُ النِّعَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي
الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) فِيهَا
فَنَكِهَةٌ وَالنَّحْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْعَبْقَرُ ذُو الْأَعْيُنِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) .

بدأ الله تعالى السورة باسم من أسمائه الحسنى الدال على كماله ورحمته وإحسانه :

﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) .

هذا إخبار من الله تعالى عن فضله ورحمته بخلقه بأنه أنزل عليهم القرآن،
ويسر تلاوته، وتدبر آياته، كما مر معنا في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ
فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (١٧) .

فالقرآن الكريم أعظم النعم شأنًا، وأرفعها مكانًا، فهو مدار السعادة الدينية
والدنيوية، وتعلّمه و تعليمه من أعظم النعم، كما في الحديث الشريف: «خيركم
مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» [رواه البخاري (٥٠٢٧)].

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾

أي: علّمه بيان ما في نفسه، وفهم بيان غيره، وهو الأساس الذي يقوم عليه تعليم القرآن، وفي تقديم تعليم القرآن على خلق الإنسان إشارة إلى أن معنى الإنسان لا يتحقق فيه إلا بتعلم القرآن والعمل به.

ومن نعم الله على الإنسان أن نظّم له شأن الزمان:

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾

أي: يجريان بحسبان مقدرٍ محكم دون أدنى خلل، بحيث تنتظم به أمور الكائنات، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

ثم أخبرت الآيات عن كمال تقديره تعالى وتدييره وإتقانه وإحكامه:

﴿وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ﴾

أي: والنجم الذي في السماء، والشجر النبات في الأرض، خاضعان لحكمه تعالى وأمره، منقادان لما يريد بهما، فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقد يكون المراد بالنجم النبات الذي ينجم ويظهر من الأرض ولا ساق له، وبالشجر النبات الذي له ساق.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خلقها مرفوعة ابتداء.

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: وشرع العدل، وأمر به، إذ به يستقيم أمر العالم، وتقوم السماوات والأرض على أبلغ نظام وأتقن إحكام.
فالمراد بالعدل الإحكام والإتقان وإعطاء كل شيء خلقه، ووضعه في موضعه المناسب له في الزمان والمكان.

أو المراد: وَوَضَعَ فِي الْأَرْضِ الشَّرِيعَةَ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْعَدْلِ، فالميزان على هذا المعنى هو القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].
ويقوي هذا المعنى قوله بعد ذلك:

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾

أي: لئلا تطغوا فيه. والطغيان: مجاوزة الحد إلى الجور والظلم، فالله وضع الميزان، وأمركم ألا تطغوا فيه.
ولا شك أن ذلك من النعم الجليلة، التي تفضلَ بها الله على عباده، وأمرهم بها أمر إلزام:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اعدلوا في جميع أقوالكم وأفعالكم، وحرِّدْهم من الإخلال فيه.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوه، فإنَّ من حقه أن يسوّى، إذ هو المقصود من وضعه، وكرر لفظ الميزان تشديداً للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله والثبات عليه.

وكما نظم تعالى الزمان وشرع العدل وحرّم الظلم، نَظَمَ أيضاً المكان، وجعله مناسباً لمخلوقاته:

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: والأرض خلقها وأوجدها ليعيش عليها الإنس والجن، فهي مُسَخَّرَةٌ وممهدة لهم، جعل فيها كل ما يحتاجون إليه في حياتهم:

﴿فِيهَا فَكِيهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾﴾ .

أي: فيها أنواع كثيرة من الفاكهة والنخل ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر، فثمر النخل يكون في غلاف قبل أن ينشق عنه، وخصَّ النخل بالذكر من بين سائر الشجر لأنه أعظمها وأكثرها نفعاً.

﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: كالحنطة والشعير ونحوها ذات الورق اليابس، وهو التبين علف الأنعام، والريحان الذي يشم أو ثمرته أو الرزق، والأصل: (وذو الريحان) فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو فيها الريحان، وفي قراءة: (والحبُّ ذا العصف والريحان) أي: وخلق الحب، أو أخص الحب.

* * *

توبيخ وإنكار

﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنَكِّدُكُمْ تُلْكُمَا ﴿١٣﴾﴾

وبعد أن أجملت الآيات ذكر أعظم النعم وأجلّها، وجهت الخطاب إلى الكفار الجاحدين توبيخهم على كفرهم وتكذيبهم:

﴿فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنَكِّدُكُمْ تُلْكُمَا ﴿١٣﴾﴾ .

أي: فإذا كان الأمر كما فصل وذكر، فبأي فرد من أفراد مالكمما ومريكمما

بتلك النعم تكذبان؟! مع أن كل نعمة منها ناطقة بالحق شاهدة بالصدق.

والآلاء: النعم، واحدها: إيلي، وألي، وإلي، وألي، وألي، أربع لغات^(١).

والخطاب للأنام، وهما الإنس والجن كما مر معنا، وسيأتي التصريح بهما

في قوله: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

والفاء: لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما ذكر من النعم العظيمة الموجبة

للإيمان والشكر حتماً، وأكد النكير، وشدد التوبيخ، إضافة ضميرهم إلى الاسم

الكريم (الرب) المنبئ عن كمال سلطانه وتربيته سبحانه، وتكذيبهم بآلائه كفرهم

بها، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، وإصرارهم على تكذيب رسوله عليه الصلاة

والسلام، ولهذا يُندب للمؤمن أن يعلن مخالفته للمشركين الجاحدين ويقول كلما

سمع هذه الآية: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذبُ، فلك الحمدُ.

ففي «جامع الترمذي» [٣٢٩١]: عن جابر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها

على الجن فكانوا أحسنَ مردوداً منكم، كنتُ كلما أتيتُ على قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ

ءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ﴾ قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربنا نكذبُ، فلك الحمدُ».

* * *

تفصيل النعم

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَحَّارِ ﴿١٤﴾ وَحَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَيَأْتِي

ءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَيَأْتِيءِ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿١٨﴾﴾

ثم شرعت الآيات في تفصيل ما أجملت من النعم تأكيداً لتوبيخ الكافرين

الجاحدين لها:

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: خلق الله آدم من تراب، ثم جعله طيناً، ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصلاً كالفخار، وهو الطين اليابس الذي يصلصل إذا ما نُقِر.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾﴾.

الجان: أبو الجن، أو هو اسم جنس شامل للجن كلهم، خلقهم الله من لهب خالص لا دخان فيه، أو من اللهب المختلط بسواد أو خضرة أو صفرة، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط.

ففي الحديث: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [رواه مسلم (٢٩٩٦)].

﴿فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: تكذبان بما أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من النعم، أو بأي قدرة ربكما تكذبان، فإن له في كل خلقٍ بعد خلقٍ قدرة بعد قدرة، فتكرير الآية للتأكيد والمبالغة في التقدير والتذكير، وإقامة الحجة عليهم.

فالله عدّد في هذه السورة نعماءه، وذكّر خلقه بالآئه، ثم أتبع كل خلة وصفها، ونعمة وضعها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لينبههم على النعم، ويقرّهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟! ألم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟!... والتكرير حسنٌ في مثل هذا.

قال الحسين بن الفضل: التكرير طرد للغفلة وتأکید للحجة^(١).

وهي طريقة من الفصاحة معروفة موجودة في كتاب الله في مواضع، وفي

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٧/١٥٩.

حديث النبي ﷺ، كما أنها شائعة في كلام العرب.

﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧)﴾ .

أي: هو ربُّ مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما .
ولا شك أن في ذلك مصالح كثيرة للخلق، ولهذا عَقِبَ عليها بقوله:

﴿فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (١٨)﴾ .

* * *

حاجز بين البحرين

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٢١) بِحَجِّ مِهْمَا
الْوَلُؤُ وَالْمَرْمَآثِ (٢٢) فِي آيَةِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْخَوَارِ الْمُنْتَشَاتُ فِي السَّحْرِ كَالْأَعْلَمِ (٢٤) فِي آيَةِ
آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذَّبَانِ (٢٥)﴾ .

ومن نعمه وأثار قدرته:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩)﴾ .

أي: أرسلهما وجعلهما يلتقيان، والمراد بهما: البحر المالح والبحر
العذب، لقوله في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ
وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ .

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ .

أي: بينهما حاجزٌ من قدرته تعالى، لا يبغى أحدهما على الآخر بالتمازجة
وإبطال الخاصية.

فأكثر المياه العذبة تذهب في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي عند مصباتها بالمياه المالحة، ثم تنفصل عنها بتقدير الله تعالى بواسطة الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياح إلى حيث يشاء سبحانه أن تنزل مرة ثانية، فما أعظم قدرة الله الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة مستمراً، وهو نعمة من نعمه العظمى سبحانه؛ لأنه سبب من أسباب استمرار الحياة على الأرض، ولهذا عقب أيضاً على هذه النعمة بقوله:

﴿فِي آيَاتِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ .

ومن نعمه سبحانه في البحار أيضاً:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ .

كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

فاللؤلؤ والمرجان هما الحلية التي تستخرج من سواحل البحار قرب مصبات الأنهار.

﴿فِي آيَاتِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْمَوَارِثُ الْمُنْتَشَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾﴾ .

وهي السفن الكبيرة اللواتي أنشئت في البحر بسبب ضخامتها فيما يسمى بالأحواض الجافة، فهي بسبب ضخامتها تبدو كالجبال الشاهقة، فهي له حلال لا تخرج عن ملكه ﷻ وعن قبضة قدرته.

﴿فِي آيَاتِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ .

ففي تركيب السفن وجريها في البحر أسباب كثيرة لنعم عظيمة، أبداعها

وقدَّرها العليم الحكيم ﷻ .

* * *

فناء المخلوقات وضعفها

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَسَبَقَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلِّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنُرِيعُ لَكُمْ آيَةَ الْفُتُلَانِ ﴿٣١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَعْجَلْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئَ مِنْ نَارٍ وَخِطَّافٍ فَلَا تَنْصَرُونَ ﴿٣٥﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ .

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ .

أي: كل من على الأرض هالك زائل، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿وَسَبَقَ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ .

ويبقى الله ذو الغنى المطلق والفضل التام الذي يجعله المؤمنون عن التشبه بخلقه، والمكرم لأنبيائه وأوليائه بلطفه وإحسانه.

وفي «جامع الترمذي» [٣٥٢٤]: عن أنس رضي الله عنه قال: «الطُّوبَى: يا ذا الجلال والإكرام» أي: الزموا هذه الدعوة وأكثروا منها.

﴿فَيَأْتِي ءَالَآءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ .

ففي فناء الخلق وبقائه تعالى وحده إيذاناً بأنه تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً آثار لطفه وكرمه، فيكرمهم بالحياة الأبدية، ويشيهم بالنعيم المقيم.

«فَيَصِيحُ صَبِيحَةً يَسْمَعُهُ مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ» [رواه البخاري (١٣٣٨)]; لأنهما كالثقل على وجه الأرض، أو لأنهما مثقلان بالتكليف والمسؤولية.

﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ .

فالتكليف فيه تشريف وتفضل وإحسان .

ويقال لهم يوم الحساب والجزاء :

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أي :

لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، وهذا الأمر لإظهار عجزهم وضعفهم .

﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي : لا تقدرُونَ على النفوذ إلا بقوة وقهر، وأتى

لكم ذلك؟! فأنتم عن ذلك بمعزل .

﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾ .

فقد نبهكم وحذركم وأندركم .

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي : يرسل عليكم لهبٌ من نار ونحاس، وهو الصّفر المذاب، وقيل :

الدخان، فلا تمتنعان . وقرئ: (ونحاس) بالجر عطفاً على نار .

﴿فِي أَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ .

فإن التهديد لطفٌ، والتمييز بين المطيع والعاصي من النعم والآلاء .

التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَفْئَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَلِدُونَ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْئَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَنَكُهُمُ وَرَوَّاحٍ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَّيْنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْحَنَنَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرُوفِ لَمْ يَطْمَئِنَّ إِسْنٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدَهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَنَكُهُمُ وَمِغْلٌ وَرَمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْبَيْتِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمَئِنَّ إِسْنٌ قَبْلَهُمْ وَلَا حَانٌ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَأْتِي ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ نَبْرًا أَنتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

أكدت الآيات هذا المعنى بالتذكير بمصير الكافرين الجاحدين، ومصير

المؤمنين يوم القيامة:

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾

أي: فكانت حمراء مذابة كالدهن، وقرئت بالرفع على أن (كان) تامة.

﴿فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ .

فإن التحذير من هذا المصير من نعم الله تعالى علينا .

﴿يَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾ .

أي: فيوم تنشق السماء لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، لأنهم كما سيأتي يعرفون بسيماهم، وذلك حين يخرجون من قبورهم، ويساقون إلى أرض المحشر حيث يسألون، فيوم القيامة يوم طويل.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ سِيمَتَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: يُعرف المجرمون بسواد وجوههم، وزرقة عيونهم، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦] .

وقوله أيضاً: ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] فتجمع نواصيهم إلى أقدامهم.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

فيعدَّبون تارة بالنار، وتارة بالحميم الذي بلغ النهاية في الحرارة .

﴿فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ .

فالتخويف بالعذاب من النعم، كما أن الترغيب برحمته وجنته منها أيضاً . ولهذا أضافت الآيات وصف بعض ما أعد الله للمؤمنين من النعيم في الجنة:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: ولمن خاف قيامه بين يدي ربه للحساب والجزاء، أو خاف قيام ربه عليه وإطلاعه على أحواله فأعرض عن المعاصي، وأقبل على عبادته وطاعته بإخلاص، فله يوم القيامة بفضله تعالى عليه جنتان.

وفي الحديث الشريف: عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» [رواه مسلم (١٨٠)].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٧﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].. فبأي آء ربكما تكذبان؟..

﴿ذَوَاتَا أَغْصَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: ذواتا أغصان متشعبة؛ واحدها فنن، أو ذواتا ألوان من الأزهار والثمار.. فبأي آء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾ .

أي: في كل واحدة من الجنتين عين تجري كما يشاء صاحبها.. فبأي آء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَرْشٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ .

أي: صنفان متقابلان رطب ويابس، حلو وحامض... فبأي آء ربكما تكذبان؟..

﴿مُتَّكِفِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحِجَىٰ الْجَنَّةِ دَانَ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿مُتَّكِفِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ أي: من ديباج ثخين، فما ظنك بظواهرها

إذا كانت بطائنها من إستبرق؟! .

﴿وَحِجَى الْجَنَّةِ دَانَ﴾ أي: وما يجتنى من ثمارهما قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع، فالشجرة تدنو منه حتى يجتنياها.
﴿فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ .

﴿فِيهِنَّ فَصِرَتُ الْأُطْرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ .

أي: فيهما نساء عفيفات، يقصرن نظرهن على أزواجهن، لم يمسسهن قبل أزواجهن أحد من الإنس والجن، أو يقصرن طرف الناظر لحسنهن فلا ينظر إلى غيرهن. . فبأي آء ربكما تكذبان؟ . .

﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾ .

أي: كأنهن في صفاء البشرة الياقوت والمرجان. . فبأي ربكما تكذبان؟ . .
ثم أخبرت الآيات أن الله تفضّل عليهم بكل هذا النعيم لأنهم أحسنوا في عبادته وطاعته:

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ .

فما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب.

﴿فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

فالإحسان في الثواب من النعم التي أنعم الله بها عليهم.

﴿وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ ﴿٦٣﴾﴾ .

أي: ومن دون هاتين الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين، جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين. . فبأي آء ربكما تكذبان؟ . .

﴿مُدَّهَا مَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ .

أي: خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَا ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾ .

أي: عينان فوّارتان بالماء.. فبأي آلاء ربكما تكذبان؟..

﴿فِيهِمَا فَكِكُهُ نُخُلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿حِسَانٌ﴾ أي: نساء حسان الخلق والخلق.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبُيُوتِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿مَّقْصُورَاتٌ﴾ أي: بيض مخدرات ملازمات لبيوتهن.

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ إِسْرُ قِبَلَهُمْ وَلَا جِآنٌ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ﴾ أي: لم يمسهن قبل أزواجهن أحد من الإنس ولا من الجن.

﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ .

أي: يتنعمون متكئين على رفرف خضر، وفرش عجيبة نادرة حسان. والرفرف: ما يطرح فوق الفراش للنوم.

﴿فَبِأَيِّ آءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾ .

فإن في هذا الترغيب والتشويق رحمة عظيمة ونعمة كبيرة.

﴿ تَبْرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (٧٨)

أي: تعالى اسمه الجليل المنبئ عن إفاضة الرحمات، وزيادة الخيرات ودوامها، وهو الاسم الذي بُدئت به السورة (الرحمن) ذي الجلال والإكرام، وقرئ: (ذو الجلال والإكرام) على أنه وصف للإله الكريم الرحمن. أسأله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لا من الكافرين الجاحدين، وأن يكرمنا برحمته وجنته يوم الدين.



تفسير سورة الواقعة الأصناف الثلاثة في سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تحقيق القيامة وتأكيده وقوعها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لَوْقَعْنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ حَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ
الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُبَدَّنًا ﴿٦﴾ وَكُنْتُمْ أَرْدًا نَلْدَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ
الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿٩﴾﴾

بدأ الله تعالى السورة بقوله:

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾

أي: إذا حدثت القيامة، فالواقعة من أسمائها.

وسُميت بذلك للإيذان بتحقيق وقوعها لا محالة، كأنها واقعة في نفسها، وحذف الجواب لتحويل أمرها وتفخيمه. فالواقعة: السقطة القوية، وشاعت في وقوع الأمر العظيم المؤكد الذي لا يكذب.

﴿لَيْسَ لَوْعَنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ (٢)

أي: لا يكون عند وقوعها نفس تكذب بها، وتنفي وقوعها، كما هو حال الكافرين بها في الدنيا، فوقعها أمر محقق، أو ليس فيها ارتداد ولا رجعة.

﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ (٣)

تخفض أقواماً إلى أسفل أسفلين، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، فتخفض المتكبرين، وترفع المستضعفين، والخافض والرافع على الحقيقة هو الله وحده.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ (٤)

أي: حُرِّكَتْ وزلزلت زلزلاً شديداً، فينهدم كل شيء فوقها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ (٥)

أي: وَفُتَّتِ الجبال فتاً، حتى صارت كالدقيق المبسوس، وهو المبلول. أو سيقت وسُيِّرَتْ وقُلعت قلعاً من أماكنها.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ (٦)

أي: فكانت غباراً متفرقاً بعد أن كانت راسخة شامخة.

﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ (٧)

أي: وصرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة.

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (٨)

والميمنة: ناحية اليمين، أو اليُمُنُ والبركة.

وهو تعجيبٌ من حالهم يوم القيامة، وتعظيمٌ لشأنهم، ومعناه: أي شيء هم في حالهم وصفتهم؟ .
وفي المقابل عَجَّبَت الآياتُ من شأن الصنف الثاني وفَطَّعت حالهم:

﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿٩﴾﴾

والمشأمة: ناحية الشمال أو الشؤم والشر .

فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال، سُمُّوا بذلك لأنهم يؤتُونَ كتبهم بأيمانهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق].

وأصحاب المشأمة في نهاية سوء الحال، وسُمُّوا أيضاً بذلك لأنهم يؤتُونَ كتبهم بشمالهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَوْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ [الحاقة: ٢٥] فهم المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة .

وفي «صحيح مسلم» [١٦٣]: من حديث الإسراء، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فلما علونا السماء الدنيا، فإذا رجلٌ عن يمينه أسودٌ، وعن يساره أسودٌ؛ فإذا نظر قِبَلَ يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبيِّ الصالح والابن الصالح، قلتُ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا آدم عليه السلام، وهذه الأسود التي عن يمينه وعن شماله نَسْمُ بنيهِ، فأهل اليمين أهل الجنة، والأسود التي عن شماله أهل النار».

* * *

مصير المقربين يوم القيامة

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَدِّمِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَعُونَ عَلَيْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَاحُهُمْ مِمَّا يَتَسَحَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَطْمِئِنَّا مِمَّا يَسْتَهْوُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾ حَرَّةً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

وهو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة، أحرَّ ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأفضلهم ليردَّف ذكرهم بمحاسن أحوالهم، فهم الذين اشتهرت أحوالهم، وعرفت محاسنهم، ويكفي وصفهم بهذا الوصف للدلالة على علوِّ فضلهم، واستغنائهم عن أي وصف آخر، فهم السابقون إلى طاعته ورحمته وجنته .

﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: أولئك المقربون عند ربهم، رفع منازلهم، وأعلى مراتبهم . ولا يخفى ما في الإشارة إليهم بـ (أولئك) وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد بذكرهم، من بيان لرفعة منزلتهم بالفضل .

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: هم أمة كثيرة من الأمم السالفة، وقليل من أمة محمد ﷺ . والظاهر على هذا المعنى أنَّ سابقي الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، بينما

يجعلني منهم؟ قال: «اللهم اجعله منهم» ثم قام إليه رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عكاشة» [رواه البخاري (٦٥٤١)].

فالجميع من هذه الأمة، ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن تنسحب الآية على جميع الأمم، كل أمة بحسبها، وهذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها، وأعلى منزلة لشرف دينها وعظم نبيها عليه الصلاة والسلام.

﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾

أي: منسوجة بالذهب، مشبكة بالدرر والياقوت.

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مَتَّعِلِينَ ﴿١٦﴾﴾

لا ينظر بعضهم إلى أفضاء بعض، وهو وصف لهم بحسن العشرة وجمال الأخلاق.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾

ويطوف عليهم للخدمة ولدان لا يهرمون، ولا يموتون، باقون على طراوتهم، لا يتحولون عنها.

﴿يَأْكُوبُ وَأَبَارِيقُ وَكَأْسٌ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾

أي: من خمر جارية من العيون.

والأكواب: الآنية التي لا عرى لها ولا خراطيم، والأباريق: ذات عرى وخراطيم، وأفرد الكأس لأنها مملوءة، فلا تسمى كأساً إلا إذا كانت مملوءة.

﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: لا يصيبهم صداع بسببها، ولا يسكرون كما هو الحال في خمر الدنيا.

﴿وَفَلَكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَبِرُونَ﴾ (٢١)

أي: ويظاف عليهم أيضاً بفاكهة مما يختارون ويشتهون.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَحُورٍ عِينٌ﴾ (٢٣) ﴿كَأَمْثَلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ (٢٤)

أي: ولهم حور عِين كأمثال اللؤلؤ المكنون في الصفاء. وهو الذي لم تمسه الأيدي.

وقرئ بالجر (وحور) عطفاً على (جنات) بتقدير مضاف، أي: هم في جنات ومصاحبة حور.

﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤)

أي: فعلنا ذلك بهم جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا بطاعتنا. فلا يسمعون في الجنة إلا ما يؤنسهم من الكلام ويسرهم:

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ (٢٥)

فلا يسمعون لغواً باطلاً، ولا كلاماً فيه إثم، كما هو حال أهل الدنيا، ولكن يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم، قال تعالى: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٦) ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِمَّا صَبَرْتُمْ فَعِمَّ عَقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد].

* * *

أحوال أصحاب اليمين في الجنة

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾
وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْرُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَسْأَلُكُمْ
إِنْشَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّمْنَاهُ أَنْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنْ
الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

ثم شرعت الآيات تصف أحوال الصنف الثاني، وهم أصحاب اليمين،
والنعيم الذي يكرمون به في الجنة:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾.

وهي جملة استفهامية ذكرت لتفخيم حالهم والتعجيب منه.

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: هم في سدر غير ذي شوك كسدر الدنيا، أو ثنيت أغصانه لكثرة ثمره.

﴿وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾.

نضد حمله من أسفله إلى أعلاه، كأنه لا ساق له، وهو شجر الموز.

﴿وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

ممتد منبسط لا يتقلص، وفي الحديث الشريف: عن سهل بن سعد رضي الله عنه،
عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ
مَا يَقْطَعُهَا» [رواه البخاري (٦٥٥٢)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ

لشجرةٌ يسيرُ الراكبُ الجوادُ، أو المضمَّرُ السريعُ مئةَ عامٍ وما يقطعُها» [رواه البخاري (٦٥٥٣)].

﴿وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ ﴿٣١﴾﴾

يسكب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا، بلا تعب، قال تعالى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. أو يجري على الأرض في غير أحوال.

﴿وَفَاكِهِةٌ كَثِيرَةٌ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: لا تنقطع في بعض الأوقات كفاكهة الدنيا، ولا تمنع عن تناولها. وفي قراءة: (وفاكهةٌ) بالرفع بتقدير: وهناك فاكهة.

﴿وَفُرْشٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿٣٤﴾﴾

رفيعة القدر، أو مرفوعة على الأسرة، ويكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعها كونها على السرير مع زوجها، قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِفُونَ﴾ [يس: ٥٦].

﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾﴾

أي: إنا ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديداً، أو أبدعناهن من غير ولادة. لكن الأخبار دلت على أن المراد بهنَّ المؤمنات من نساء الدنيا، فقد أخرج الترمذي في «السنن» [٣٢٩٦]: عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُنشآتِ اللَّاتِي كُنَّ فِي الدُّنْيَا عَجَائِزَ عُمَشًا رُمَصًا».

وأخرج أيضاً في «الشمائل» [٢٤٠]: عن الحسن قال: أتت عجوزٌ فقالت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يدخلني الجنة، فقال: «يا أمَّ فلان، إنَّ الجنةَ لا تدخلها

عجوزٌ» فولّت تبكي، قال: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوزٌ، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنثَاءً﴾ (٣٥)». والحديث مرسل.

﴿جَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا﴾ (٣٦) ﴿عُرِّبْنَ أَتْرَابًا﴾ (٣٧).

متحبات إلى أزواجهن، في سن واحدة، كأنهن شبّهن في التساوي بالترائب التي هي أضلاع الصدر، أو كأنهن وقعن على تراب الأرض معاً وهنّ يلعبن صغيرات، أو أتراب في الأخلاق ليس بينهن تباض وتحاسد كما يكون بين الضرائر في الدنيا، فهن العواشق لأزواجهن، المتحابات بينهن.

﴿لَأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (٣٨).

أي: أنشئن لأصحاب اليمين.

﴿ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ﴾ (٣٩) ﴿وَتَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (٤٠).

وكلهم من هذه الأمة كما مرّ معنا في المقربين، وقد أخرج ابن جرير: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «هما جميعاً من أمتي». والظاهر أنّ ما ذكر من أصحاب اليمين هو حالهم الذي ينتهون إليه، فلا ينافي أن يكون منهم من يعذب لمعاصي فعلها ومات وهو غير تائب عنها، ثم يدخل الجنة، فإن أصناف أصحاب الشمال الآتية تدل على أنهم كانوا كافرين.

الترف والضلال في أصحاب الشمال

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا نَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾
 إِنَّهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِّثْرًا ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَبِثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
 تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَعُونُ ﴿٤٧﴾ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنِّي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَحْمُومُونَ
 إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الصَّالُونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكُونُ مِن شَحْرٍ مِّنْ رُّعُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالْكَوْنُ
 مِمَّا الْبَطُونِ ﴿٥٣﴾ فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَتَشْرَبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا رُكْعٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ .

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ .

وهي جملة استفهامية ذكرت لتحويل حالهم وعذابهم.

﴿فِي سُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ .

أي: في ريح حارة تنفذ في المسام، وماء شديد الحرارة يقطع الأمعاء،
 قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ٥١].

﴿وَظِلٍّ مِّنْ يَّحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ .

أي: ودخان أسود يغطيهم ويظللهم.

﴿لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ .

لا بارد كغيره من الظلال، ولا نافع لمن يأوي إليه من أذى الحر.
 ففي الآية تهكم مُرَّ بهم، فهم لا يستحقون الظل الذي فيه برد وإكرام، بل
 يستظلون بظل وهم مهانون معذبون.
 ثم بيَّن سبحانه سبب عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: كانوا منهمكين في الشهوات، أترفهم النعمة وأبترتهم، فجدوا فضل الله عليهم.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ .

وكانوا يداومون على الذنب العظيم وهو الشرك والكفر.

أو: هو القسم على إنكار البعث، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨] وهو المعنى المشهور للحنث.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

يقولون ذلك مكذبين به، مستبدين وقوعه.

﴿أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

أي: أبيعث أبأؤنا أيضاً فهم أقدم، وبعثهم أبعء وأبطل؟! .
وفي قراءة: (أو أباعنا) بإسكان الواو.

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ .

قل رداً لإنكارهم، وتحقيقاً للحق: إن الأولين والآخرين، ومن جملتهم أبأؤكم؛ لمجموعون بعد البعث إلى وقت معلوم معين هو يوم القيامة، فإليه الغاية والانتهاء، ولهذا عُدِّي بـ (إلى).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١)﴾ .

ثم إنكم أيها الضالُّون عن الهدى المكذبون بالبعث .

﴿لَا كَلِمَ مِنْ شَجَرٍ مِّن زُفُورٍ (٥٢)﴾ .

وهو الشجر الذي ينبت في أصل الحميم ، قال تعالى : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصفات] .

﴿فَأَثَرُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣)﴾ .

من شدة الجوع .

﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤)﴾ .

أي : فشاربون بعده من الحميم .

﴿فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهَمِيمِ (٥٥)﴾ .

الإبل العطاش التي أصيبت بداء يجعلها تشرب فلا ترتوي ، أو شُرب الرمال التي لا تمسك الماء ، وفي قراءة : (شُرب) بفتح الشين وهما مصدران . وشربهم للحميم المتناهي في حرارته الذي يقطع أمعاءهم أمر عجيب يدل على أنهم ابتلوا بالعطش الشديد الذي حملهم على شرب الحميم .

﴿هَذَا نَزْلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)﴾ .

أي : هذا أول ما أُعدَّ لهم يوم الدين ، فما ظنك بما بعده من العذاب؟! . وفي قراءة : (نُزلهم) بتسكين الزاي .

الإيجاد والإمداد

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُوثُونَ ﴿٦٣﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ لَوْلَا نَحْنُ بِمَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ أُنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُحْجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ أُنشِئْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَقًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

مهدت الآيات النفوس بهذه الإثارة الوجدانية الشديدة للمحاكمة العقلية الملزمة بالإيمان بيوم الحساب والجزاء، فوجَّهت خطابها إلى الكافرين الجاحدين قائلة لهم:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

فهلا تصدِّقون بالبعث.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾

ما تقذفون في الأرحام من النطف.

﴿أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

أنتم تخلقونه بشراً سوياً أم نحن الخالقون؟!.

فمن خلق الخلق أول مرة قدر عليه مرة ثانية.

﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ .

أي: نحن قدرنا الموت، وقسمناه عليكم بوقت معين، وما يسبقنا أحدٌ فيهرب من الموت، أو يغير وقته المحدد له.

﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ﴾ ونحن قادرون أيضاً على أن نذهبكم، ونخلق مكانكم أشباهكم، فوجودكم منوط بمشيئتنا وقدرتنا، قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ [إبراهيم].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصفات والأحوال، فنحن قادرون على خلق ما يماثلكم، وما لا يماثلكم؛ فكيف نعجز عن إعادتكم بعد الموت؟! .
فالآية تدل على كمال قدرته تعالى، وطلاقة مشيئته، فهم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته في الحياة وبعد الممات.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا لِلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى. وفي قراءة: (النشأة).
ودلت الآية على حجية القياس، وأنه مصدر للأحكام الشرعية.

ثم أضافت الآيات تذكّرهم بأهم أسباب استمرار حياتهم ومعاشهم من طعام وماء ونار، وهي الطاقة الضرورية لذلك، لتؤكد أن إيجادهم وإمدادهم بقدرته ومشيئته سبحانه:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ .

وهو شقُّ الأرض وإثارتها والبذر فيها للزراعة.

﴿أَنْتُمْ تَنْبَتُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمُنْبِتُونَ لَا أَنْتُمْ؟!﴾

أنتم تنبتونه أم نحن المنبتون لا أنتم؟! .
أضافت الآية أسباب الزراعة إليهم بينما أضافت التأثير والخلق والإيجاد إلى الله وحده .

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ أي: نحن أنبتناه بقدرتنا ومشيتنا، ولو نشاء لأيسناه وأهلكناه قبل استوائه ونضجه واستحصاده .

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: فصرتم بسبب ذلك تتعجبون من سوء حاله، أو تدمون وتأسفون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه كما في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] .

أو تقولون: إنا لآسفون على ما أنفقنا، أو: إنا لمهلكون بهلاك رزقنا، بل نحن محرومون لا حظ لنا، كأنهم لما قالوا: إنا لمهلكون؛ أ ضربوا عنه، وقالوا: بل هذا أمر أصبنا به لنحوسة طالعنا وعدم بختنا .

وأصل التفكه: التنقل بصنوف الفاكهة، وقد استعير للتنقل بالحديث، وقرئ ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بالكسر و ﴿فَظَلْتُمْ﴾ على الأصل^(١) .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: الماء العذب الذي تشربون .

وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافع الماء، لأن الشرب أكملها .

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ وهو السحاب، واحدا مزنة .

﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا ومشيتنا .

﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

أي: لو نشاء جعلناه شديد الملوحة غير صالح للشرب، فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في إنزاله عذبا فراتا .

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ .

أي: تقدحون وتوقدون .

﴿أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ .

أنتم خلقتم شجرتها، أم نحن الخالقون لها؟! .

والظاهر أن المراد جميع الشجر الذي توقد منه النار، وجمهور المفسرين على أن المراد شجرتان مخصوصتان تسميهما العرب: المرخ والعفار، تقدح منهما النار وهما رطبتان، ومن المعلوم أن الاحتكاك بين أي قطعتين من الخشب يولد حرارة قد تؤدي إلى اشتعال النار .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا﴾ أي: جعلناها تذكيراً لنار جهنم، كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ناركم هذه التي يُوقدُ ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله،

قال: «فإنها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستين جزءاً كلُّها مثلُ حرِّها» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾ أي: وجعلناها منفعة للمسافرين الذين ينزلون القواء، وهي الأرض المقفرة، فهم أحوج إلى النار من المقيمين.

ولعل في الآية إشارة إلى أهمية الطاقة الحرارية في حياة الإنسان التي ازدادت في العصر الحاضر، فأصبحت الطاقة الأساسية التي يعتمد عليها في دفع مركباته التي يستعملها في أسفاره وتنقلاته.

فالطعام والماء والنار أهم أسباب حياة الإنسان، ولهذا حثَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام على بذلها لمن يحتاج إليها، وفي الحديث الشريف: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار والكأ والماء».

وفي رواية: «ثلاثة لا يمنعن: الماء والكأ والنار» [رواه أحمد (٢٢٩٧٧) وقال محقق المسند: إسناده صحيح، وأبو داود (٣٤٧٧)].

قال ابن حجر: «إسناده صحيح، قال الخطابي: معناه الكأ الذي ينبت في موات الأرض، والماء الذي يجري في المواضع التي لا تختص بأحد، وقيل: المراد بالنار: الحجارة التي توري النار، قال غيره: المراد: النار حقيقة، والمعنى: لا يمنع من يستصبح منها مصباحاً، ويدني منها ما يشعله منها. وقال الخطابي أيضاً: والنهي عند الجمهور للتنزيه، فيحتاج إلى دليل يوجب صرفه عن ظاهره، وظاهر الحديث أيضاً وجوب بذله مجاناً وبه قال الجمهور»^(١).

وبعد أن بينت الآيات بعض البراهين الدالة على كمال قدرته تعالى وفضله وإحسانه، أمرت أمراً قطعياً بتسبيحه وتنزيهه عما يقوله الجاحدون المكذبون ليوم الحساب والجزاء، فإنهم عندما يكذبون بالبعث بعد الموت يصفون الله تعالى بصفات لا تليق بكماله وقدرته وحكمته.

(١) فتح الباري: ٥/٣٢.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤).

نزه ربك العظيم وسبِّحه بذكره بهذا الاسم، فهو المرَبِّي الذي أوجدكم وأمدكم بأسباب حياتكم، فمنه سبحانه الإيجاد والإمداد، أو قل: سبحان ربي العظيم.

وفي الحديث الشريف: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم» [رواه أحمد (١٧٣٤٥) وأبو داود (٨٦٩) وابن ماجه (٨٨٧)].

وعن حذيفة رضي الله عنه: أنه ﷺ كان يقول في ركوعه: «سبحان ربي العظيم» وفي سجوده: «سبحان ربي الأعلى» [رواه الترمذي (٢٦٢) و صححه].

* * *

القسم العظيم

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ .

وفي مقابل عناد الضالِّين المكذبين بيوم القيامة، والذين كانوا يصرون على إنكاره كما سبق معنا عند قوله تعالى: ﴿وَكَأَنَّا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] أقسم الله جل وعلا على تأكيد وقوع الواقعة، وصدق النبي ﷺ في كل ما أخبر به ودعا إليه:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥).

أي: ليس الأمر كما تقولون: ﴿أَدَاؤُنَا وَمِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧] أقسم بمواقع النجوم، أو فلأنا أقسم، فحذف المبتدأ، وأشبع فتحة

لام الابتداء، ويعضده قراءة مَنْ قرأ: (فلا أقسم). ومواقع النجوم: منازل النجوم وأفلاكها التي تجري عليها.

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

وإن هذا القسم الذي أقسمتُ به لقسم عظيم لو تعلمون، عظم مواقع النجوم، فهي أجرام عظيمة كثيرة، لا يعلم عددها إلا الله تعالى، كما مر معنا عند قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

فكلما زادت معرفة الإنسان بضخامة هذه الأجرام وكثرتها وعظم مواقعها والمسافات الهائلة بينها، ازداد علمه بعظمة هذا القسم الذي أقسم الله به، والله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس لنا أن نقسم بغيره تعالى، ويذكّرنا هذا القسم ببعض الدلائل الدالة على كمال قدرته ﷻ وكمال حكمته.

وقد يكون المراد من النجوم نجوم القرآن الكريم، فقد كان ينزل منجماً مفرقاً على النبي ﷺ. ومواقع النجوم: أوقات نزولها. وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

أي: كريم معظّم عند الله تعالى، لا افتراء فيه، جعله سبحانه دليلاً قاطعاً يدل على صدق النبي ﷺ، ومما يؤكد ذلك أنه كائن:

﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾

مصون محفوظ عن التبديل والتغيير، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٩﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج].

﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: لا يمسّه إلا الملائكة، وهم السفارة الكرام البررة، الذين ذكرهم

سبحانه في قوله: ﴿مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢) فِي صُحُفٍ مَكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كَرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس].

وقيل: المراد بالكتاب: المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر، وقد روى مالك وغيره: أن في كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه له رسول الله ﷺ: «ألا يمسّ القرآن إلا طاهر».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: «لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر» [رواه الطبراني].

وقالت أخت عمر لعمر رضي الله عنه عند إسلامه، وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، فقام واغتسل وأسلم. وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأحداث والأنجاس^(١).

وقول قتادة هذا أحد أقوال العلماء في الآية، والذي عليه التعويل - كما قال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله - هو قول الأكثرين أن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، وعليه فالآية هنا تشاكل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ [البروج].

وهذه الآية وإن قيل: إن المراد لا يمس اللوح المحفوظ إلا الملائكة، لكن ظاهره منع غير الطاهر من مسّ القرآن، لأنه سيق لمدح القرآن بأنه معظم مُصان عن غير المطهرين، ففهم منه وجوب تعظيمه وصيانته عن مس من ليس بمطهر^(٢).

فالمس بغير طهارة نوع استهانة لا تليق بالمصحف الكريم، وأنه أيضاً:

(١) تفسير القرطبي: ٢٢٥/١٧؛ والفقهاء الحنفي في ثوبه الجديد، للمؤلف: ١٢٠/١، دار القلم بدمشق.

(٢) إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس.

﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ .

أي: منزل من رب العالمين، وقرئ بالنصب؛ أي: نزل تنزيلاً، وصف بالمصدر لأنه نزل نجوماً من بين سائر الكتب، فكأنه في نفسه تنزيل، ولذلك جرى مجرى بعض أسمائه، فقيل: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل .

* * *

توبيخ الضالين المكذبين وتحذيرهم

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّنظَرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينٍ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

والتفت الآيات بعد هذا التقرير المؤكد بالقسم العظيم إلى الضالين المكذبين توبيخهم وتحذيرهم:

﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

أي: أنتم متهاونون به؛ كمن يدهن بالأمر ولا يتصلب فيه تهاوناً به .

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ .

أي: وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به، وكان الحسن يقول: بس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب^(١) . وقد يكون المعنى المراد: وتجعلون شكر رزقكم التكذيب، فالمشركون

(١) تفسير النسفي: ١٦٧/٦ .

وضعوا التكذيب موضع الشكر، وينسحب هذا المعنى على كل من يقول: مُطْرْنَا بنوء كذا، ولا يرده إلى فضل الله تعالى ورحمته.

وفي الحديث الشريف: عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب» [رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١)] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت بهذه المناسبة.

ثم ذكّرتهم الآيات بشدة ضعفهم عند الموت، فوجهت خطابها لمن يكون حول المحتضر بأسلوب التحدي:

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾﴾

أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم.

﴿وَأَنْتُمْ جِنْدٌ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: تنظرون حالكم، فإن مثل هذا المصير ينتظركم.

أو: تنظرون إلى المحتضر.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصِيرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: ونحن أقرب إليه علماً وقدرة منكم، ولكن لا تعرفون من حقيقة حاله إلا ما تشاهدون.

أو: نحن أقرب إليه منكم بملائكتنا، ولكن لا ترونهم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

أي: فهلا إن كنتم غير محاسبين يوم القيامة .

أو: إن كنتم أقوياء غير مقهورين أذلاء .

﴿تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ .

أي: تردُّون روح هذا الميت إلى جسده بعد أن بلغت الحلقوم إن كنتم صادقين في إنكار البعث والحساب، وهذا جواب الشرطين الأول والثاني .

أحوال المحتضرين

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَمُرٌّ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ .

وأخيراً وصفت الآيات أحوال الأصناف الثلاثة عند احتضارهم ونزول الموت بهم:

﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ .

فأما إن كان المحتضر من المقرَّبين عند ربهم، الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلهم روح وريحان .

وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت، كما مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] .

فالرَّوْحُ: الراحة أو الرحمة أو الفرح والسرور. والريحان: الرزق أو الرخاء، وكلها أقوال متقاربة صحيحة، فإن مات مقرباً حصل له جميع ذلك. روى الإمام أحمد [١٥٧١٦ و ١٥٧١٨]: عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن كعب بن مالك، عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائرٌ يعلقُ في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحبَّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» قالت: إنا لنكره الموت! قال: «ليس ذلك، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شأنٌ أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكرهَ إليه مما أمامه، فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه» [رواه مسلم (٢٦٨٤)].

ولقاء الله غير الموت، لكن لما كان الموت وسيلة إلى لقاء الله عبَّر عنه بلقاء الله، فكراهة الموت وشدته لا يكاد يخلو عنه أحد، ولكن المذموم من ذلك إثارة الدنيا، والركون إليها، وكراهية أن يصير إلى الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس].

وقال النووي: معنى الحديث: أنَّ المحبة والكرهية التي تعتبر شرعاً هي التي تقع عند النزاع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة، حيث ينكشف الحال للمحتضر، ويظهر له ما هو صائر إليه.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلِّمْ لَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾

وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين، فتبشره الملائكة، وتخبره أنه من أصحاب اليمين، أو تبلغه سلام إخوانه عليه من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢)﴾ .

أي: كان من المكذبين بالبعث، والضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال.

﴿فَنَزَّلُ مِنَ حَمِيمٍ (٩٣)﴾ .

فالذي يعد لهم حميم جهنم.

﴿وَنَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ (٩٤)﴾ .

ومقاساة نار عظيمة هي نار جهنم.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥)﴾ .

أي: إن ما ذكر من أحوال المحتضرين لهو حق اليقين لا شك فيه يدل دلالة قاطعة على كمال قدرته تعالى وحكمته.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦)﴾ .

فنزّه ربك العظيم عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله جلّاله .



تفسير سورة الحديد الإنفاق والإنساق في سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تسبيح المخلوقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الحديد بقوله :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ .

أخبر سبحانه أن كل المخلوقات تنزهه عما لا يليق بكماله وجلاله، وتسبيح كل مخلوق بحسبه، قال تعالى: ﴿سُبِّحَ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

واختلاف المخلوقات في الصفات والخصائص يجعلنا لا نفقه تسييحها؛
 ألا ترى أن اختلاف الناس في الأجناس واللغات يجعلهم لا يفهمون كلام
 بعضهم، ومرر معنا أن الجبال والطير كانت تردد التسييح مع داود عليه السلام، قال
 تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].
 وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِجُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتْ كُلُّ قَدِّعِلِمَ
 صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ولقد كنا نسمع تسييح
 الطعام وهو يؤكل. [رواه البخاري (٣٥٧٩)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان
 النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِعَ له المنبر، فكان عليه،
 فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، فوضع يده
 عليها فسكنت. [رواه البخاري (٣٥٨٥)].

قال ابن حجر: «وفي الحديث دلالة على أن الجمادات قد يخلق الله لها
 إدراكاً كالحيوان بل كأشرف الحيوان. وفيه تأييد لقول من يحمل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا لَيسُخِّبُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] على ظاهره»^(١).

واللام في (الله) للتأكيد، كما تقول: نصحتُ له، وشكرتُ له. أو: للتعليل
 أي فعل التسييح لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه الكريم.

ومجيء فعل التسييح في بعض فواتح السور ماضياً، وفي بعضها الآخر
 مضارعاً، للإيدان بتحقيقه في جميع الأوقات، وفيه تنبيه على أن حقَّ مَنْ شأنه
 التسييح الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع الأوقات، كما عليه الملائة الأعلى
 الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون^(٢).

فالمكونات من لدن إخراجها من العدم إلى الوجود وإلى الأبد تسبِّحه

(١) فتح الباري: ٦/٦٠٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٨/٢٠٣.

مقدسة لذاته جل وعلا قولاً وفعلاً، طوعاً وكرهاً، لأنه العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم في جميع أقواله وأفعاله.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: له التصرف الكامل فيهما، فهو الخالق والمدمر ﷻ، ومن آثار ملكه وسلطانه فيهما: أنه يحيي ويميت. ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن جملتها الإحياء والإماتة.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ أي: هو السابق على جميع الموجودات، فهو موجود قبل كل شيء حتى الزمان، إذ هو المبدع له، والباقي بعد فنائها كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقوله أيضاً: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِنَا فَإِنِ ﴿٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ أي: والظاهر وجوده لكثرة دلائله، فكل شيء يدل عليه، والباطن حقيقة ذاته، فلا تدركه العقول فهو الظاهر بالعقل، الباطن بالحس، أو الظاهر على كل شيء، والباطن العالم بكل شيء.

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ كان يقول عند النوم: «اللهم رب السماوات ورب الأرض رب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر» [رواه مسلم (٢٧١٣)].

قال ابن كثير: قد اختلفت عبارات المفسرين في هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً.

وقال البخاري: قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً. قال ابن حجر: ويحيى هذا هو ابن زياد الفراء النحوي المشهور، ذكر ذلك في كتاب «معاني القرآن» له^(١).

ومهما تعددت أقوال المفسرين وعباراتهم فكلها تدل على كمال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عَلَّامٌ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفي.

وأبرزت الآيات كمال علمه تعالى بمخلوقاته:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ على الوجه اللائق بجلاله وكماله كما مر معنا.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: رقيب عليكم، شهيد على أعمالكم في بر أو بحر، وفي الليل أو النهار، وفي البيوت أو في القفار، لا تغيبون عن علمه وقدرته بحال من الأحوال.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم.

(١) فتح الباري: ٣٦٣/١٣.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ .

فإليه وحده لا إلى غيره ترجع الأمور .
ومن دلائل قدرته وبديع حكمته :

﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾ .

أي: وهو عليم بمكنوناتها اللازمة لها، فلا يغيب عن علمه شيء، فهو محيط بأعمالهم التي يظهرونها؛ وبنياتهم التي يضمرونها .

* * *

الإنفاق في سبيل الله

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَحَدَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَوتُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنَ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاكِ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك :

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ .

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ﴾ فإن إنفاق المال في الطرق

المشروعة دليل على صدق الإيمان، فالأموال التي بأيديكم لله تعالى، وأنتم مستخلفون فيها، فالآية تحثهم على الإنفاق وترغبهم فيه.

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ونكر الأجر تعظيماً له وتفخيماً، كما قرنت الآية الإنفاق مع الإيمان إظهاراً لأهميته وضرورته.

ثم وبّخت الآيات المعرضين عن الإيمان والمتثاقلين بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ فأى عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول ﷺ يدعوكم إليه بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة؟!.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: وقد أخذ ربكم ميثاقكم بتمكينكم من النظر.

أو: ميثاق الفطرة الذي أخذ عليكم في عالم الذر، والذي أخبر سبحانه عنه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأحرى الأوقات للإيمان هي هذه الأوقات، لتوفر دواعي الإيمان، وقيام الحجج وظهورها، فبادروا إلى الإيمان.

وفي قراءة: (أخذ ميثاقكم) على البناء للمفعول.

لقد توفرت ببعثة النبي ﷺ ونزول القرآن دواعي الإيمان:

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

حيث بعث إليكم الرسول ﷺ بالآيات البينات ولم يقتصر على ما نصب لكم من الأدلة العقلية، وما أخذ عليكم من ميثاق الفطرة.

وبعد أن وبختهم الآيات على ترك الإيمان، وبختهم على ترك الإنفاق في سبيل الله بقوله:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتَلَوْا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرث كل شيء فيهما، فلا يبقى لأحد مال، فالأولى أن تنفقوها في سبيل الله.

ثم بينت فضل السابقين إلى الجهاد والإنفاق في سبيل الله:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ﴾ فالمتفاضلون لا يستوون، فلا يستوي في الفضل من أنفق ماله، وقاتل العدو قبل فتح مكة، مع من أنفق ماله، وقاتل بعد الفتح، فقد كان الحال قبل فتح مكة شديداً، وأما بعده فقد ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ولهذا قال:

﴿أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتَلَوْا﴾، وفي الحديث: أنه كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فقال رسول الله ﷺ لَمَّا بَلَغْتَهُ: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد ذهباً، أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم» [رواه أحمد (١٣٧٤٧) ورجاله رجال الصحيح].

﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: وعد الله كلاً من الفريقين الحسنى، وهي الجنة.

وفي قراءة: (كل) بالرفع على الابتداء.

ودرجات الجنة متفاوتة؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ

دَرَجَةً وَّكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىَّ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ [النساء: ٩٥]، فالذين أنفقوا قبل الفتح في أفضلها .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم على قدر أعمالكم .

* * *

الأجر والنور

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُضِّلَهُ لَكَ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ سُورِكُمْ أَیَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوا لَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْعُرُوزُ ﴿١٤﴾ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَاؤُنْكُمْ أَلْتَارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

وبعد التوبيخ على ترك الإنفاق حثت الآيات عليه وحيث به :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُضِّلَهُ لَكَ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ .

فمن ينفق ماله في سبيل الله فإنه كمن يقرضه سبحانه، فيرده عليه أضعافاً كثيرة في الدنيا، وله جزاء جميل يوم القيامة في الجنة .

وقرى: (فيضاعفه) بالرفع عطفاً على (يقرض).

ومع الأجر الكريم النور العظيم :

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٢).

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة ترى المؤمنين والمؤمنات يسير نورهم أمامهم وعن أيمانهم.

وخصت الأيمان بالنور دون غيرها لشرفها، ويقال لهم:

﴿بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أعظم منه.

وعندها يتوجهون إلى الجنة تسير معهم أنوارهم، ويمتاز المنافقون عنهم:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (١٣).

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ أي: انتظرونا نستضيء من نوركم، وهذا يدل على أن الظلمة تغطي الناس يوم القيامة.

وقرى: (انظرونا) بقطع الألف وكسر الظاء؛ أي: أمهلونا.

﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: يقال لهم تهكمًا: ارجعوا وراءكم إلى المكان الذي كنتم فيه، أو إلى الدنيا، فاطلبوا النور بتحصيل أسبابه من الإيمان والأعمال الصالحة، ولعلمهم أرادوا بالنور الظلمة الكثيفة التي وراءهم تهكمًا.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾ أي: فجعل بين الفريقين حائط له باب.

﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ أي: باطن السور أو الباب، وهو الجانب الذي يلي الجنة، فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي النار من جهته العذاب. وقرئ: (فَضُرِبَ) على البناء للفاعل.

وينادي المنافقون والمنافقات المؤمنين بعد ضرب السور ومشاهدة العذاب:

﴿يَأْتُوهُمْ أَلَمٌ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرِيصْتُمْ وَأَنْزَيْتُمْ عَصَاكُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿يَأْتُوهُمْ أَلَمٌ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي: ألم نكن في الدنيا معكم؟! والمراد موافقتهم في الظاهر.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرِيصْتُمْ وَأَنْزَيْتُمْ عَصَاكُمْ الْأَمَانِي حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قالوا: بلى كنتم معنا بحسب الظاهر، ولكنكم عرضتم أنفسكم للفتنة والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر.

أو: أخرتم التوبة، وشككتم في الإيمان، وغرركم الأمانى الباطنة، بانتصار الكافرين، وهلاك المؤمنين، حتى جاءكم الموت، ومن المعلوم: أن من أطال الأمل، نسي العمل، وغفل عن الأجل.

﴿وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي: وغرركم الشيطان، وأخبركم بأن الله عفو كريم لا يعذبكم. وقرئ: (الغرور) بالضم.

وواضح أن المؤمنين قالوا ذلك للمنافقين على وجه التقرير والتويخ، ولهذا أضافوا قائلين:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾ لتفتدوا بها من عذاب الله. وقرئ: (تؤخذ) بالتاء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولا تؤخذ أيضاً من الذين كفروا ظاهراً وباطناً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

﴿مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: هي أولى بكم، وساءت مرجعاً ومصيراً.

طول الأمل وقسوة القلوب

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِئُوا ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

دلَّت الآيات على أن طول الأمل أمر خطير، يؤدي إلى الغفلة عن الله تعالى والفتور في العبادات، فحذرت المؤمنين منه بأسلوب لطيف غير مباشر:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسِئُوا ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أي: ألم يجئ وقت أن تخشع قلوب المؤمنين لذكره تعالى، وما نزل من الحق في القرآن، فيسارعون إلى طاعته من غير توانٍ ولا فتور؟! .

و (يَأْنٍ) من أنى الأمر، إذا جاء إناءه، أي: وقته، وقرئ: (ألم يئذن) من أن يئين بمعنى أنى .

ولا يخفى ما في الآية من عتاب للمؤمنين لطيف، ولهذا أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه: عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن .

وهي سنة الهجرة إلى المدينة بلغ فيها المؤمنون ذروة الخشوع والخضوع والمسارة إلى طاعة الله تعالى .

ولعل الأصح ما روى ابن مردويه: عن أنس: أنه بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن .

لكن أخرج مسلم [٣٠٢٧] وابن ماجه [٤١٩٢] وغيرهم: عن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله تعالى بهذه الآية إلا أربع سنين . وهذا يجعلنا نصرفُ المراد من الآية عن ظاهرها الذي هو العتاب، إلى أنه تهيج للمؤمنين على المزيد من طاعته تعالى، ورفع لهمهم، وشحد لعزائمهم، فإن التحديات التي كانوا يواجهونها في ذلك الوقت كبيرة وكثيرة وخطيرة، فهو حضٌ لهم على المسارعة إلى الطاعة في أكمل وجوها، أتبعه تعالى بتحذيرهم من الفتور والتراخي فقال:

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم اليهود والنصارى، الذين انهمكوا في الشهوات والمعاصي، وطال ما بينهم وبين أنبيائهم من الزمان، فقسّت قلوبهم بسبب إدمانهم على المعاصي، حتى صاروا لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً.

فللمعاصي آثار سيئة على القلوب، كما جاء في الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نَكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكَيْتَ فِيهِ نَكْتَةٌ بِيضَاءٌ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أْبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخِرَ أَسْوَدَ مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا (مائلاً) لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يَنْكِرُ مَنْكَرًا إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

ففي الآية نهى للمؤمنين عن التشبه بأهل الكتاب في قسوة القلوب، ويؤيده قراءة: (ولا تكونوا) بالتاء.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة ربهم، بينما قليل منهم مطيعون خاشعون.

فقسوة القلوب مبدأ الشرور، تنشأ من طول الغفلة، لا دواء لها إلا الإكثار من ذكره تعالى القائل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ولهذا قال تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهو تمثيلٌ لإحياء القلوب القاسية بذكر الله كما تحيا الأرض اليابسة بالغيث .

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: قد بينا لكم الآيات لكي تعقلوا ما فيها من مواعظ وزواجر، فتقبلوا على الله، وتكثروا من ذكره .

وقد ذكروا أن هذه الآية كانت سبب توبة عبد الله بن المبارك رحمته الله عندما سمعها، كما كانت أيضاً سبباً لتوبة الفضيل بن عياض، فقد سمعها وهو يرتقي الجدران إلى لقاء جاريةٍ يعشقها واعدته ليلاً، فلما سمع القارئ يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ رجع القهقري، وهو يقول: بلى والله، قد آن، وجعلتُ توبتي إليك جواز بيتك الحرام^(١) .

* * *

الصديقون والشهداء

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهَ قَرْمًا حَسَنًا يُضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَجِيرِ ﴿١٩﴾﴾ .

ومن المعلوم أن طول الأمل وقسوة القلب يؤديان إلى البخل والامتناع عن إنفاق المال في الوجوه المشروعة، ولهذا عادت الآيات تحث المؤمنين والمؤمنات على الإكثار من الصدقات:

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير القرطبي: ٢٥١/١٧ .

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ أي: إن المتصدقين والمتصدقات، وقد قرئ بها، وقرئ بتخفيف الصاد؛ أي: الذين صدَّقوا الله ورسوله.
﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وأقرضوا الله بالصدقة قرضاً حسناً خالصاً له سبحانه.

﴿يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: يضاعف لهم ذلك القرض، ولهم ثوابٌ حسنٌ، وهو الجنة. وقرئ: (يضعف) بتشديد العين، و(يضاعف) بالبناء للفاعل، أي: يضاعف الله ﷻ لهم ثواب صدقتهم.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: والذين آمنوا بالله ورسله أولئك عند ربهم وفي حكمه وعلمه هم الصديقون والشهداء، فهم في حكم الله تعالى بمنزلة الصديقين والشهداء، المشهورين بعلو الرتبة، ورفعة المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق، ورسخوا فيه، واستشهدوا في سبيل الله، وسمي مَنْ قُتِلَ مجاهداً في سبيله تعالى شهيداً، لأنَّ الله سبحانه وملائكته شهودٌ له بالجنة، أو لأنه حي لم يموت، كأنه شاهد؛ أي حاضر، أو لأنَّ ملائكة الرحمة تشهد، أو لأنه شهد ما أعدَّ الله تعالى له من الكرامة^(١).

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أي: أولئك لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم، وحذفت أداة التشبيه تنبيهاً على قوَّة المماثلة وبلوغها حد الكمال.
أو: أولئك هم المبالغون في الصدق، والقائمون بالشهادة لله بالوحدانية وسائر صفات الكمال، لهم الأجر والنور الموعودان لهم.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ صَدِيقٌ شَهِيدٌ، وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ الْمَخْلُصِ فِي إِيْمَانِهِ، وَبَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ الْمُنْهَمَكُ فِي الشَّهَوَاتِ الْغَافِلُ عَنِ الطَّاعَاتِ صَدِيقًا شَهِيدًا.

وقيل: الكلام قد تمَّ عند قوله تعالى: ﴿الصَّادِقُونَ﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّاهِدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ ففرَّق بين الصديقين وبين الشهداء، فدل على أنهما صنفان.

ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد، فقد جاء في الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتْرَءُونَ أَهْلَ الْغَرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتْرَءُونَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأَفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» [رواه مسلم (٢٨٣١)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالكفر والتكذيب أصحاب الجحيم فلا يفارقونها أبداً.

* * *

حقيقة الحياة الدنيا

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِيبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَكِبَارٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَانِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَّهُ مُمْضِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿١٦﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْرَقٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٧﴾﴾.

وحتى لا تطول آمالهم في الدنيا، وتقسو قلوبهم بسبب التعلق بها والركون

إليها، زهدتهم الآياتُ بها، وبيّنت لهم سرعة زوالها، فوصفتها بأسلوب التقرير المؤكد بالأوصاف التالية:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَسْجُ فَرَّغَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ .

- ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فهي .
- لعبٌ لا ثمرة فيها سوى التعبِ والنصبِ .
- ولهوٌ يشغلُ الإنسانَ عمّا يفيدُه ويهمُّه .
- وزينةٌ بَرّاقةٌ خادعةٌ تلهي وتطغي .
- وتفاخُرٌ بينكم ، يفخر بعضُكم على بعض بها ، وفي «صحيح مسلم» [٢٨٦٥]: عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتَّى لا يبغى أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ» .
- ومباهاة بكثرة الأموال والأولاد .

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَسْجُ فَرَّغَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ أي: مثل الدنيا في سرعة زوالها كمثل غيثٍ أعجب الكفار الجاحدين لنعمة الله ما نبت بذلك الغيث، أو أعجب الزرع نباته، وسُمِّي الزرع كفاراً لسترهم البذر بالأرض، ثم يبس فتراه مصفراً بعد خضرته ونضرتة، ثم يتحطّم ويتكسر .

﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن كانت حياته لعباً ولهواً وزينة وتفاخراً وتكاثراً .
 ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: من الله أيضاً؛ وهما لأوليائه وأهل طاعته، وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله مع وصف المغفرة والرضوان بذلك، إشارة إلى أنهما هما المقصد الأول .

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ فلا تغتروا بها، ولا تظمئوا إليها .
 وما أكثر الآيات التي حذرت الناس من الاغترار بالدنيا، وبيّنت لهم

حقيقتها! منها: قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقوله أيضاً: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

فالدنيا حقيرة زائلة، لا ينبغي المفاخرة والمكاثرة بها والمسابقة إلى تحصيل متاعها، بل ينبغي أن تكون المسابقة والمنافسة للوصول إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته:

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾﴾.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سارعوا مسارعة المتسابقين إلى مغفرة من ربكم، وإلى جنة واسعة كبيرة عرضها كعرض السماء والأرض، فالمرادُ بيان سعة الجنة على طريقة التمثيل، فشبَّهت بأوسع ما علمه الناس من المخلوقات، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا أَسْمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فالمسابقة إلى تحصيل متاع الدنيا وحطامها أمر مذموم، وأما المسارعة للوصول إلى مغفرة الله وفضله فأمر محمود مطلوب شرعاً لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَفَّسِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: هيئت وخلقتم للذين آمنوا بالله

ورسله.

وفي ذلك أعظم رجاء وأقوى أمل، فلم يذكر مع الإيمان شيئاً آخر. ثم قال:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله تعالى لا بعمله، وفي الحديث الشريف: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما من أحدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» فقليل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمةٍ» [رواه مسلم (٢٨١٦)].

* * *

الرضا بالقدر

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

وقد يصاب الإنسان وهو في مضمار المنافسة ببعض البلايا والمصائب، أو يظفر ببعض حظوظ الدنيا ومتاعها، فعليه في كلا الحالين الرضا بقدر الله، فلا يعظم جزعه على ما فاته من الدنيا عند المصاب، ولا فرحه بما نال من حظوظها ومتاعها:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ كجذب ونقص في الزروع والثمار.

﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالأوجاع والأمراض.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: إلا مكتوبة مثبتة في علم الله تعالى

من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى بالأشياء قبل خلقها سهل عليه، فهو يعلم ما كان وما يكون، وسِع علمه كل شيء.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا، وسبق كتابنا للأشياء قبل خلقها، وبتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لكي لا تحزنوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا فرح البطر والأشر بما أنعم الله عليكم، فتكبروا، وتفخروا بها على الناس. وفي قراءة: (أناكم) أي: جاءكم. فالمرادُ نفي الأسي المانع عن التسليم لأمر الله تعالى، والفرح الموجب للبطر والاختيال، ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: لا يحب الله كلَّ مختالٍ في نفسه، متكبر فخور على غيره، فإنَّ مَنْ فرح بالخطىء الدنيوية، وعظمت في نفسه، اختال وافتخر بها لا محالة، وغالباً ما يرضنُ بها، ويبخل، ويأمر غيره بالبخل، وهو الحال الذي حذرتهم الآيات منه.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ أي: لا يحبُّ الله المختالين، الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل، فالله غني عنهم. وقرئ: (بالبخل) بفتحين. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: ومن يعرض عن الإنفاق فإنَّ الله غنيُّ عنه وعن إنفاقه، محمود في ذاته، لا يضره إعراض المعرضين عن شكره، ولا تنفعه عبادة الطائعين، فالأمر بالإنفاق لمصلحة المنفقين. وفي قراءة: (فإن الله الغني).

الحق والقوة

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّجُومَ وَالْكَوْكَبَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلِيَّ ءَأَنْدَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَفَقَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِنَاءَ اتَّبَعُوا مَا كَتَبْنَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وتأكيداً لغناه سبحانه بقدرته وعزته عن عباده أخبر ببعض ما تفضل به عليهم لتنظيم حياتهم الاجتماعية :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي : بالحجج والمعجزات .

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي : وأنزلنا معهم الكتاب المتضمن للأحكام، وأمرنا بالعدل، أو الميزان الآلة المعروفة بين الناس، أمرنا باستعماله ليقوم الناس بالعدل، فلا يظلم بعضهم بعضاً .

ولا بد للحق من قوة تحميه وتلزم الناس به :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي : وخلقنا الحديد فيه قوة،

فإن أكثر آلات الحرب تُتخذ منه، وفيه أيضاً منافع للناس في كثير من شؤون حياتهم ومعاشهم .

﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: وليعلم الله من نيته في حمل السلاح الجهاد في سبيله، ونصرة رسله، وهو غائب عنهم، أو ينصرهم بإخلاص.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لا يحتاج إلى نصرتهم، وإنما كلّفهم بالجهاد ليشيهم عليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٦).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فما أرسل الله بعد إبراهيم ﷺ رسولاً ونبياً إلا من ذريته.
 ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: فمن المرسل إليهم مهتدٍ إلى الحق، وكثيرٌ منهم خارجون عن الطريق المستقيم، وهذا يبين حكمته تعالى في تشريع الجهاد، وخلق أسباب القوة من سلاح وعتاد.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِنَةٌ يَأْتِدُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٧).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولاً بعد رسول، حتى انتهت إلى عيسى ابن مريم، وأصل التقفية جعل الشيء خلف القفا.
 ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: وقفناهم للتراحم والتعاطف فيما بينهم.

والرأفة في المشهور: الرحمة، ويراد بها إذا ذكرت مع الرحمة ما فيه دَرءُ الشرِّ ورأبُّ الصدع، وبالرحمة ما فيه جلبُ الخير، ولهذا نرى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة، لأنَّ درءَ المفساد أهم من جلب المصالح^(١).

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ أي: ابتدعوا رهبانية ما فرضناها عليهم، ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. وهي المبالغة في العبادة والانقطاع عن الناس، منسوبة إلى الرهبان.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، فهي كالنذر يجب الوفاء به، وهذا ذم لهم من وجهين:

أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُفُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

وهذا يبين لنا ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهو سبيلُ السلامة والاستقامة.

﴿فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّمْ أَجْرُهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا بالإيمان الصحيح، وثبتوا على الحق.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أي: كفرون، وهم الذين خالفوا ما جاء به عيسى عليه السلام.

البخل والحسد

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِّن رَّحْمَتِهِ وَتَعْمَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَعْرِفْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٨) لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَصْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٩).

وجهت الآيات في ختام السورة نداءها للمؤمنين تدعوهم إلى تقوى الله والالتزام بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُم ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٢٨)

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: ضعفين من رحمته، فمضاعفة الثواب ليس لمن آمن من أهل الكتاب فقط، كما ذكر بعض المفسرين، قال سعيد بن جبیر: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة^(١).

وما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف لا يفيد الحصر، وهو الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ عِنْدَهُ وِلْدَةٌ، فَعَلَّمَهَا فَحَسَنَ تَعْلِيمَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنَ بِنَبِيِّهِ، وَءَامَنَ بِي، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَأَيُّمَا مَمْلُوكٍ أَدَّى حَقَّ مَوَالِيهِ، وَحَقَّ رَبِّهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ» [رواه البخاري (٥٠٨٣)].

قال ابن حجر بعد أن ذكر عدداً من الأحاديث في الذين يؤتون أجرهم مرتين: «وقد يحصلُ بمزيدِ التثبُّعِ أكثر من ذلك، وكل هذا دالٌّ على أن لا مفهوم للعددِ المذكورِ في حديثِ أبي موسى»^(٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُم نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: تمشون به على الصراط يوم القيامة كما سبق عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ [الحديد: ١٢].

أو: يجعل لكم نوراً في الدنيا تميزون به بين الحق والباطل كما في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

(١) انظر: تفسير ابن كثير للآية.

(٢) فتح الباري: ١٢٧/٩.

ولا مانع من الجمع بين المعنيين، فالله سبحانه ينور قلوب المتقين في الدنيا، وينور طريقهم على الصراط يوم القيامة.

﴿وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَأَلَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتفضل سبحانه عليهم بالنور والمغفرة.

ثم ردّ تعالى على أهل الكتاب الذين حملهم البخل على حسد الأمة المسلمة، بسبب ما تفضل الله عليها ببعثة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٦٩﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأخبر سبحانه أنهم لا يقدرّون على ردّ ما يعطي، ولا إعطاء ما يمنح، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ
وَأَلَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: لئلا يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرّون على شيء من فضله تعالى، فضلاً أن يتصرفوا فيه.

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وأن الفضل في ملكه وتصرفه لله سبحانه، يؤتيه من يشاء.

ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكتابين كمثل رجلٍ استأجر أجراً، فقال: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غَدْوَةٍ إِلَىٰ نَصْفِ النَّهَارِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ. ثم قال: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نَصْفِ النَّهَارِ إِلَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَىٰ قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى. ثم قال: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَىٰ أَنْ تَغِيْبَ الشَّمْسُ عَلَىٰ قِيرَاطِينَ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ، فغضبت اليهود والنصارى، فقالوا: ما لنا أكثرُ عملاً وأقلُّ عطاءً؟ قال: هل نقصتكم من حَقِّكم؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء» [رواه البخاري (٢٢٦٨)].



تفسير سورة المجادلة

السُّكُوى والنَّجوى في سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
السميع البصير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾

بدأ الله تعالى سورة المجادلة بقوله :

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ﴾ .

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي : قد سمع الله قول
التي تراجعك الكلام في شأن زوجها معها ، وفي ما صدر عنه في حقها ،
وتشتكي إلى الله في شدة حالها وضعفها .

وقد شهدت السيدة عائشة رضي الله عنها سبب نزول هذه الآية فقالت : الحمد لله
الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ في
جانب البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ﷻ : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

زَوْجَهَا... الآية. [أخرج بعضه البخاري في صحيحه (كتاب الطلاق، باب ٢٣) تعليقا، والنسائي (٣٤٩٠)، وتامه عند أحمد (٢٤٠٧٧) وغيرهم. وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها].

وقد أخرج أبو داود [٢٢١٤] وصححه ابن حبان [٤٢٦٥]: عن خويلة بنت مالك بن ثعلبة، وفي رواية أبي عبيدة بن معن: أنها كانت تقول: أكلَ شباي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبرْتُ سني، وانقطعَ ولدي؛ ظاهرَ مني^(١).

﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: والله يسمع مراجعتكما الكلام، إنَّ الله سميعٌ بأقوالكم، بصيرٌ بأحوالكم.

ودلَّت الآية على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، فصَحَّ أن كونه سميعاً بصيراً يفيدُ قدراً زائداً على كونه عليمًا، وكونه سميعاً بصيراً يتضمَّنُ أنه يسمع بسمع، ويبصرُ ببصرٍ، كما يتضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة.

وذكر هذا ابن حجر في «فتح الباري» عن ابن بَطَّال، ثم قال بعده: «ولا يراؤ بذلك الجارحة، فإنَّ الله منزَّه عن مشابهة المخلوقات، فالله سبحانه يسمع المسموعات من دون الوسائط، وكذا يرى المرئيات من دون المقابلة وخروج الشعاع، فذات الباري مع كونه حيًّا موجوداً لا تشبه الذوات، فكذلك صفات ذاته لا تشبه الصفات»^(٢).

* * *

(١) فتح الباري: ٣٧٤/١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

الظهار وحكمه

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتُهُمْ مَا هِيَ أُمَّهَتُهُمْ إِنَّمَا هِيَ أُمَّهَتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُورٌ ﴿٦﴾﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نَسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ تُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتُهُمْ مَا هِيَ أُمَّهَتُهُمْ إِنَّمَا هِيَ أُمَّهَتُهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُورٌ ﴿٦﴾﴾

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّن نَسَأْتُهُمْ﴾ أي: الذين يقولون لنسائهم: أنتنَّ كظهورِ أمهاتنا، ويسميه الفقهاء: الظهار، ويعرفونه بأنه تشبيه الزوجة بقريبٍ محرَّمٍ عليه على التأبید، أو بعضوٍ منه، يحرم عليه النظرُ إليه. وقرئ: (يظَّهرون) بتشديد الظاء والهاء، و(يظَّاهرون) مضارعٌ أظاهر.

﴿مَا هِيَ أُمَّهَتُهُمْ﴾ أي: ما نسأؤهم أمهاتهم على الحقيقة، فهو كذبٌ بحت، وقرئ: (أمهاتهم) بالرفع، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّاتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنَّ أُمَّهَتَهُمْ إِلَّا اللَّاتِي وَلَدْنَهُمْ﴾ أي: ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدن المظاهرين، فالوالداتُ على الحقيقة هنَّ الأمهات، وألحق الشرعُ بهنَّ في الحرمة أزواج الرسول ﷺ والمرضعات.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: وإنهم ليقولون قولاً أنكره الشرع، وكذباً باطلاً منحرفاً عن الحقيقة.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ مبالغ في العفو والمغفرة.

ودلت الآيات على أَنَّ الظهار حرامٌ، بل قالوا: إنه كبيرةٌ، لأنَّ فيه إقداماً على إحالة حكم الله تعالى وتبديله من دون إذنه، ومن ثمَّ وجبت فيه الكفارة.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسًا ذَلِكَمُ تَوَعُّظٌ بِهِ ء وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أي: ثم يعودون لنقض ما قالوا، أو يعودون لتحليل ما حرّموه على أنفسهم باستباحة الوطء، والملازمة، والنظر إليها بشهوة، أو يعزمون على الوطء.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسًا﴾ أي: فعلية إعتاق رقبَةٍ من قبل أن يستمتع المظاهرُ والمظاهرُ منها بالآخر، فلا يحلُّ ذلك قبل التكفير، فالتماسُ كنايةٌ عن الجماع، فيحرّم قبل التكفير، وكذا دواعيه من التقييل ونحوه.

﴿ذَلِكَمُ تَوَعُّظٌ بِهِ ء﴾ أي: ذلكم الحكم توعظون به حتى تتركوا الظهار، ولا تعودوا إليه.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه خافية.

وإذا امتنع المظاهرُ من الكفارة فللمرأة أن ترافعه إلى القاضي ليجبره على الكفارة، وإن مسَّ قبل أن يكفّر استغفر الله، ولا يعود حتى يكفّر.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسًا﴾ فمن لم يجد الرقبَةَ فعليه

صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فإن أفطر بغير عُذْرٍ لزمه الاستئناف، وإن أفطر لعذر ففيه خلاف.

﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ فمن لم يستطع الصوم لهرم أو مرضٍ مزمن، أو شهوة مفرطة، فعليه إطعام ستين مسكينا.

﴿ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: ذلك البيان للأحكام لتصدقوا بالله ورسوله ﷺ في العمل بأحكامه التي شرعها، ورفض ما كنتم عليه في الجاهلية.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: وتلك حدود الله التي لا يجوز تعديها، وللكافرين الذين لا يقبلونها عذاب أليم.

ثم بين تعالى حكم الذين يعاندون شرعه ولا يُدْعون لأحكامه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتَابًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: الذين يعادونهما ويشاققونهما، فإن كلاً من المتعادين يكون في حدٍّ غير حدِّ الآخر، وورود المحادة في أثناء ذكر الله من حسن الموقع ما لا غاية وراءه^(١).

﴿كِتَابًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: خذلوا وأذلوا، أو أهينوا ولعنوا وأخذوا، كما فعل بمن أشبههم ممن كان قبلهم، والمراد: سيكبتون، على طريقة قوله تعالى: ﴿أَفَأَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١].

﴿وَفَدَّ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: وقد أنزلنا آيات واضحة لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر، وللكافرين بتلك الآيات عذاب يهينهم، ويذهب بعزهم وكبرهم.

(١) تفسير أبي السعود: ٢١٧/٨.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦).

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من القبائح والذنوب على رؤوس الأَشْهَادِ تشهيراً بحالهم وتشديداً لعذابهم.

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: أحاط الله به عدداً فلم يفته منه شيء، ونسوه لكثرة، أو لتهاونهم به، ففيه مزيدٌ توبيخٍ وتنديمٍ غير التخييل والتشهير.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيبُ عنه أمرٌ من الأمور.

* * *

النجوى المحرمة

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُكَ حَيْوَكُ بِمَا لَمْ يَحِجَّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ (٨)

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٩)

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَبَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٠).

ومما يؤكد شمول شهادته سبحانه وكمال علمه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلم علماً يقينياً أن الله

يعلمُ كلُّ ما بين السماوات والأرض من الموجودات .

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: ما يقع من تناجي ثلاثة يسارٍ بعضهم بعضاً إلا الله رابعهم، يعلم نجواهم، كأنه سبحانه حاضر معهم، ومشاهدهم . والنجوى: السَّرار، وهو مصدرٌ، يقال: قوم نجوى، أي: ذوو نجوى، وقيل: النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً، ويتناجون به، والسَّرارُ ما كان بين اثنين^(١) .

فسمع الله محيط بكل كلام، ومرَّ معنا أنه سمع مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها .

﴿وَلَا حَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ فالله مع كل عددٍ قل أو كثير، يعلم ما يقولون سرّاً وجهراً، ولا تخفى عليه خافية، فالعدد غير مقصود، ولذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض .

﴿أَيَّنْ مَا كَانُوا﴾ فعلمه سبحانه ليس بقرب مكان، حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة، وقد تعالى عن المكان علواً كبيراً، ولهذا حكى غير واحدٍ الإجماع على أنّ المراد بهذه الآية معيَّة علمه تعالى .

وقرئ: (ولا أكثر) بالرفع عطفاً على محل (من نجوى)، أو محل (لا أدنى) إن جعلت (لا) لنفي الجنس .

﴿ثُمَّ يَنْتَهُمُ يَمَّا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازيهم عليه .
وكما افتتح سبحانه الآية بالعلم ختمها بالعلم أيضاً فقال:
﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وكان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودةً، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظنَّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكره، فإذا رأى ذلك خشيتهم، فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، وأصرروا عليها فأنزل الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ هُوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُ﴾ والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، والهمزة للتعجب من حالهم، ودلّت صيغة المضارع على تكرار عودهم إلى النجوى، وإصرارهم عليها .

﴿وَيَنْجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ أي: ويتناجون بما هو إثم في نفسه، ووبال عليهم، وعدوان على المؤمنين، وتواصي بمخالفة الرسول ﷺ، ولا شك أن مخالفته أمر قبيحٌ وعظيمٌ. وقرئ: (ويستنجون) مضارع انتجى .

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، ففهمتها فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، فإن الله يحب الرفق في الأمر كله» فقلت: يا رسول الله، أو لم تسمع ما قالوا؟! قال رسول الله ﷺ: «فقد قلت: وعليكم» [رواه البخاري (٦٢٥٦)].

والسام: يعنون به الموت بغير همز، وفي رواية مهموزاً ومعناه: تسأمون دينكم .

﴿وَيَقُولُونَ فِيْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: ويقولون في ما بينهم: هلاً يعذبنا الله بسبب ذلك لو كان محمدًا نبياً، لأنه يعلم ما نسرّه!

وجهلوا أنه تعالى حلِيمٌ، لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه، ولا شك أن كُشف سرائرهم، وفضّح بواطنهم في هذه الآية معجزة لرسول الله ﷺ .

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلَوْنَهَا فَبئسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: يكفيهم عذاب جهنم يقاسون حرها، فبئس هذا المصير .

ثم قال تعالى يؤدب عباده المؤمنين ويحذرهم من التشبه باليهود والمنافقين:

﴿بَيَّأَتْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿بَيَّأَتْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ أي: إذا
تناجيتهم في أنديتكم وفي خلواتكم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول
كما يفعل الكفار المنافقون. وقرئ: (فلا تنتجوا) و(فلا تناجوا).
﴿وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ﴾ أي: وتناجوا بما يتضمن خير المؤمنين، والاتقاء عن
معصية الرسول ﷺ.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم.

وفي الحديث: أن رجلاً سأل ابن عمر رضي الله عنهما: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: «يدنو أحدكم من ربه، حتى يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، ويقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره ثم يقول: إنني سترت عليك في الدنيا فأنأ أغفرها لك اليوم» [رواه البخاري (٦٠٧٠)].

ثم كشفت الآيات مصدر النجوى المحرمة:

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: إنما النجوى بالاثم والعدوان من الشيطان،
لا من غيره، فإنه المريد لها، والحامل عليها.
﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إنما يفعل ذلك
ليحزن المؤمنين، وليس بضرارهم شيئاً إلا بعلمه تعالى وقدرته أو بمشيئته.
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكثر المؤمنون بتناجى اليهود والمنافقين،
وليتوكلوا على الله ﷻ، ويستعيذوا به من الشيطان.
فالآية مواساة من الله تعالى للمؤمنين لإزالة حزنهم.

والجدير بالذكر: أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَهَى عَنِ التَّنَاجِي إِذَا كَانَ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ؛ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَى رَجُلَانِ دُونَ الْآخَرِ، حَتَّى تَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ، مِنْ أَجْلِ أَنْ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ» [رواه البخاري (٦٢٩٠)].

ومثل التناجي في ذلك الحكم أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان يحزونه ذلك.

من آداب المجلس

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَسَعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ امْسُرُوا فَاذْسُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَحْوِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَحْوِكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذ لَم تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ولما نهى سبحانه عن المناجاة المحرمة بين لهم آداب الجلوس مع الآخرين، فقال:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَسَعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ امْسُرُوا فَاذْسُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَسَعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: توسعوا في المجالس، وليفسح بعضكم لبعض، فإن الله يفسح لكم فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والقبر وغير ذلك.

وفي قراءة: (المَجَالِسِ) والمراد مجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم كانوا

يتضامون فيه تنافساً على القرب منه، وحرصاً على استماع كلامه، ولا شك أنّ الآية عامة في كل مجلس من مجالس الخير، فإنّ كلّ واحد أحق بمجلسه الذي سبق إليه، وعليه أن يوسّع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك، فيخرجه الضيق عن مجلسه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله: أنه نهى أن يُقام الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ، ويجلس فيه آخر، ولكنّ تفسّحوا وتوسّعوا. وكان ابنُ عمر يكره أن يقوم الرجلُ مِنْ مَجْلِسِهِ، ثم يُجلس مكانه. [رواه البخاري (٦٢٧٠)].

والحكمة من هذا النهي منع انتقاص حقّ المسلم المقتضي للضغائن، والحثُّ على التواضع المقتضي للمودة، وأيضاً فالناس في المباح كلُّهم سواء، فمن سبق إلى شيء استحقّه، ومن استحقّ شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غضبٌ، والغضب حرام^(١).

﴿وَإِذَا قِيلَ اأَشْرُوا فَأَشْرُوا﴾ أي: وإذا قيل: انهضوا للتوسعة على القادمين، فانهضوا ولا تتشاقلوا.

أو: إذا دُعيتُم إلى القيام عن مجلس النبي صلى الله عليه وآله فقوموا، وهذا لأنّه عليه الصلاة والسلام قد يؤثر أحياناً الانفراد لأداء وظائف تخصّه.

وعمم الحكم فقول: إذا قال صاحبُ المجلس لمن في مجلسه: قوموا؛ ينبغي أن يُجاب. وقرئ: (انشزوا، فانشزوا) بكسر الشين.

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ أي: إن تنشزوا يرفع الله المؤمنين منكم في الآخرة لطاعتهم لله ورسوله صلى الله عليه وآله، وامثال أوامره في قيامهم من مجالسهم، وتوسعتهم لإخوانهم، ويرفع الذين أوتوا العلم من المؤمنين بفضل علمهم درجات على من سواهم.

وفي الدرجات قولان:

أحدهما: في الدنيا في المرتبة والشرف.

والآخر: في الآخرة.

ويمكن أن يكون المراد الرفعة في الدنيا والآخرة، فالله سبحانه يرفع المؤمن بإيمانه أولاً، ثم بعلمه ثانياً.

وفي الحديث: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّىٰ حَتَّىٰ الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ» [رواه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابن ماجه (٢٢٣) وابن حبان (٨٨)].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو تهديد لمن لم يمثل لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام. وقرئ: (يعملون) بالياء.

ثم حثتهم الآيات على تعظيم الرسول ﷺ وطاعته، وزجرتهم عن الإفراط في توجيه الأسئلة إليه:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبُونَكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن تَرَ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَبُونَكُمْ صَدَقَةٌ﴾ أي: إذا أراد أحدكم أن يناجي رسول الله ﷺ ويحدثه سرّاً، فعليه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه، وتؤهله لمناجاة الرسول ﷺ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: تقديم الصدقة خير لكم في دينكم، وأطهر لقلوبكم ونفوسكم، فهي طهرة لكم، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿فَإِن تَرَ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إلا مَنْ عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ لِفَقْرِهِ، فَلَا يَكْفُفُ بِهَا إِلَّا مَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا، وَفِي هَذَا الْأَمْرِ تَعْظِيمُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

ونفعُ الفقراء، وزجرٌ عن الإفراط في السؤال، وتمييز بين المخلص والمنافق، ومحب الآخرة ومحب الدنيا، ثم رفع تعالى عنهم هذا التكليف بقوله:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُوحِكُمْ صَدَقَاتٍ فَاذِلَّةٌ فَفَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم؟! فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به، ورخص لكم في المناجاة من غير تقديم صدقة، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الله ورسوله ﷺ، فإن القيامَ بذلك يَجْبُرُ ما وقع من التفریط، والله خبيرٌ بما تعملون ظاهراً وباطناً.

وأشعرت الآية بأن إشفاقهم من استمرار الحكم عليهم ذنب تجاوز الله عنه.

* * *

حزب الشيطان

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

وبعد أن بينت الآيات كمال علمه تعالى، وأنه يسمع الشكوى، ويعلم النجوى، عجبت من حال المنافقين، الذين كانوا يوالون اليهود ويناصحونهم، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ألم تر إلى الذين والوا قوماً غضب الله عليهم، وهم اليهود.

﴿مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: هم منافقون مذنبون، لا هم من المؤمنين ولا من اليهود.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهؤلاء المنافقون يحلفون على الكذب، وهم عالمون بأنهم يكذبون، وهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في نار جهنم.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

أعد الله لهم عذاباً شديداً يوم القيامة، إنهم في ما مضى من الزمان قد أدمنوا سوء العمل، وأصرروا عليه.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: جعلوا أيمانهم الكاذبة دون أموالهم وأنفسهم، فصدوا الناس عن سبيل الله، وظنّ الذين لا يعرفون حقيقتهم صدقهم، ولهم عذابٌ فيه خزي وإذلال لهم، لأنهم امتنوا اسم الله العظيم في أيمانهم الكاذبة. وفي قراءة: (إيمانهم) بكسر الهمزة، أي: إيمانهم الذي أظروه.

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لن تدفع عنهم أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب الله عندما ينزل بهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ماكنون فيها أبداً.

لقد أدمنا الأيمانَ الكاذبَةَ، حتى إنَّهم يحلفون لله تعالى يوم القيامة كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
الْكٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ويحسبون أنهم يخدعون الله بحلفهم.
﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكٰذِبُونَ﴾ أي: المبالغون في الكذب حتى تجاسروا على الكذب أمام الله علام الغيوب، فما أجهلهم!
ثم بينت الآيات سبب شدة جهلهم بالله تعالى:

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰنُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰنِ ۗ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰنِ هُمُ
الْمُخْلٰسُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿أَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰنُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ أي: استولى عليهم الشيطان وملكهم، بحيث غفلوا عن الله، فلم يذكره بقلوبهم ولا بألسنتهم، وذلك بما زين لهم من الشهوات.

يقال: حاذَ الإبل يحوذُها، ساقها سوقاً عنيفاً، وفي الوزن: استفعل من المبالغة ما ليس في حاذ.

﴿أُولٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه.
﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰنِ هُمُ الْمُخْلٰسُونَ﴾ الخسران الذي لا غاية وراءه.

حزب الله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِ بِنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

وكيف لا تكون خسارتهم جسيمة وهم يعادون الله ورسوله؟! :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: أولئك معدودون في جملة مَنْ هو أذَلُّ خلق الله تعالى من الأولين والآخرين .

ومن المعلوم أن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر، وعزة الله غير متناهية، فذلة من حادّه كذلك .

وهو قدر كتبه الله تبارك تعالى وتعلق به منذ الأزل :

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِ بِنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِ بِنَا أَنَا وَرُسُلِي﴾ أي: كتب الله في لوح القدر، أو قضى الله ذلك قضاءً ثابتاً، فمن كُلف من الرسل بالحرب فهو غالب بالحرب، ومن لم يُؤمر بالحرب فهو غالب بالحجة . وقرئ: (ورسلي) بفتح الياء .

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: إن الله قويٌّ على نصر رسله وأوليائه، غالب على

أعدائه .

ثم بينت الآيات موالاته المؤمنين لله تعالى في مقابل موالاته المنافقين لليهود، فالإيمان والكفر لا يجتمعان في قلب واحد:

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لن تجد قوماً مؤمنين يوالون الكافرين، فمثل ذلك ممتنع، ولا يوجد بحال من الأحوال، فمن أحب الله ورسوله ﷺ امتنع أن يحبَّ عدوَّ الله ورسوله.

فإن قلت: قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاملتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحظورة؟.

قلت: المودة المحظورة هي مناصحتهم، وإرادة الخير لهم ديناً ودنيا على كفرهم، فأمّا ما سوى ذلك فلا حظر فيه^(١).

﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي: ولو كان من حادَّ الله ورسوله أقرب الناس إليهم، وأمسَّ رحماً، فليس المراد بمن ذُكر خصوصهم، وإنما المراد الأقارب مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: أثبت الله تعالى فيها، وزينه فيها أيضاً، فهي مؤمنة موقنة مخلصمة، والقلوب محلُّ الإيمان وموضعه، كما قال

تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنُّ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وفي قراءة: (كتب) بالبناء للمفعول.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: من عنده ﷻ، والمراد بالروح: نور يقذفه تعالى في قلب مَنْ يشاء من عباده تحصل به الطمأنينة، أو قواهم بنصر منه، أو بروح من الإيمان، فإنه سببُ حياة القلب، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

هذا فضله تعالى في الدنيا، وأما فضله عليهم في الآخرة:

﴿وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: أحلَّ عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ورضوا عنه، فابتهجوا بما أنعم تعالى عليهم في الجنة.

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ وهو تشریفٌ عظيم لهم ببيان اختصاصهم به تعالى، ذكره في مقابل قوله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩].

﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: هم المختصون بالفلاح في الدنيا والآخرة، أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم.

وذكروا في سبب نزول هذه الآية عدداً من الأقوال:

فقد أخرج ابن المنذر: عن ابن جريج: أنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه صلَّ أباه قبل أن يسلم، لأنه سبَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم.

وأخرج ابنُ أبي حاتم والطبراني وأبو نُعيم في «الحلية» والبيهقي في «سننه»: عن عبد الله بن شوذب: أنها نزلت في أبي عبيدة بن الجراح قال: جعل والدُ أبي عبيدة يتصدَّى له يومَ بدرٍ، وجعل أبو عبيدة يحيدُ عنه، فلمَّا أكثرَ قصدهُ

أبو عبيدة فقتله، قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام، وقد سألتُ رجلاً مِنْ بني فهر، فقالوا: توفيَّ أبوه قبلَ الإسلام في الجاهلية^(١).
قال ابن حجر: «قُتِلَ أبوه كافراً يوم بدر، ويقال: إنَّه هو الذي قتله، ورواه الطبراني وغيره من طريق عبد الله بن شوذب مرسلًا»^(٢).
وقيل غير ذلك. والظاهر أنَّها متصلة في المنافقين الموالين لليهود، فحكمها عام، وإن نزلت في أناس مخصوصين، والله أعلم.



(١) روح المعاني: ٣٧/٢٨.

(٢) فتح الباري: ٩٣/٧.

تفسير سورة الحشر

أَخَذَاتٌ وَعِبرٌ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحشر الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُهُمْ خُصُومُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنْهَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَاغْتَبَرُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصَرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْغُلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَكَسْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَى أَصُولِهَا فَيَاذَنْ اللَّهُ وَلِيُخْرِجَ الْفَلْسَفِينَ ﴿٥﴾

بدأ الله تعالى سورة الحشر كما بدأ سورة الحديد فقال:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

وكرر الاسم الموصول (ما) هنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين في التسبيح.

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا
وَوَدَّوْا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْدَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُوبِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا بِأُولَى الْأَبْصَرِ ﴿٢﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم بنو النضير؛ ففي
«صحيح البخاري» [٤٠٢٩]: عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس: سورة
الحشر، قال: قل سورة بني النضير.

وبوّب البخاري في «صحيحه» في المغازي فقال:

[١٤] باب حديث بني النضير، ومخرج رسول الله ﷺ في دية الرجلين،
وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ. قال الزهري عن عروة: كانت على رأس
سته أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد، وقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأحد.
وحديث عروة وصله عبد الرزاق في «مصنفه» عن الزهري عن عروة: ثم
كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من غزوة
بدر، وكانت منازلهم ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى
نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا
الحلقة، يعني: السلاح^(١).

﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ أي: في أول حشرهم إلى بلاد الشام، فاللام للتوقيت كالتي
في قولهم: كتبت لعشر خلون. ونبه بالأولية على أنهم أول محشورين من أهل
الكتاب من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، فهذا أول حشرهم، وآخر حشرهم
إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم.

أو: أول حشرهم أنهم أخرجوا إلى خيبر، وآخره إخراجهم من خيبر.
ولعل في الآية إشارة إلى حشرهم واجتماعهم في أرض فلسطين في العصر

(١) فتح الباري: ٣٢٩/٧.

الحاضر وقاتل المسلمين لهم كما في الحديث الشريف: عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقْتُلْهُ» [رواه البخاري (٢٩٢٦)].

﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ أي: ما ظننتم أيها المسلمون أن يخرجوا لشدة بأسهم وقوة حصونهم.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: وظنَّ اليهود أن حصونهم تمنعهم من بأس الله.

وفي الآية إشارة إلى تفاوت الظنِّين، فظنَّ اليهود قارب اليقين، ودلَّت الآية على فرط وثوقهم بما هم فيه، وذلك بتقديم الخبر على المبتدأ في ﴿مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ﴾؛ فأفاد التقديم الحصر والاختصاص، فكأنه لا حصن آمن من حصونهم، وأكد هذا المعنى ضمير (هم) فالقوم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة.

﴿فَأَنذَرْتَهُمْ اللَّهَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي: أتاهاهم أمره تعالى من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم، فقذف في قلوبهم الرعب، فكانت النتيجة: ﴿يُخْرِجُونَ يَدِيَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن النبي ﷺ لما صالحهم على أن لهم ما أفلت الإبل، كانوا ينظرون إلى الخشب في منازلهم فيهدمونها، وينزعون ما استحسونه منها، ضناً بها على المسلمين وبغضاً، وكان المسلمون في أثناء حصارهم يخربون ما يواجههم منها. وقرئ: (يخربون) بالتحديد.

﴿فَاعْتَرِبُوا بِنَاقِلِ الْأَبْصَارِ﴾ أي: فاتعظوا يا أصحاب العقول والبصائر، خذوا العبر والمواعظ من هذه الأحداث، واحذروا أن تفعلوا مثل فعلهم فتعاقبوا بمثل عقوبتهم. ودلَّت الآية على جواز القياس.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: ولولا أنه تعالى قدر

عليهم الخروج من البيوت والحصون لعذبهم في الدنيا بقتلهم وسيبهم، كما فعل
بغيرهم، ولعلّ في ذلك إشارة إلى ما حدث لبني قريظة بعدهم.
﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ فالعذاب لازم لهم، فإن نجوا منه في الدنيا لم
ينجوا منه في الآخرة. والسبب:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٤﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: عادوا الله ورسوله بمخالفة أمره تعالى
وأمر رسوله ﷺ.
﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ولكل من يشاق الله كائناً من كان عقاب
شديد.

ولا يخفى ما في الآية من تعظيم لأمر الرسول عليه الصلاة والسلام
فمخالفته مخالفة لله تعالى.
واضطر المسلمون في أثناء الحصار إلى قطع بعض نخلهم، فأنزل تعالى في
ذلك قوله الكريم:

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٥﴾

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: أي شيء قطعتم
من نخلة أو تركتموها على حالها من غير أن تتعرضوا لها بشيء قطعها وتركها
بأمر الله تعالى ومشيئته. واللين: النخلة الكريمة.

﴿وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: ولأجل أن يذللهم ويغيظهم أذن في قطعها، فهي تدل
على جواز هدم ديار الكفار، وقطع أشجارهم إذا كان للمسلمين مصلحة في ذلك.
وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: حرق رسول الله ﷺ نخل
بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى
أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾. [رواه البخاري (٤٠٣١)].

أموال بني النضير

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِي السَّبِيلِ كُنْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَانِكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

وبعد أن بينت الآيات ما حلَّ بديارهم ومزارعهم من التخريب والقطع بينت ما حلَّ بأموالهم:

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: وما ردَّ الله على رسوله ﷺ من يهود بني النضير فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً، ولا نالكم مشقة في تحصيله، فقد كانوا على ميلين من المدينة، فمشوا إليهم مشياً، ولم يركب رسول الله ﷺ فإنه ما ركب حماراً أو جملاً، فما حصلوا هذه الأموال بكدٍّ يمين، وعرق جبين.

وأشارت الآية إلى أن الأموال التي تكون في أيدي الكفار لا حقَّ لهم فيها، فالله تعالى ما خلق الخلق إلا لطاعته وعبادته، وخلق لهم المال ليتوصلوا به إلى طاعته، فهو جديرٌ بأن يكون للمطيعين من عباده.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: وسننه تعالى جارية أن يسلِّط رسله على من يشاء من أعدائهم، ولهذا سلَّط الرسول عليه الصلاة والسلام على بني النضير.

﴿يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء.

فأموال بني النضير خاصةً لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، وأمرها

مَفَوْضٌ إِلَيْهِ، ففقسما عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين، ولم يعطِ الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم: أبو دجانة سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ، وَسَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ الصَّمَّةِ.

ثم بيّن تعالى حكم ما أفاء على رسوله ﷺ من أموال الكفار على العموم بعد بيان حكم ما أفاء عليه من أموال بني النضير، ولذا بيّنه دون عطف على ما تقدم فقال:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾.

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وذكره تعالى في افتتاح الكلام للتيمن والتبرك، فإنَّ الله تعالى ما في السماوات والأرض، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ، وقيل: سهمُ الله ثابتٌ، يصرفُ إلى بناء الكعبة المشرفة والمساجد، وكان سهمُ الرسول ﷺ له في حياته بالإجماع، وهو خمسُ الخمس، وكان ينفقُ منه على نفسه وعياله، ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وسقط بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، والمرادُ بذي القربى: قرابته؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، والباقي سهمٌ لليتامى الفقراء، وسهمٌ للمساكين، وسهمٌ لأبناء السبيل.

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ وقرئ: (دولة) بالرفع على أن (كان) تامة، أي: كي لا يقع دولة، وقرئ بفتح الدال، والدولة: اسم الشيء الذي يتداوله القوم بينهم، والمراد: حتى لا يكون الفيء الذي حقه أن يُعطى الفقراء ليستعينوا به في معاشهم، يتداوله الأغنياء بينهم ويتكاثرون به كما كان أهل الجاهلية، كانوا إذا غنموا غنيمة أخذ الرئيسُ ربعها لنفسه، وهو المِربع، ثم يصطفي بعد ما يشاء، فجعله الله لرسوله عليه الصلاة والسلام يقسمه كما أمره تعالى، ولهذا قال:

﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ أي: وما أعطاكم الرسول من الشيء فخذوه هو حلال لكم .

﴿وَمَا نَهَيْكُمُ عَنْهُ فَأْتُواهُ﴾ وما نهاكم عن أخذه أو عن إتيانه فانتهوا عنه .

والآية وإن كانت في أموال الشيء فهي عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه، فيدخل فيها الشيء وغيره .

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم» [رواه البخاري (٧٢٨٨)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: واتقوا الله في مخالفة رسوله، إن الله شديد العقاب .

* * *

المستحقون للفيء

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَصَلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَبْصُرُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ حَصَصَةٌ
وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
أَغْنِرْ لَنَا لِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

ثم بينت الآيات من له الحق في مال الفيء:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾ .

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ سَمَّاهُمْ اللهُ فُقَرَاءً، مع أَنَّهُ كانت لهم ديار وأموال؛ لأنَّ المشركين في مكة استولوا عليها.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي: خرجوا من ديارهم يطلبون الجنة ورضوان الله وينصرون الله ورسوله ﷺ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ في إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وهم الأنصار الذين توطَّئوا المدينة، واتخذوها سكناً، وأخلصوا في الإيمان، وتمكنوا فيه قبل هجرة المهاجرين إليهم. أو: تبوَّءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فالمدينة المنورة هي دار الهجرة ودار الإيمان.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ حتى إنهم أنزلوا المهاجرين في منازلهم، وأشركوهم في أموالهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أَي: ولا يجدون في صدورهم غيظاً وحسداً مما أعطى المهاجرون من فيء بني النضير دونهم، حيث خصَّ النبي ﷺ المهاجرين به، ولم يعط الأنصار شيئاً إلا ثلاثة كما ذكرنا، فطابت أنفس الأنصار بذلك مما يدل على شرف أنفسهم وكرمهم.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أَي: ويؤثر الأنصار المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، ولو بهم فاقةٌ وحاجةٌ إلى ما يؤثرون به.

والإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحفظها الدنيوية رغبةً في الحفظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة^(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلُ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله أصابني الجهدُ. فأرسلَ إلى نساءِه فلم يجدُ عندهنَّ شيئاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا رجلٌ يضيفُهُ الليلةَ يرحمه الله؟».

فقام رجلٌ مِنَ الأنصارِ فقال: أنا يا رسولَ الله، فذهبَ إلى أهله فقال لامرأته: ضيفُ رسولِ الله ﷺ لا تدخره شيئاً، فقالت: والله ما عندي إلا قوتُ الصبية، قال: فإذا أرادَ الصبيةُ العشاءَ فنؤمهم، وتعالى فأطفئ السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت. ثم غدا الرجلُ على رسولِ الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ اللهُ ﷻ - أو ضحكك - من فلانٍ وفلانَةٍ» فأنزل اللهُ ﷻ: ﴿يُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [رواه البخاري (٤٨٨٩)].

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح.

والشُّحُّ: البخلُ مع الحرص. وفرَّق بعض العلماء بين البخل والشح فقال: البخل نفسُ المنع، والشحُّ هو الحالة النفسية التي تقتضي ذلك المنع، فهو من صفات النفس، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾.

وقال ابن عمر: ليس الشحُّ أن يمنع الرجلُ ما له، إنما الشحُّ أن تطمع عينُ الرجلِ في ما ليس له.

فهو الحرصُ الشديدُ الذي يحمل صاحبه على ارتكاب المحارم، كما ورد في الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «اتقوا الظلمَ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واتقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلِك مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حملَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» [رواه مسلم (٢٥٧٨)].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة.

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ يدعون لأنفسهم بالمغفرة وللمهاجرين والأنصار الذين سبقوهم بالإيمان، فالآية تمدحهم لمحبة الصحابة ومراعاتهم لحقوقِ السابق بالإيمان والأخوة في الإسلام.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ولا تجعل في قلوبنا حسداً وللذين آمنوا.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ مبالغ في الرأفة والرحمة، فحقيق أن تجيب دعاءنا. وقد استوعبت هذه الآية جميع المؤمنين، ومدحتهم لمراعاتهم حقوق الأخوة في الدين، والسبق في الإيمان، وما أحسن ما استنبطه الإمام مالك رحمته الله من هذه الآية أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء، وهذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول وإبقاء العقار والأرض شمالاً بين المسلمين أجمعين، كما فعل عمر رضي الله عنه (١).

* * *

كذب وخذلان

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيَنَّ الْأَافِكِينَ ثُمَّ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذاقُوا وَبَأَلَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ۞

وبعد أن بينت الآيات أحوال المؤمنين وأقوالهم الحسنة على اختلاف طبقاتهم، عَقَّبَتْ عليه بيان أحوال الكفار والمنافقين الفاسدة لكي تكون عبرة لغيرهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ۞

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ۞ وهم يهود بني النضير.

﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ۞ أي: لئن أُجبرتُم على الخروج والجلء لنخرجنَّ معكم، ولا نطيعُ أحدًا يمنعنا من الخروج معكم أبدًا.

﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ۞ أي: لننصرنكم على عدوكم.

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ في مواعيدهم المؤكدة بالإيمان الفاجرة.

وبعد أن كَذَّبهم الله تعالى جملةً بيِّنَ كذبَ أقوالهم على التفصيل:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ (١٢)

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فابن أبي وأصحابه أرسلوا إلى بني النضير يُعلمونهم بذلك سرّاً، ثم أخلفوهم، وخذلوهم، ففي الآية دليلٌ على أن القرآن الكريم هو كلام الله علام الغيوب. ثم أضافت الآيات تبشر المؤمنين:

﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ﴾ أي: ولئن نصروهم على الفرض والتقدير ليولنّ الأدبار فراراً، ثم لا يُنصر المنافقون بعد ذلك، ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم، أو ليهزم من اليهود ولا ينفعهم نصرُ المنافقين، وهي بشارة للمؤمنين مستقلة بنفسها.

ثم وصفت الآيات شدة جنهم وخوفهم من المؤمنين:

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣)

﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فهم يرهبونكم ويخافون منكم أشد من رهبتهم من الله تعالى.

﴿ذَلِكَ بِأَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته.

﴿لَا يَفْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤)

﴿لَا يَفْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي: لا يقاتلكم اليهود والمنافقون مجتمعين إلا في قريّ محصنة، أو من وراء جُدُرٍ، تكون بينكم وبينهم، فلا يبرزون لقتالكم. وفي قراءة: (جدار).

﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بأسهم من وراء الحيطان والحصون شديدٌ،

فإذا خرجوا إليكم فهم أجبُنُ الناسِ . أو عداوتهم فيما بينهم شديدة .

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أي: تحسبهم مجتمعين متفقين وقلوبهم

متفرقة، لا ألفة بينهم، لاختلاف مقاصدهم وأهوائهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أن تشتت الأهواء يضعف قواهم، ويذهب

ريحهم .

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاتُ أَيْمَانَ وَمَا كَفَرُوا بِهِمْ وَهُمْ عَلَيْهِمْ عَلِيمٌ ﴾ (١٥)

أي: مثلهم كمثل يهود بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله ﷺ قبل يهود

بني النضير، وكانوا أول يهود نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦)

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ أي: مثلهم أيضاً كمثل الشيطان إذ

أغرى الإنسان على الكفر إغراء الأمر للمأمور .

﴿ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ فلما كفر تبرأ منه

مخافة أن يشاركه في العذاب، لكن ذلك لن ينفعه .

﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٧)

والخلود في النار جزاء الظالمين . وفي قراءة: (خالدان فيها) على أنه خبر (أن) .

وهذا مثلٌ ضربه الله ليهود بني النضير والمنافقين، فبعد أن وعد المنافقون

اليهود بتأييدهم ونصرهم خذلوهم، وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من الإنسان،

الذي أغراه، وزين له الكفر .

وذهب بعضهم إلى أن المراد بالشيطان إبليس، وبالإسناد أبو جهل قائلاً له

الشيطان يوم بدر: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيُّومَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ

الْفُتَاتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: ٤٨].

وأخرج أحمد في «الزهد» والبخاري في «تاريخه» والبيهقي في «الشعب» والحاكم وصححه: عن علي كرم الله تعالى وجهه: أن رجلاً كان يتعبد في صومعته، وأن امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شيء فأتوه بها، فزينت له نفسه فوقع عليها، فحملت، فجاءه الشيطان، فقال: اقتلها، فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت، فقتلها ودفنها، فجاؤوه - أي إخوة المرأة -، فأخذوه فذهبوا به، فبينما هو يمشي إذ جاءه الشيطان، فقال: أنا الذي زينت لك فاسجد لي سجدة أنجلك، فسجد له، ثم تبرأ منه، وقال له ما قال، فذلك قوله تعالى: ﴿كَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ﴾ (١).

* * *

التقوى والمحاسبة

﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُوا اللَّهَ وَتَنظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِعَادٍ وَأَنفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَوُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْمَايُتُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُّصَدَّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

وعادت الآيات مرة ثانية تدعو المؤمنين إلى الاعتبار وأخذ الدروس والعبر

من هذه الأحداث، أمره لهم بتقوى الله والنظر في أعمالهم ومحاسبة أنفسهم:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ أي: ولتنظر نفس أي شيء قدّمت من الأعمال ليوم القيامة، عبّر عنه بغدٍ لدنوّه، ونكّره تفضيماً له وتهويلاً، وأفاد تنكير (نفس) عموم كل نفس، واستقلالها بالمسؤولية.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: إنّ الله خبير بما تعملون من المعاصي والآثام، والأمر بالتقوى تأكيدٌ للأمر الأول، وقد يكون الأمر الأول لفعل الواجبات، والثاني المشفوع بالوعيد والتهديد لترك المحرمات.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَأُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ سَأُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ولا تكونوا كالذين غفلوا عن الله، ولم يؤدوا حقوقه عليهم، فأنساهم العمل الذي يصلح أنفسهم، أو أنساهم العمل لخير أنفسهم، فإنّ الجزاء من جنس العمل.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ العريقون في الفسق الموغلون فيه.

ثم بيّن تعالى عدم تساوي الفريقين بالمصير والأحوال الآخروية:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بالنعيم والرضوان، وهذا الفوز ينفي التساوي، ويؤكد عدم وقوعه.

ثم وبّخت الآيات بأسلوب غير مباشر الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن الكريم، ولا يأخذون من قصصه العبر والمواعظ والدروس:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: من شأن القرآن وعظمته أنه لو جعل في الجبل كما جعل في الإنسان، وأنزل عليه القرآن لخشع وتشقق من خشية الله تعالى.

فما أقبح حال المعرضين عن تعظيم القرآن، المتهاونين بحقوق الله عليهم، الذين لا ينتفعون بمواعظ القرآن وحكمه وأحكامه، ولا يعتبرون بما فيها من عبر ومواعظ! فهو تقبيحٌ لحال المعرضين عن القرآن الكريم بأسلوب التمثيل، ولهذا قال بعده:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بما فيها من مواعظ وعبر ودروس. ولا شك أن عظمة القرآن من عظمة مَنْ أنزله وهو الله ﷻ:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

أي: عالمٌ بما غاب عن الحسِّ، وما حضر فهو مرئي بالأبصار.

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ أي: المنزه عن كل نقص والظاهر عن كل عيب.

﴿السَّلَامُ﴾ أي: ذو السلامة من النقائص، والمسلم على عبادته في الجنة.

أو: المسلم لعباده.

﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدق لرسله بإظهار معجزاته على أيديهم، ومصدق

المؤمنين بما وعدهم من ثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من عقاب.

- أو: الذي وحّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].
- أو: الواهب عباده الأمن يوم الفزع الأكبر. أو: ذو الأمن من الزوال.
- ﴿الْمُهَيِّئُ﴾ أي: الرقيب الحافظ لكل شيء.
- ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب. أو الذي لا مثل له.
- ﴿الْجَبَّارُ﴾ أي: الذي جبر أحوال خلقه وأصلحها.
- أو: المنيع الذي لا ينال ولا ينافس في فعله. أو: العظيم.
- ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة.
- ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ط
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ الموجد المخلوقات بريئة من التفاوت بحسب الحكمة.
- أو: المميز بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة.
- ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد.
- ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الدالة على محاسن الصفات والمعاني.
- ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجامع لجميع الكمالات.

ولهذه الآيات فضلٌ عظيمٌ كما دلت عليه عدّة روايات؛ فقد أخرج الإمام أحمد [٢٠١٨٤] وقال محقق المسند: إسناده حسن، والدارمي [٣٤٢٥] والترمذي [٢٩٢٢] والطبراني في الكبير [٥٣٧/٢٠] وابن الضريس، والبيهقي في «الشعب»: عن معقل بن يسار، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ، وَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلِكٍ يَصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ مَاتَ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ».

وأخرج الديلمي: عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: أنه قال في هذه الآيات: «هي رقية الصُداع»^(١).

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بهدي القرآن الكريم، وأن يجعل فيه شفاءً لقلوبنا وأبداننا.



(١) انظر: روح المعاني: ٦٤/٢٨.

تفسير سورة الممتحنة الْبَرَاءَةُ وَالْبَيْعَةُ فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تحريم موالة الكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾
إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوَى وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الممتحنة بنهي المؤمنين عن موالة الكافرين، فإن ذلك من صفات المنافقين كما مر معنا في السورة السابقة، فقال:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ أي: توصلون

إليهم المودة، أو تلقون إليهم أخبار المؤمنين بسبب المودة التي بينكم وبينهم، فكانه تعالى يقول لهم: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: وحالهم أنهم كفروا بما جاءكم من الحق، وهو الإسلام أو القرآن.

وسبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ لما أراد المسير إلى فتح مكة قال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

فأرسل إليهم حاطب بن أبي بلتعة كتاباً يخبرهم بذلك، فأطلع الله النبي ﷺ عليه.

ففي الحديث الشريف: عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد قال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن به ظعينة معها كتاب فخذوه منها».

فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجي الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟!».

قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأة من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني.

فقال النبي ﷺ: «إنه قد صدقكم».

فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه.

فقال: «إنه شهد بديراً، وما يدريك لعل الله ﷻ اطلع على أهل بدر فقال:

اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

قال عمرو - أحد رجال السند -: ونزلت فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ ءَوْلِيَاءَ...﴾ . [رواه البخاري (٤٨٩٠)].

قوله: كنت امرأً من قريش: أي: بالحلف، فهو حليفهم، ولم يكن من أنفسهم، وعذره أنه صنع ذلك متأولاً أنه لا ضرر فيه.

﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي: يخرجون الرسول وإياكم من مكة بسبب إيمانكم بالله.

وصيغة المضارع: (يخرجون) لاستحضار الحال الماضية.

﴿إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: فلا تتخذوهم أولياء والحال أنكم خرجتم لأجل الجهاد في سبيلي وطلب مرضاتي.

فهو تهيج لهم على ترك موالاة الكافرين، فالخطاب للمهاجرين خاصة، لأن القصة صدرت منهم، كما سبق في سبب النزول.

واستأنفت الآية مخاطبتهم على نهج العتاب والتوبيخ:

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ أي: تسرون إليهم بالموودة أو الإخبار بسبب الموودة، والحال أنني أعلم منكم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومُطَّلِعٌ رسولي على ما تسرون، فلا فائدة في الإسرار.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: ومن يفعل موالاتهم منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

ودلت الآية على أن من فعل ذلك لغرض دنيوي لا يكفر كما فعل حاطب حين قصد اتخاذ اليد، ولم ينو الردة عن الدين، واختلفوا في الجاسوس الذي يدلُّ الأعداء على أحوال المسلمين، فإن كانت تلك عادته قُتِل، وهو صحيح لإضراره بالمسلمين، وسعيه بالفساد في الأرض^(١).

ثم ذكرتهم الآيات بمواقف المشركين القبيحة تنفيراً للمؤمنين عن موالاتهم:

﴿إِنْ يَشْقُوْكُمْ يَكُوْنُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوْا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوْءِ وَوَدُّوْا لَوْ تَكْفُرُوْنَ ﴿٢﴾﴾ .

أي: إن يظفروا بكم يظهروا عداوتهم لكم، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بما يسوءكم من القتل والشتم، وتمنوا أيضاً لو تكفرون.
ثم بيّن تعالى أنّ الأقارب والأولاد الذين يوالون المشركين من أجلهم لن ينفعوهم يوم القيامة:

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ .

﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يفرق الله بينكم، فيفر كل واحد من الآخر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

وفي قراءة: (يُفْصَلُ) مبنياً للمفعول، (ويُفْصَلُ) بالتشديد، و(تُفْصَلُ) بالنون.
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

* * *

البراءة

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْمُعْتَدِ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ .

ثمّ حثهم الآيات على الاقتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين ببراءتهم من قومهم الكافرين:

أو: لا تظهرهم علينا، فيفتنونا بذلك، ويرون أنهم ظهروا علينا لأنهم على الحق.

﴿وَأَغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واغفر لنا ما أسلفنا، إنك أنت العزيز الذي لا يُغلب، ولا يضامُ مَنْ لجأ إليك، الحكيم في ما أمر وقدر. وتكرير النداء: (رينا) للمبالغة في الدعاء والتضرع.

وعادت الآيات مرة ثانية تحث المؤمنين على الاتساء بإبراهيم ومن معه:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فمن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم، فإن تركه من دلائل عدم الإيمان بهما. وقرئ: (إسوة) بكسر الألف.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وهو وعيد يوعد الكفار بمثله. ولما رأى سبحانه منهم التصلب في الدين، والتشدد له، في معاداة آبائهم وأبنائهم وأقربائهم، أنزل عليهم تطيباً لقلوبهم:

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ بهدايتهم إلى الإيمان، ودخولهم في الإسلام.

وأنجز سبحانه وعده الكريم عند فتح مكة، فأسلموا، وعادت المودة إليهم، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا لِمَنَّمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والله قدير يقدر على قلب القلوب وتغيير الأحوال، ويسهل أسباب المودة، والله يغفر لمن أسلم من الكفار ويرحمهم.

* * *

بر وعدل

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَرْوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْكُمْ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم رخص سبحانه للمؤمنين في صلة أقاربهم الكفار الذين لم يعادوا المسلمين ولم يقاتلوهم، وفي برهم أيضاً، فقال:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَرْوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَرْوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: وتعاملوهم بالعدل في ما بينكم وبينهم.

وفي الحديث الشريف: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قدمت عليّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك» [رواه البخاري (٢٦٢٠)].

وفي رواية: قال ابن عيينة - أحد رجال السنن - : فأنزل الله فيها: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾.

وقولها: (راغبة) أي: في شيء تأخذه وهي على شركها، ولهذا استأذنت أسماء في أن تصلها، ولو كانت راغبة في الإسلام لم تحتج إلى إذن. وهذا يدل على سمو مبادئ الإسلام وإنسانيتها، حتى إن ابن حجر نقل عن

الخطابي قوله: فيه أنَّ الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويُستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان الولد مسلماً^(١) بشرط أن يكونا من أهل الذمة لا من أهل الحرب.

قال الآلوسي رحمته الله: «وفيهما دليل على جواز التصدق على أهل الذمة دون أهل الحرب، وعلى وجوب النفقة للأب الذمي دون الحربي لوجوب قتله»^(٢).
والجدير بالذكر هنا أنَّ جواز التصدُّق مقيد بغير أموال الزكاة فلا تُصرف إلا للمسلمين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ صلى الله عليه وسلم، وَكَلَّمَا يَدِيهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَوْا» [رواه مسلم (١٨٢٧)].

وعَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الإمامَ العادل من الأصناف السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. [انظر: الحديث الذي رواه مسلم (١٠٣١)].

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي: أعانوا على إخراجكم.

﴿أَنْ تَوَلَّوهُمْ﴾ أي: إنما ينهاكم الله عن أن تتولوهم.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية موضع العداوة، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

فمؤالاة الكافرين من كبائر الذنوب. ودلَّ استعمالُ أداة الحصر (إنما) على

(١) فتح الباري: ٥/٢٣٤.

(٢) روح المعاني: ٢٨/٧٥.

المبالغة في وعيد المخالفين؛ فهو كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ذكر بعض المفسرين أن معنى الآية والتي قبلها منسوخٌ بآية السيف، لكن ابن جرير قال: لا وجه لادّعاء النسخ، واحتجَّ بحديث أسماء وأمها الذي سبق^(١).

* * *

تحريم المؤمنات على الكفار

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لهنَّ وَلَا هُنَّ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاوُهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَانَبْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تَسْئَلُوهُنَّ عَمَّا فَتَمَّنَّوْنَ لَهُنَّ وَمَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُنَّ كُفَّارًا بِمَا أَنفَقْتُمْ ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ سُنَّةٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ دَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

هكذا قسمت الآيات الكفار إلى قسمين، فالمحاربون للمسلمين الذين يمكرون بالإسلام والمسلمين سرّاً وعلناً، ويعادونهم، ويظاهرون عليهم أعداءهم، لا تجوز موالاتهم، ولا صلتهم، ولو كانوا أقرباء للمسلمين، أما الكفار غير المحاربين للمسلمين كأهل الذمة، فلا تجوز موالاتهم أيضاً، ولكن رخص الإسلام بصلتهم وبرهم، ولا شك أن المصاهرة والزواج من مظاهر الموالاتة، ولهذا أضافت الآيات تبين حكم من يُسلم من نساء الكفار، وتقرر تحريمهن على الكفار:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا آَنَفَقُوا ۗ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَنْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفَرِ وَسَأَلُوا مَا آَنَفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مَا آَنَفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: فاخبروهن بما يغلبُ على ظنكم صدق إيمانهن .

ويبدو أن النبي ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية وبما بعدها في آية بيعة النساء، ففي حديث صلح الحديبية: أن رسول الله ﷺ لما كاتب سهيلَ بن عمرو يومئذٍ كان في ما اشترط سهيلُ بن عمرو على النبي ﷺ ألا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا، وخليتَ بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك، وامتعصوا منه، وأبى سهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي ﷺ على ذلك، فردَّ يومئذٍ أبا جندلٍ إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأتيه أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلماً .

وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنتُ عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ - وهي عاتق - فجاء أهلها يسألون رسول الله ﷺ أن يرجعها إليهم، فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ .

قال عروة: فأخبرتني عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهنَّ بهذه الآية: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ . . .﴾ قالت عائشة: فمن أقرَّ بهذه الشروط منهنَّ قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتُك» كلاماً يكلمها به، والله ما مسَّت يدهُ يدَ امرأةٍ قط في المبايعة، وما بايعهن إلا بقوله. [رواه البخاري (٢٧١٢ - ٢٧١٣)].

وفي رواية ثانية لكيفية هذه البيعة أخرجها ابن المنذر والطبراني في «الكبير» وجماعة بسند حسن عن ابن عباس: أنه قال في كيفية امتحانهن: كانت المرأة إذا جاءت النبي ﷺ حلفها عمرُ رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ،

وبالله ما خرجت مِنْ بُغْضِ زَوْجٍ، وبالله ما خرجت التماسَ دُنْيَا، وبالله ما خرجت إلا حَبًّا لَهِ لِرَسُولِهِ (١).

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِنَا﴾ أي: هذا الامتحان لكم والله أعلم بإيمانهم، فهو المَطَّلَع على ما في قلوبهم.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي: فإن أقرن بالإيمان، وظهر لكم أمارات صدقهن، فلا تردوهن إلى أزواجهن الكفار، لأنَّ الله لم يُبَيِّحْ مُؤْمِنَةً لِكَافِرٍ.

والجملة الأولى: ﴿لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ﴾ لبيان الفرقة الثابتة، وتحقق زوال النكاح الأول، والثانية: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ لبيان ما يستأنف ويستقبل من النكاح، ويشعر بذلك التعبير بالاسم في الأولى والفعل في الثانية (٢).

قال ابن كثير في تفسير الآية: هذه الآية هي التي حرَّمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوَّجَ المشركُ المؤمنةَ، ولهذا كان أمرُ أبي العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه، فلَمَّا وَقَعَ في الأسر يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة، فلَمَّا رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقَّةً شديدةً، وقال للمسلمين: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا فَافْعَلُوا» ففعلوا، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث إليه ابنته، فوفى له بذلك، وصدق في ما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر سنة اثنتين، فأقامت في المدينة إلى أن أسلمَ زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردَّها إليه بالنكاح الأول، ولم يُحَدِّثْ صداقاً.

وروي: أنه عليه الصلاة والسلام ردَّ ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد.

(١) روح المعاني: ٧٦/٢٨.

(٢) روح المعاني: ٧٦/٢٨.

والذي عليه الأكثرون أنه متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه، وقال آخرون: بل إذا انقضت العدة هي بالخيار إن شاءت أقامت على النكاح، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت.

لكن هذا القول الثاني يتعارض مع صريح قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ جِلَّ لَكُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ولعله في حال إسلام الزوج.

﴿وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا﴾ أي: وأعطوا أزواجهن مثل ما دفعوا إليهن من المهور.

ثم أباح سبحانه للمؤمنين تزوج هؤلاء المهاجرات فقال:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، فما دفعتم

لأزواجهن لا يقوم مقام مهورهن، فالإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء عدتها فهي زوجته، وبه قال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك والشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: تقع الفرقة باختلاف الدارين^(١).

فأبو حنيفة لا يرى العدة على المهاجرة، ويبيح نكاحها من غير عدة، إلا أن تكون حاملاً فحتى تضع حملها.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾ أي: ولا تمسكوا بما يعتصم به الكافرات من

عقد النكاح، فالآية تنهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، والاستمرار معهن، والمراد المشركات عموماً الباقيات في دار الحرب وعابدات الأوثان، فلا يجوز ابتداء نكاحهن، فالآية خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وفي قراءة: (ولا تمسكوا) بالتشديد.

﴿وَسَأَلُوا مِمَّا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ مِمَّا أَنْفَقْتُمْ﴾ أي: وأسألوا ما أنفقتم من مهور نسائكم

اللاحقات بالكفار، وليسأل المشركون الذين لحقت أزواجهم بكم ما أنفقوا من مهور أزواجهم المهاجرات.

﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَنْحَكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذلك المذكور حكم الله جعله

بينكم حاكماً، والله عليم حكيم يشرع ما تقتضيه الحكمة.

(١) تفسير الخازن: ٦/٢٤٥.

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۗ
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾
أي: إذا فرت إلى الكفار امرأة، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً، فإذا جاءت منهم
امرأة لا يدفع إلى زوجها مهرها، ويدفع إلى المسلم الذي فاته مهر زوجته.
فمعنى (عاقبتهم) جاءت عقبتم؛ أي: نوبتكم في أداء المهر، وقيل: أصبتم
من الكفار عقبى، وهي الغنيمة، فاتوا بدل الفات من الغنيمة.
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن الإيمان بالله يقتضي تقواه.

* * *

البيعة

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا
يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ يَفْرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ
وَأَسْتَعْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ
يَسُؤُوا مِنَ الْأَجْرَةِ كَمَا يَبِيسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ .

ثم بينت الآيات بيعة النساء التي كان النبي ﷺ يمتحن بها النساء المهاجرات:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا
يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ يَفْرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ
فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَعْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ﴾ أي: مبايعات لك.

﴿عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرَفَ وَلَا يَزْنِيَ وَلَا يَقْتُلَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ بؤاد أو إسقاط حمل بعد ظهور التخلق .

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتِنٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي : ولا تلحق المرأة بزوجها غير ولده، وذلك أن تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدي منك، وإنما قال : ﴿بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد اللقيط يلتقط بيديها، وتدعي أنها ولدته، وسقط بين رجليها، وقيل : المراد بالبهتان السحر، أو المشي بالنميمة والسعي بالفساد .
﴿وَلَا يَعْصِيْنَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي : في جميع ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه، ومنه النوح على الموتى .

ففي الحديث : عن أم عطية رضي الله عنها قالت : بايعنا رسول الله ﷺ فقراً علينا : ﴿أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت : أسعدتني فلانة فأريد أن أجزبها، فما قال لها النبي ﷺ شيئاً، فانطلقت ورجعت فبايعها .
[رواه البخاري (٤٨٩٢)] .

والإسعاد : قيام المرأة مع الأخرى في النياحة، ولا يستعمل إلا في البكاء والمساعدة عليه .

وفيه دليل على أن الطاعة الواجبة لا تكون إلا في الأمر المشروع .
والجدير بالذكر هنا : أن النبي ﷺ بايع الرجال أيضاً على مثل بيعة النساء، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ فقال : «أتبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تسرقوا؟ - وقرأ آية بيعة النساء - فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له» [رواه البخاري (٤٨٩٤)] .

وكان رسول الله ﷺ يأتي النساء بعد صلاة العيد فيذكرهن بأمر هذه البيعة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فكلهم يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعد، فنزل نبي الله ﷺ

فكأنني أنظرُ إليه حينَ يجلسُ الرجال بيده، ثم أقبل يشقُّهم حتى أتى النساءَ مع بلالٍ فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعَنَّكَ...﴾ حتى فرغ من الآية كلها. [رواه البخاري (٤٨٩٥)].

ويبدو أن المبايعة أيضاً حدثت أكثر من مرة، فقد أخرج الإمام أحمد [٢٦٨٨٥] والنسائي [١٥٢/٧] وابن ماجه [٢٨٧٤] والترمذي [١٥٩٧] وصححه: عن أميمة بنت رقية قالت: أتينا النبي ﷺ لنبايعه، فأخذَ علينا ما في القرآن أن لا نشركَ بالله شيئاً حتى بلغ: ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فقال: «في ما استطعتنَّ وأطقتنَّ» قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا مِن أنفسنا، يا رسول الله ألا تصافِحنا؟ قال: «إني لا أصافِحُ النساءَ، إنما قولي لمئةِ امرأةٍ كقولي لامرأةٍ واحدةٍ». ﴿فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَعْفِرَ لهنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وعادت الآيات في خاتمة السورة تنهى المؤمنين عن موالاته الكافرين كما فعلت في فاتحتها:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئَسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، أو هم عامة الكفار، فكيف توالونهم وقد غضب الله عليهم واستحقوا منه الطرد والحرمان؟! . ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئَسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَحْصَابِ الْقُبُورِ﴾ أي: قد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها لكفرهم بها كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كلِّ خيرٍ. أو: كما يئس الكفار الأحياء أن يرجع إليهم أصحاب القبور. والمراد وصفهم بكمال اليأس من رحمة الله في الآخرة. أسأل الله أن لا يجعلنا منهم وأن يثبتنا على الإيمان.



تفسير سورة الصف بِسَارَةٍ وَبِجَارَةٍ فِي سُورَةِ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المقت الخالص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ مُتَذَكِّرُونَ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ أَنْ تُقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٥﴾﴾

افتتح الله تعالى سورة الصف كما افتتح سورة الحشر فقال:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

ثم حثهم سبحانه على الثبات في الجهاد بأسلوب فيه عتاب للمتقاعسين عنه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾

أي: لأي شيء تقولون: نعمل، ما لا تفعلون من الخير والمعروف.

و(لِمَ) مركبة من اللام الجارة و(ما) الاستفهامية قد حذفت ألفها تخفيفاً .

ففي الآية إنكار على من يعد وعداً ويقول قولاً لا يفي به، ففيها إشارة إلى الذين قال ﷺ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ آجِلَ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَبَيِّنًا ﴿٧٧﴾ [النساء].

قال ابن عباس: كان ناس من المؤمنين قبل أن يُفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله ﷻ دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان به لا شك فيه، وجاهد أهل معصيته، الذين خالفوا بالإيمان، ولم يقرؤا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال سبحانه: ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢)

أي: عظم بغضاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. والمقت: أشد البغض، ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقت خالص.

ولعل النبي ﷺ نهى أصحابه عن تمني لقاء العدو لهذا المعنى، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا» [رواه البخاري (٣٠٢٦)].

وهذه الآية - كما قال القرطبي - توجب على كل من ألزم نفسه عملاً في طاعة الله أن يفي به، قال النخعي: ثلاث آياتٍ منعتني أن أقصَّ على الناس:

- ١ - ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤].
- ٢ - ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمُ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].
- ٣ - ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]^(٢).

(١) تفسير ابن كثير لسورة الصف.

(٢) تفسير القرطبي: ٨٠/١٨.

ثم بين تعالى ما هو مرضي عنده بعد بيان ما هو ممقوت عنده فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ ۖ﴾

أي: إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم عند القتال صفًا كأنهم بنيان مرصوص، لاصق بعضه ببعض، ليس فيه فرجة ولا خلل.

والمراد أن الله يحب من يثبت بالجهاد في سبيله، ويلزم مكانه كثوت البناء المرصوص، فالله تعالى يعلم عباده المؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم، فهو كقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

فلا يجوز للمجاهد أن يترك مكانه في ميدان القتال إلا لضرورة تعرض للإنسان، أو لتنفيذ أمرٍ أمر به ومهمة كُلف بها.

ثم حذرتهم الآيات أن يكونوا مثل بني إسرائيل الذين آذوا موسى ﷺ بمعصيته ومخالفة أمره عندما أمرهم بقتال عدوهم:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۖ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾
أي: لم تؤذونني بالمخالفة والعصيان، والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً أنني رسول الله إليكم، فإن علمكم هذا يلزمكم بطاعتي، والمساورة إلى تنفيذ أمري.

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: لما أعرضوا عن الحق، وأصروا على العصيان؛ صرف الله قلوبهم عن الحق والصواب.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة، المصريين على الضلالة.

وأجملت الآية هنا ما فصلته في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿يَنْقُورِ ادْخُلُوا

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آذَانِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِ غَلِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿المائدة﴾.

* * *

بشرى عيسى عليه السلام

﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

ثم أضافت الآيات تحذيراً آخر بأسلوب غير مباشر فبينت المكانة الرفيعة

للنبي صلى الله عليه وسلم بين الأنبياء:

﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَإِذ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ فعيسى صلى الله عليه وسلم قام في الملاء من بني إسرائيل مبشراً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لِي خَمْسَةٌ أَسْمَاءَ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسَ عَلَيَّ قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ» [رواه البخاري (٣٥٣٢)].

وأشهرها: محمد، وقد تكرر في القرآن، وأما أحمد فذكر فيه حكاية عن قول عيسى عليه السلام، فأما محمد فمن باب التفعيل للمبالغة، وأما أحمد فمن باب التفضيل . . .

قال عياض: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحمد قبل أن يكون محمداً، كما وقع في الوجود، لأن تسميته أحمد وقعت في الكتب السالفة، وتسميته محمداً وقعت في القرآن العظيم، وذلك أنه حمد ربه قبل أن يحمده الناس، وكذلك في الآخرة يحمد ربه، فيشفعه فيحمده الناس. وقد حُصِّ بسورة الحمد، وبلِواء الحمد، وبالمقام المحمود^(١).

وروى الإمام أحمد [١٧٠٨٥] والطبري [٢٧/٢٨] والحاكم [٦٠٠/٢]: عن العرياض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٢).

وقال أبو أمامة: قلت: يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبُشْرَى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام» [رواه أحمد في المسند (١٧٠٨٦)].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [الأعراف: ٥٧].

وذكرنا ثمة أنه رغم التغيير والتحريف اللذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة الإسلام، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة (٧ - ٩): ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمدا (Himada) لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد.

(١) فتح الباري: ٥٥٥/٦.

(٢) المرجع السابق: ٥٨٣/٦.

قال الدكتور البروفيسور داود بنيامين كلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الآشورية، والذي أسلمَ بعد ذلك، وسمّى نفسه عبد الأحد داود: «لقد قمتُ بترجمة هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية كانت ابنة عمّ لي، والنسخةُ هذه باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنكليزية للكتاب المقدس، والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (حمدا) إلى الأمنية، وكلمة (شالوم) إلى الإسلام»^(١).

ثم بعد استعراض معنى كلمة (حمدا) باللغة العبرية وجد أنّ لها معنى آخر وهو الحمد، فقال: «وأيّاً من المعنيين نختارُ، فإن الحقيقة الناصعة بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العبرية لكلمة (حمدا)، وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريبَ فيه».

ثم قال: «وفي إنجيل يوحنا الذي كُتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليتوس) وهو صيغة وثنية لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي لكلمة (بيراكليتوس) والتي توافق وتطابق اسم (أحمد) في معناه ومغزاه، وفي إشرافه وسموّه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لا بد أن تكون ترجمتها باليونانية (حمدا) أو لعلها (حميدة) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح»^(٢).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلما جاءهم عيسى بالبينات الظاهرة الدالة على صدقه كذبوه وقالوا: هذا سحر مبین.

ثم عقبنا الآيات على إعراضهم وعنادهم بقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يُدعى إلى الإسلام، فيعرض عن الدعوة، ويضع التكذيب موضع الإجابة.

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى الحق لسوء كسبهم واختيارهم.

ظهور الإسلام

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

ثم أظهرت الآيات شدة عداوة اليهود والنصارى لدعوة الإسلام، ومحاولتهم طمس نوره:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بكلامهم، وذلك بطعنهم في الإسلام، وافترائهم عليه.

وما أكثر ما يصدر عنهم من محاولات لتشويه الإسلام، وطمس حقيقته الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لكي يصدّوا الناس عنه، ويتولى كِبَر هذه المحاولات المستشرقون وزعماء التنصير والتكفير، يستخرون لهذه الغاية كل ما لديهم من وسائل الإعلام الموجهة إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والله مظهره ومبلّغه غايته بنشره وإعلانه في الآفاق ولو كره الكافرون ذلك إرغاماً لهم.

وقرئ (متّم) بالتثنية (نوره) بالنصب على المفعولية ل (متّم).

فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة، ثابتاً ظاهراً على كل دين، يضيء الدرب للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرة بحمد الله حتى في عقر دورهم وقلب بلادهم، رغم ضعف المسلمين،

وكيف لا يكون ظاهراً غالباً وهو الدين الحق، الذي دعا إليه إمام النبيين وخاتم المرسلين ﷺ المؤيد بالمعجزة القرآنية الخالدة.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على جميع الأديان، ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مهور بدين الإسلام^(١).

أو ليظهره بالحجج والبراهين، ومنه الظهور بالقتال عندما يتمسك المسلمون به ويلتزمون بأحكام شريعته.

وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد أن يكون أهل الإسلام عالين غاليين، ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان، قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام^(٢)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُكُ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

وذكرنا عند تفسير هذه الآية الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب - وفي رواية: الجزية - ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» [رواه البخاري (٣٤٤٨)].

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ومن يهود ونصارى وغيرهم، فالإسلام دين التوحيد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة].

* * *

(١) تفسير النسفي: ٢٥٤/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٨٦/١٨.

التجارة والجهاد

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذَلُّكُمْ عَلَىٰ بَحْرِنِ نُجَيْجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ ءَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِر لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ وَسَكَاتٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنصَارِي
 إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَتَامَسَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

قدَّر الله تعالى أن يكون ظهور الإسلام وتمكينه في الأرض بتكليف المسلمين بالجهاد، فشرَّعه وأنزل به آيات كثيرة؛ منها:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذَلُّكُمْ عَلَىٰ بَحْرِنِ نُجَيْجِكُمْ مِّنْ عَذَابِ ءَلِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

وفي قراءة: (تنجيبكم) بالتشديد، وإنما سماه تجارة لأنهم يربحون بها رضا الله تعالى، ويفوزون بجنته، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمْ الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

أي: تجمعون بين الإيمان والجهاد. وجيء بلفظ الخبر، والمراد به الأمر للإيدان بأن ذلك ممَّا لا يترك، فالواجبُ الثباتُ و الدوامُ على الإيمان والجهاد.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك يغفر لكم ذنوبكم .

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

أي : ومساكن ظاهرة زكية مستلذذة حسنة بذاتها، ويزيد في حسناتها أنها في جنات الإقامة الدائمة، ذلك الفوز الذي لا فوز وراءه .

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي : ولكم إلى ما ذكر من النعم الآجلة

نعمة أخرى عاجلة محبوبة، نصر من الله على أعدائكم وفتح عاجل، هو فتح مكة، أو كل فتح فتح الله عليهم .

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي : وبشِّر يا رسول الله المؤمنين بهذه البشارة وبالريح في

التجارة .

وبعد أن بشرهم سبحانه وشدَّ من عزائمهم حصَّهم على أن يكونوا أنصارَ

الله في جميع أحوالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ﷺ كما استجاب الحواريون لعيسى عليه السلام :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّا تَطَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عُدُوبِهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ

الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ نحمل رسالته، ونبلِّغ دعوته .

وفي قراءة : (أنصاراً لله) بالتنوين واللام .

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول أيام الحج: «مَنْ رَجُلٌ يُوَوِّينِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي».

حتى قَبِضَ اللهُ ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه، ووازره، وشارطهم أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلمَّا هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَقَّوْا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سَمَّاهم اللهُ ورسوله ﷺ: (الأنصار) وصار ذلك عَلَمًا عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم^(١).

وَسُمُّوا الحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى ﷺ، والمخلصين في محبته وطاعته، وفي الحديث الشريف: عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنْ حَوَارِيَّ الزَّبِيرِ بْنِ الْعَوَامِ» [رواه البخاري (٣٧١٩)].

﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ أي: آمنت طائفة من بني إسرائيل بدعوة عيسى ﷺ، وكفرت طائفة به، فأنكروا رسالته، وبهتوا أمه.

﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: فأظهرنا مؤمنهم على كفارهم.

فانتشرت دعوة عيسى ﷺ، وكان أكثر أتباعه موحدين في القرون الثلاثة الأولى من عهده حتى دخل قسطنطين ملك الروم في النصرانية، فعمل على تحريفها، وعقد لذلك أول مجامعهم المسكونية، وهو مجمع نيقية سنة (٣٢٢م)، الذي قرر ألوهية عيسى ﷺ، ثم تابعت المجامع التي أوصلت النصرانية إلى الشرك والتثليث، نعوذ بالله من ذلك، ونسأله تعالى أن يشتنا على الإسلام دين التوحيد.



تفسير سورة الجمعة حَامِلُو الرِّسَالَةَ فِي سُورَةِ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الفضل الكبير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

بدأ الله تعالى سورة الجمعة بقوله:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (١)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تسيحاً مستمراً متجدداً من غير فتور كما في قوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].
﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقرئت الصفات الأربع بالرفع على المدح، ودلت هذه الصفات على كمال ملكه ﷻ، وأنه الطاهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، والغالب في أمره ومشئته، الحكيم في كل ما يأمر ويشرّع.

اختار هذا الإله العظيم المتصف بهذه الصفات لخاتم رسالاته إلى خلقه وأكملها النبي الأمي ﷺ والأمة الأمية.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ وهم العرب، فقد كانوا عند بعثة النبي ﷺ أمة أمية، أكثرهم لا يكتبون ولا يقرؤون، قال تعالى: ﴿فَإِن حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ لِّهِ وَمَن اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِن أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ» [رواه البخاري (١٩١٣)].

قال ابن حجر: «وقوله: (أمية) بلفظ النسب إلى الأم؛ أراد أمة العرب، لأنها لا تكتب، أو منسوب إلى الأمهات؛ أي: إنهم على أصل ولادة أمهم، وقوله: (لا نكتب ولا نحسب) تفسير لكونهم كذلك، وقيل للعرب: أميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة»^(١).

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ وهو سيدنا محمداً ﷺ منته تعالى العظمى على عباده، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦].
ورحمته للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه استجاب لدعوة النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ﷺ وهما يرفعان قواعد بيت الله الحرام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فبعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد

(١) فتح الباري: ٤/ ١٢٧.

اشتدت الحاجة إليه، وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم الخليل ﷺ، فبدلوه وغيروه واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرّفوها، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشريعة الإسلام الكاملة الشاملة، وجمع الله له جميع المحاسن ممّن كان قبله، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين، ولا يعطيه أحداً من الآخرين.

وتخصيص العرب بالذكر لا ينفي غيرهم، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامة وشاملة، لكن المنّة على العرب أبلغ وأكبر، ومسؤوليتهم عن حمل رسالته أعظم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿يَسْأَلُوا عَلَيْهِمْ عَائِنَهُ وِزْرِكَيْمٍ﴾ أي: يقرأ عليهم ويبلّغهم ما يوحي إليه من آيات القرآن الكريم، ويطهرهم من دنس الشرك وردائل الجاهلية وقبائحها.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم أحكام القرآن الكريم وشريعته، وأحكام السنّة المطهرة المبيّنة والشارحة للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد يكون المراد من الحكمة: الإصابة في الأقوال والأفعال.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وكانوا قبل بعثته عليه الصلاة والسلام لفي ضلال ظاهر، لا ترى ضلالاً أعظم منه.

فقد كانوا في أمس الحاجة إلى رسالته وإرشاده وتعليمه مع أنه عليه الصلاة والسلام كان أمياً، والأميّة من صفات كماله، لأنها دلّت على صدقه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِمْسِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقد نقلهم النبيّ الأميّ من دركات الجهل إلى درجات العلم، وهذا لا شك معجزة من معجزاته، الدالة على صدق رسالته، وصحة نبوته، ورحم الله البوصيري القائل:

كفاك بالعلم في الأميِّ معجزَةً في الجاهلية، والتأديب في اليُثمِ وفي الآية إشارةً إلى عظيم قدرته تعالى، وأن إفاضة العلوم لا تتوقف على الأسباب العادية، فيجوزُ أن يكون الولي أمياً، بشرط أن يعرف ما يلزمه من الأمور الشرعية.

وأضافت الآية تبين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام:

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: ويعلم عليه الصلاة والسلام آخرين لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون، وهم من غير العرب من الأعاجم، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قُلْتُ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يَرِاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثَّرِيَاءِ لَنَالَهُ رِجَالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلَاءِ» [رواه البخاري (٤٨٩٧)].

فالآية تنسحبُ على كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في تمكينه رجلاً أمياً من ذلك الأمر العظيم، والحكيم في اختياره وتعليمه، فالله أعلمُ حيث يجعل رسالته، وأكد تعالى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

على خلقه؛ حيث أرسل إليهم محمداً صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام. هكذا بينت الآيات حَمَلَةَ الرِسَالَةِ الإسلامية الذين شرفهم الله بحملها من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتمسكوا بها، وقاموا بنشرها، وحافظوا عليها، وجاهدوا من أجلها، فضحوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيلها.

المعرضون عن حمل التوراة

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَسُّوا أَلْوَتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمْنُونَ بِأَبَدًا إِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ أَمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلَيْهِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْفِقْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

ثم عَقَّبَت الآياتُ على سبيل المقارنة، فذكرت الذين أَعْرَضُوا عن حمل رسالة الله التي كُفِّلُوا بحملها:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ وهم اليهود الذين كُفِّلُوا بحمل رسالة التوراة والعمل بشريعتها، فلم يحملوها، ولم يعملوا بما فيها.

﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كمثل الحمار يحمل كتباً من العلم ولا ينتفع بها.

والأَسْفَار: جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير، لأنه يُسْفَر عن العلم ويكشفه.

وفي الآية دليل على سوء حال العالم الذي لا يعمل بعلمه.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وهو ذمٌ لليهود الذين لم يعملوا بالتوراة، وكذبوا بما فيها من الآيات الشاهدة بصحة نبوة محمد ﷺ.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الظالمين أنفسهم بتعريضها للعذاب،

والواضعين التكذيب في موضع التصديق، وفي هذا تنبيه من الله لمن حُمِّل الكتاب أن يتعلَّم معانيه، ويعمل بما فيه.

ويزعم اليهود أنهم شعبُ الله المختار، وأنهم أولياؤه من دون الناس، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، فكذبهم، وأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

أي: فتمنوا من الله أن يميتكم إن كنتم صادقين في زعمكم.

﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم، فهو كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة].

﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ﴾ أي: قل: إن الموت الذي تفرون منه ولا تجسرون أن تتمنوه بلسانكم مخافة أن يصيبكم؛ فإنه ملائكم لا محالة، فمهما فررتم منه فهو لاحق بكم ولا تفوتونه.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه.

تكليف وتحذير

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِدَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

ثم عادت الآيات إلى حاملي الرسالة الإسلامية تؤدّبهم ليكونوا أهلاً لحمل الرسالة وحفظ الأمانة:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ أي: إذا نودي لوقت الصلاة من يوم الجمعة.

والجمعة: بضم الميم على المشهور وقد تسكّن، وقرأ بها الأعمش، وهو اليوم الذي خصّ الله به هذه الأمة؛ ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدٍ» [رواه البخاري (٨٧٦)].

وهو أفضل أيام الأسبوع وأولها شرعاً، ففي الحديث الشريف: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة» [رواه مسلم (٨٥٤)].

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة

فقال: «فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلي يسأل الله شيئاً، إلا أعطاه إياه» [رواه مسلم (٨٥٢)].

خاطَبَ اللهُ المؤمنينَ بالجمعةِ دونَ الكافرينَ، تشریفاً لهم وتكريماً، إذ هم حملةُ الرسالةِ، خصَّهم بالنداءِ ليدلَّ على وجوب صلاة الجمعة وتأكيد فرضيتها. ﴿فَأَسْعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: فامضوا إلى ذكر الله، واذهبوا إلى صلاة الجمعة، والمضي والذهاب واحد، وليس المراد به سرعة المشي.

﴿وَذُرُوا الْبَيْعَ﴾ أي: واتركوا البيع وكل ما يشغل عن ذكر الله من شؤون الدنيا. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ذلكم السعي إلى ذكر الله خيرٌ لكم من البيع والشراء إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم، فإن ثواب الآخرة خير وأبقى. واستدلَّ بالآية على فرضية صلاة الجمعة، وثبتت فرضيتها أيضاً بالسنة والإجماع، وأولُّ جمعةٍ صلاها عليه الصلاة والسلام كانت وهو في طريقه من قُباء إلى المدينة، أدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطبَ وصلى الجمعة.

ولا تجبُ الجمعة على مسافرٍ ومريضٍ وامرأةٍ وصبيٍّ، ويسقط عنهم فرضُ الظهر بأدائها.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: فإذا أدت الصلاة، وفرغ منها فانتشروا في الأرض لإقامة مصالحكم.

﴿وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: واطلبوا الرزق من الله، وهو أمر إباحة. هكذا نظم الإسلام حياة المسلمين، فخصص لهم وقتاً معيناً للصلاة، ووقتاً آخر لتأمين مصالحهم الدنيوية، وأوصاهم بالإكثار من ذكر الله في جميع الأوقات: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولهذا عَرَضَتِ الآياتُ بالذين انصرفوا قبل انتهاء صلاة الجمعة لأجل تأمين بعض مصالحتهم الدنيوية بقوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ
وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ وسبب هذا التعريض والعتاب أن أهل المدينة المنورة أصابهم جوع وغلاء شديداً، فوصلت قافلة في أثناء صلاة الجمعة، فقام أكثرهم إليها، ففي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أقبلت غير يوم الجمعة، ونحن مع النبي صلى الله عليه وسلم، فثار الناس إلا اثني عشر رجلاً، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ . [رواه البخاري (٤٨٩٩)].

﴿وتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ أي: وتركوا النبي عليه الصلاة والسلام قائماً على المنبر يخطب.

ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام كان في أول الأمر يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة مثل العيدين، كما روى أبو داود في «كتاب المراسيل» [١٦٢] عن مقاتل بن حيان، ودلت الآية على أن الإمام يخطب خطبة الجمعة قائماً.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: قل: ما عند الله من الثواب خير من اللهو ومن التجارة.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه.



تفسير سورة المنافقون

المُعْرِضُونَ عَنْ حَمْلِ الرِّسَالَةِ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تكذيب المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ
 أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ
 فَاحْذَرَهُمْ فَأَنْهَى اللَّهُ أَنَّ يُوَفِّكَوْنَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ زُرُوسَهُمْ
 وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ
 يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ .

أعلن الله تعالى في أول سورة المنافقون شهادته بأن المنافقين كاذبون فقال :

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ
 الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾﴾ .

فالمنافقون شأنهم الكذب؛ وإن صدقوا في هذا الخبر، وقد كذبهم الله

تعالى، لأن قلوبهم لا تواطىء ألسنتهم.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: وقاية من عقوبة الردة عن الإسلام، فكلما صدر منهم شيء يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين عِصْمَةً لأموالهم ودمائهم، فمن عادتهم الاستنجان بالأيمان الكاذبة، كما استجنوا بالشهادة الكاذبة. واستشهد أبو حنيفة رحمته الله بالآية على أن (أشهد) يمين.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صدُّوا من أراد الدخول في الإسلام أو فعل طاعة، أو أعرضوا عن الإسلام، واستمروا على ما كانوا عليه من الصدود والإعراض. ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من النفاق والكذب والأيمان الفاجرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ وكونهم أسوأ الناس أعمالاً بسبب أنهم نطقوا بكلمة الإيمان، ثم أظهروا ما يدل على كفرهم، أو كفروا سرّاً، ثم أظهروا كفرهم إذا خلوا إلى شياطينهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

﴿فَطَغَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: فحتم على قلوبهم فلا يدخلها الإيمان جزاءً على نفاقهم، فهم لا يعرفون حقيقة الإيمان، ولا يفقهونه، ولا يتدبرون القرآن، هذه هي حقيقتهم القبيحة، فلا تغترّ بمظاهرمهم الحسنة في أجسامهم وكلامهم:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ سُنْدَةٍ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صِخْرَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ أَعْدَاؤُكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ قُلْ لَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ حُشْبٌ مِّنْ سُنْدَةٍ﴾

فهم أجسام بلا أحلام، شبهتهم الآية بالخُشبِ المسندة إلى جدار، ليس في قلوبهم نورٌ ولا خيرٌ، كالخشب اليابس، لا روح فيه ولا رطوبة، أو كالخشب التي نُخر جوفها والتي جمعت بين حُسْنِ المنظر، وقُبْحِ المخبر.

وفي قراءة: (خُشْبٌ) بسكون الشين.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم بسبب جُبْنِهِمْ وسوء دخائلهم ونواياهم، فهم على خوفٍ ووجلٍ أن ينزلَ فيهم أمرٌ يهتكُ أستارهم، ويبيحُ دماءهم.

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ أي: هم الموعولون في العداوة فاحذرهم، ولا تأمنهم على أسراركَ، لأنهم عيون لأعدائك.

﴿فَتَلَّهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ أي: لعنهم الله كيف يُصرفون عن الحق الواضح. وهو دعاءٌ عليهم، أو إخبارٌ بأنه تعالى لعنهم، ومن آثار هذا الدعاء أو اللعنة إعراضهم عن استغفار رسول الله ﷺ واستكبارهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسُهُمْ﴾ أي: أمالوها إعراضاً عن الاستغفار.

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن استغفار رسول الله ﷺ.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ما داموا على النفاق.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الكاملين في الفسق، الخارجين عن دائرة الاستصلاح لسوء استعدادهم، قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ

تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ [التوبة: ٨٠].

وقرئ: (استغفرت) بحذف همزة الاستفهام، و(آستغفرت) بإشباع همزة الاستفهام.

* * *

الأعز والأذل

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا بِاللَّهِ حَرَائِمَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَاللَّهُ الْعَرَّةَ لِرَسُولِهِ. وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

وبين جابر بن عبد الله رضي الله عنه سبب نزول هذه الآيات، فقال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالِ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قُحَيْفَةَ فَقَالَ: «فَعَلَوْهَا؟!» أَمَا وَاللَّهِ لَشُنَّ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عَمْرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعَّهُ؛ لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» [رواه البخاري (٤٩٠٥)].

وَالكَّسَعُ: أَنْ تَضْرِبَ بِيَدِكَ عَلَى شَيْءٍ أَوْ بِرَجْلِكَ، أَوْ أَنْ تَرْمِيهِ بِشَيْءٍ يَسُوءُهُ. وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي بِنْتِ سَلُولٍ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا، وَقَالَ أَيْضًا: لَشُنَّ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي، فَذَكَرَ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنْتِ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا

ما قالوا، فصَدَّقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وكذَّبَنِي، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله، فجلستُ في بيتي، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ إلى قوله: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، فأرسل إليَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقرأها عليَّ، ثم قال: «إن الله قد صدَّقك» [رواه البخاري (٤٩٠١)].

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٧).

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ أي: هم الذين يقولون للأَنْصَارِ: لا تنفقوا عليَّ من عند رسولِ الله حتى ينفقوا عنه.

ومرَّ معنا في سورة الحشر أنَّ الأَنْصَارَ أَحْبَبُوا الْمُهَاجِرِينَ، وآثروهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم، وأنَّ الله أثنى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩).

وردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: والرزق منوطٌ بمشيئته تعالى وقدرته، فهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد أغناهم سبحانه بعد ذلك بما فتح عليهم تحقيقاً لوعده الكريم: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠].

وكانت كنوزٌ كسرى وقيصر من المغنم التي أخذوها.

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لجهلهم بالله تعالى، وهي المرة الثانية في السورة يصفُ تعالى المنافقين بهذه الصفة، التي تدل على شدة جهلهم وغرورهم.

﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨)

﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ أي: لئن رجعنا من غزوة بني المصطلق إلى المدينة ليخرجننا الأعزُّ - يعنون: رأس المنافقين عبد الله بن أبيي - الأذلَّ - يعنون: رسول الله ﷺ - .
وأسندت الآية قول ابن أبي إلى المنافقين لرضاهم به . وردَّ تعالى عليهم بقوله :
﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: والله العزَّة ولمن أعزَّه الله وأيده من رسله ومن المؤمنين لا لغيرهم .

وأفاد إعادة الجار تفاوت ثبوت العزة، فإن ثبوتها لله تعالى ذاتي، وللرسول ﷺ بواسطة الرسالة، وللمؤمنين بواسطة الإيمان .

وجاء من عدة طرق: أن عبد الله بن عبد الله بن أبيي سلَّ سيفه على أبيه عندما أشرفوا على المدينة فقال: والله عليَّ أن لا أغمده حتى تقول: محمَّدُ الأعزُّ وأنا الأذلُّ . فلم يبرح حتى قال ذلك^(١) .

﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فرط جهلهم وغرورهم .

* * *

الاشتغال بالأموال والأولاد

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلهِكُمْ ءَمُولَكُمْ وَلَا ءَوْلَادَكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِكُمْ ءَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَحَدٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَجِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

ومن المعلوم أنَّ الاشتغال بالأموال والأولاد يفتن الإنسان عن دينه، وقد يحمله على الخيانة والنفاق كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحَوِّنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَحَوِّنُوا ءَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ ءَمُولَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال].

فحدّثت الآيات المؤمنين من ذلك بقوله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلهِكُمْ ءَمُولَكُمْ وَلَا ءَوْلَادَكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلهِكُمْ ءَمُولَكُمْ وَلَا ءَوْلَادَكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا يشغلکم الاهتمام بالأموال والأولاد عن الاشتغال بذكر الله ﷻ وطاعته.

فذكره تعالى مجازاً عن مطلق العبادة، لأنها سببٌ لذكره وهو المقصود منها؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي تعريف الخسران بالإشارة، وتوسط ضمير الفصل (هم) ما لا يخفى من المبالغة.

ثم أمر سبحانه المؤمنين بالإنفاق، ورغبهم فيه في مقابل ما مرّ من نهى المنافقين المؤمنين عن الإنفاق على من عند رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أماراته وسكراته .
 ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي:
 هلاً أمهلتي إلى أمد قصير فأصدق وأكن من الصالحين .

ونصب (فأصدق) في جواب التمني، والجزم في (وأكن) بالعطف على موضع (فأصدق) كأنه قال: إن أخرتني أصدق وأكن؛ وفي قراءة: (وأكون) بالنصب .
 فكل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة، ليستدرك ما فاته، وهيهات؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أُولَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤] .

وقال أيضاً: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون] .
 وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ صَاحِحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمَلُ الْغَنَى، وَلَا تَمَهِّلُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقَوْمَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ» [رواه البخاري (١٤١٩)] .

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ فلا يؤخر الله أحداً بعد حلول أجله .
 ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم عليه .
 ودلت الآية على وجوب إخراج الزكاة على الفور، وتحريم تأخيرها .



تفسير سورة التغابن الْحَاسِرُونَ فِي سُورَةِ التَّغَابِنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
توبيخ الكافرين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ صَبِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْحَقِّ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَوَافِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَدَاثُوا بِأَلْسِنِهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعَى
اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ .

أخبر الله تعالى في أول سورة التغابن أن جميع المخلوقات تنزهه عما لا يليق بكماله تنزيهاً مستمراً متجدداً فقال:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ .

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

ثم قرر اختصاص الملك والحمد به ﷻ فقال:

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ فهو المتصرفُ في ملكه كيف يشاءُ تصرف اختصاص، لا شريك له.
﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ لأن أصول النعم وفروعها كلها منه.

فكلا الأمرين - الملك والحمد - لله تعالى وحده في الحقيقة، ولغيره بحسب الظاهر والصورة، كما أن له الكمال المطلق.

﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفعل ما يشاء كما يشاء بلا مانع ولا مدافع، والدليل على ذلك:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٦).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فمنكم آتٍ بالكفر وفاعل له، ومنكم آتٍ بالإيمان وفاعل له. وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان، شاكرين الله على نعمة الخلق والإيجاد وسائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمكنكم منه، بل تشعبتم شعباً، وتفرقتم فرقاً.
فالآية توبُّخ الكافرين، ولهذا بادرت إلى تقديم الكفر، لأنه الأغلب والأنسب بمقام التوبيخ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، فإنه سبحانه ما خلقكم عبثاً ولا باطلاً.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٣).

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالحكم البالغة ليعمرها المكلفون بطاعته سبحانه وعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: وصوركم في أرحام أمهاتكم فأتقن وأحكم صوركم.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإليه مرجعكم يوم القيامة لا إلى غيره.
فأقبلوا على عبادته، وتزيين سرائركم بذكره، فإنه سبحانه:

﴿بِعَلْمِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ .

لا يخفى عليه شيء، فحَقُّهُ أَنْ يُتَّقَى وَيُحْذَرَ، فَلَا يَجْتَرِي أَحَدٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، فَإِنَّ تَكَرُّرَ تَذْكِيرِ الْإِنْسَانِ بِكَمَالِ عِلْمِهِ تَعَالَى فِي مَعْنَى تَكَرُّرِ الْوَعِيدِ، وَهُوَ مَا صَرَّحَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَدَابُ آيِمٍ ﴿٥﴾﴾ .

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ .

﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أَي: فَذَاقُوا وَبَالَ كُفْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا .

وَأَصْلُ الْوَبَالِ: الثَّقَلُ، وَمِنْهُ: الْوَيْبِلُ: لَطْعَامٌ يَثْقَلُ عَلَى الْمَعْدَةِ، وَالْوَابِلُ: لِلْمَطَرِ الثَّقِيلِ، وَاسْتَعْمَلَ لِلضَّرْرِ وَالْعَذَابِ؛ لِأَنَّهُ يَثْقَلُ عَلَى الْإِنْسَانِ .
وَعَبَّرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِالْأَمْرِ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُ أَمْرٌ هَائِلٌ وَجَنَائِيَةٌ عَظِيمَةٌ .
﴿وَهُمْ عَدَابُ آيِمٍ﴾ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا أَكْفَرُ يَهُدُونَنَا فَكُفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي

حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَي: وَسَبَبُ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَمَا سَيَذُوقُونَهُ فِي الْآخِرَةِ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْمَعْجَزَاتِ الظَّاهِرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رِسَالَتِهِمْ وَبِالْبُرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ .

﴿فَعَالُوا أَكْفَرُ يَهُدُونَنَا﴾ أَي: فَعَالُوا مُنْكَرِينَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ أَوْ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْبَشَرُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ .

﴿فَكُفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ أَي: فَكُفَرُوا بِالرُّسُلِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ التَّفَكِيرِ بِالْبَيِّنَاتِ .

﴿وَأَسْتَعَىٰ اللَّهَ﴾ أي: وأظهر الله غناه عن طاعتهم وعبادتهم، فأهلكهم واستأصلهم، ولولا غناه سبحانه عنهم ما فعل بهم ذلك.
 ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ والله غني عن إيمانهم وطاعتهم مستحق للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

* * *

الزعم الباطل

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُرْءِيذَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا اللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ حَيْرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْحَمْحَمِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ حَتَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

ومن مزاعمهم الباطلة المصادمة لحكمة خلقهم: إنكارهم البعث بعد الموت:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ والزعم: ادعاء العلم، وهو مطية الكذب، فهو زعم باطل بادرت الآيات إلى رده.

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ فما تنكرونه كائن لا محالة، ولهذا أكده بالقسم وأمر الرسول ﷺ به كما في قوله سبحانه: ﴿وَسَنُنَبِّئُكَ أَهْوَقُ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

ثم أضاف الآية بيان تحقق أمر آخر متفرع عن البعث:

﴿مَنْ لَنْبَوْنَ يَمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: ثم لتُحَاسِبُنَّ وَتُجْزَوْنَ بأعمالكم، وذلك يسيرٌ على الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَاتَمُوا بِاللَّهِ رِئَاسَةً وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ ﴿٨﴾

﴿فَاتَمُوا بِاللَّهِ رِئَاسَةً وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وهو القرآن الكريم، فإنه بإعجازه بين نفسه، مبينٌ لغيره، والالتفاتُ إلى نونِ العظمة لإبراز العناية لأمر الإنزال تعظيماً لشأن القرآن الكريم.

﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فراقبوه وخافوه فإنه سائلكم ومحاسبكم يوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٩﴾

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ يجمع الله فيه الأولين والآخرين، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة].

﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ وسُمي يوم القيامة بيوم التغابن لأنَّ أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار، على طريق المبادلة، فوقع العُبنُ لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب.

ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يدخلُ أحد الجنة إلا أرى مقعده من النَّارِ لو أساء، ليزدادَ شكراً، ولا يدخلُ النارَ أحدٌ إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن، ليكونَ عليه حسرة» [رواه البخاري (٦٥٦٩)].

ويظهر يومئذ أيضاً غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان، فأهل الجنة بايعوا على الإسلام بالجنة فربحوا، وأهل النار امتنعوا عن الإسلام فخسروا، فشبهاوا بالمتبايعين يغبن أحدهما الآخر في بيعه، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَحِمَتْ جُنُوبَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

ثم أظهرت الآيات تحقق معنى التغابن في يوم القيامة بوصف مصير السعداء والأشقياء:

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز وراءه، وفي قراءة: (نكفر، نغفر) بالنون.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

فهم الخاسرون الخسارة التي لا عوض لها.

التسليم لقضاء الله

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فِئْتَوَكُلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ بِتَأْيِثِ اللَّهِ لَدَيْكُمْ ءَامَنُوا بِرَبِّكُمْ وَأُولَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَخْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

والحياة في الدنيا للاختبار والابتلاء، فلا تخلو من رزايا ومصائب، وعلى المؤمن أن يرضى بها، ويُسلم لله تعالى، فلا يسخط ويعترض:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: إلا بعلم الله وإرادته وقضائه.
 ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ بالرضا والصبر والتسليم لقضائه، وقرئ: (يهداً قلبه) بالرفع، و(يهداً) أي: يسكن ويطمئن.

فالإيمان يجعل أمر المؤمن في كل أحواله إلى خير، كما في الحديث الشريف: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].
 ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم إيمان المؤمن ويثبت ويهدي قلبه عند المصيبة. ولا ينبغي للمصيبة أن تشغلكم عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (١٦)

فَمِنَ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التسليم والرضا بقضاء الله وقدره.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فِئْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١٣)

وعلينا أيضاً التوكل على الله وحده، فلا معبود ولا مقصود إلا هو، فلنعتصم به ونتمسك بحبله.

وقد يُبتلى الإنسان بأحِبِّ الناس إليه وأقربهم منه، فعليه في مثل هذه الحالة أن يتمسك بدينه، ويلتزم بأحكامه، مع شيء من المساهلة والمسامحة، فإن تربية الأزواج والأولاد تقتضي ذلك بشرط سلامة الدين، فلا محل للقسوة والغلظة في التعامل مع الأقارب والأحباب:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤)

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ أي: إن

بعضهم كذلك، فاحذروهم على دينكم، فسلامة الدين هي من أهم المهمات وأعظم الواجبات.

﴿وَأَنِ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم، ويتفضل عليكم بالمغفرة والرحمة.

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: إنما أموالكم وأولادكم بلائٌ واختبارٌ وشغلٌ عن طاعة الله تعالى، فلا تباشروا من أجلهم المعاصي، ولا تؤثرهم على ما عند الله من الثواب الجزيل والعظيم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: ابذلوا في تقواه جهدكم ووسعكم، واسمعوا مواظمه وزواجه، وأطيعوا أمره.
﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: أنفقوا في الوجوه التي أمركم بها، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع.

﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالفلاح والنجاح.

﴿إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

يقبل القليل، ويعطي الجزيل، ولا يعجل بالعقوبة.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لا يخفى عليه شيء، الغالب على أمره، الحكيم في شرعه وفعله ﷻ.



تفسير سورة الطلاق

التَّقْوَى وَالتَّيْسِيرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الطلاق للعدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ .

افتتح الله سبحانه سورة الطلاق منادياً النبي ﷺ بقوله :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾ .

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي : إذا أردتم أن تطلقوا النساء

فطلقوهن لوقت عدتهن ؛ أي : في الزمان الذي يصلح لعدتهن .

أو : مستقبلاتٍ عدتهن ، فعدة المطلقة تبدأ بعد الطلاق مباشرة .

وتخصيص النبي ﷺ بالخطاب وتعميم الحكم تكريماً له، وإظهاراً لجلالة منصبه، وعلو مرتبته، فهو إمام أمته، والمتكلم عنهم، فاختر لفظ النبي وقيل له كما يقال لكبير القوم: يا فلان افعلوا كَيْت وكَيْت.

ولعلَّ صرف الكلام عنه إلى أمته لما في الطلاق من الكراهة، فلم يخاطب به تعظيماً له ﷺ، ففي سنن أبي داود [٢١٧٨] وابن ماجه [٢٠١٨]: أن رسول الله ﷺ قال: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» لأنه يؤدي إلى قطع صلة الزوجية فأبيح للحاجة، فالمراد التنفير عنه.

والطلاق للعدة أن يطلقها في طهرٍ لم يجامعها فيه، فتعد بذلك الطهر، ولا يطول عليها زمانُ العدة، ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى قسمين: طلاق سنة، وطلاق بدعة.

فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرةً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها. وطلاق البدعة: أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهرٍ قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا. والمراد بالبدعة هنا الحرمة لما فيه من المعصية.

ففي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ، فسأل عمرُ رسولَ الله ﷺ عن ذلك فقال: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعد، وإن شاء طلق قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء» [رواه البخاري (٥٢٥١)].

وتجب مراجعتها رفعا للمعصية، وهي تطويلُ العدة.

فمن طلق امرأته في طهر لم يجامع فيه وقع طلاقه، وأصاب السنة، وإن طلقها حائضاً أو في طهر جامعها فيه وقع طلاقه، وأخطأ السنة، فالحرمة في الطلاق البدعي لا تمنع وقوعه، ولهذا أمر النبي ﷺ ابن عمرَ بمراجعة زوجته فلو لم يقع الطلاق لم يأمره بالرجعة، وما كان منه من التطلق في الحيض سبب نزول هذه الآية.

قال النووي: شدَّ بعضُ أهل الظاهر فقال: إذا طَلَّقَ الحائِضَ لم يقع الطلاقُ، لأنه غيرُ مأذونٍ فيه، فأشبهه طلاق الأجنبيَّة، وحكاه الخطابيُّ عن الخوارج والروافض.

وكأنَّ النوويَّ أرادَ ببعض الظاهرية ابنَ حزم، فإنه ممن جوَّد القولَ بذلك، وانتصرَ له وبالغ، ووافقه على ذلك من المتأخرين ابن تيمية^(١).

ويلتحقُ بالطلاق البدعي الثلاث دفعة واحدة وتقع به الثلاث.

﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: واضبطوا العدة، وأكملوها ثلاثة قروء، لقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولِهِنَّ أَحَقُّ بِرِيحِهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وأصل معنى الإحصاء العدُّ بالحصى، ثم صار حقيقة فيما ذكر.

ويبدو أن الخطابَ في الآية للأزواج، ويلتحقُ بهم الزوجات، ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أي: لا تعصوا ربكم في تطويل العدة عليهن، والإضرار بهن، وفي وصفه تعالى بالربوبية تأكيدٌ للأمر ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي: من مساكنهنَّ ما دُمْنَ في العدة، فليس للزوج أن يخرجها من مسكن الزوجية ما دامت في العدة، والرجعية والمبتوتة في هذا سواء، فإضافة البيوت إليهنَّ إضافة إسكانٍ لا تملك.

﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ أي: ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن، فبقاؤهن في البيوت حق للشرع، فإن خرجت لغير ضرورة أثمت، ويجوزُ لها الخروج نهاراً لحاجاتها الضرورية.

ففي الحديث: عن جابر رضي الله عنه قال: طَلَّقْتُ خالتي، فأرادتُ أن تجدَّ نخلها،

(١) انظر: فتح الباري: ٣٥٢/٩.

فزجرها رجل أن تخرج، فأنت النبي ﷺ فقال: «بلى فجددي نخلك، فإنك عسى أن تصدّقي أو تفعلي معروفاً» [رواه مسلم (١٤٨٣)].

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ أي: ظاهرة، وهي نفس الخروج قبل انقضاء العدة، أو الزنى، أو البذاء على الأحماء والزوج، فالمعنى: لا تخرجوهن إلا إذا طالت ألسنتهنّ، وتكلمن بالكلام الفاحش القبيح، وفي قراءة: (مبينّة) بالفتح. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: وتلك الأحكام حدودُ الله التي شرعها سبحانه لعباده، فالتزموا بها.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ أي: أضرب بها.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أي: لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد الذي فعلت من التعدي أمراً يقتضي خلاف ما فعلت، فيبدل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها، ويمكنك تلافيه بالمراجعة أو تجديد عقد النكاح.

فالخطابُ للمتعدي بطريق الالتفاتِ لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدي، لا للنبي ﷺ، فمن يتعدّد حدود الله فقد عرّض نفسه للضرر، فإنك لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر.

* * *

التقوى في معاملة المطلقات

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْفُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبِيسُنَ مِنَ الْمَجِيضِ مَن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضُ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَن أَمْرِهِ بَسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيْقِهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِن أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَ رِمٌّ فَسُخِّرْهُ لَكُمْ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾

﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإذا شارفن آخر عدتهن فراجعوهن بحسن معاشرة، أو فارقوهن بإيفاء الحق وتجنب المضارح مثل أن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً للعدة.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: وأشهدوا عند الرجعة أو الفرقة قطعاً للنزاع.

وهو أمر ندي، والمراجعة تكون بالقول أو الفعل، كأن يجمعها أو يقبلها أو يباشرها بشهوة.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي: وأقيموا الشهادة أيها الشهود طلباً لمرضاة الله،
اشهدوا بالحق، وأدوها على الصحة.

﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ذلكم الذي ذكرت من
الأحكام ينتفع بها المؤمن بالله واليوم الآخر، فأما غير المؤمن فلا ينتفع بها.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أي: ومن يتق الله في فعل ما أمره به، وترك
ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً من الغم والضيق الذي يقع فيه، ويفرج
عنه ما يعتره من الكرب في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ
لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: ويرزقه من وجه لا يخطرُ بباله ولا يتوقعه،
وهو اعتراضٌ جيء به على نهج الاستطراد تأكيداً لما سبق.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: ومن فوّض أمره إلى الله كفاه ما أهمه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: إن الله يبلغ ما يريد، فهو فعّال لما يريد، لا يفوته
مراد، ولا يعجزه مطلوب، وفي قراءة: (بالغ أمره) بالنصب.

﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديراً وتوقيتاً.

وهذا يؤكد وجوب التوكل على الله، وتفويض الأمر إليه، لأنه إذا علم أن
كل شيء من الرزق ونحوه لا يكون إلا بتقدير الله وتوفيقه لم يبق إلا التسليم
للقدر، والتوكل على الله، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، كما جاء في الحديث
الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: «يا غلام
إنني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تحمّده تجاهك، إذا سألت
فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن
ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن

بضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه أحمد (٢٩٣/١) والترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح].

ومن الأمور التي بين الله تعالى مقاديرها مقدار العدة:

﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾

﴿وَالَّتِي يَسِّنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ أي: والنساء اللواتي وصلن إلى سن اليأس وانقطع الحيض إن شككتم في عدتهن، وجهلتم مقدارها، فعدتهن ثلاثة أشهر، وتكون الرية بسبب استمرار الدم.

﴿وَالَّتِي لَمْ يَحِضْ﴾ أي: والصغيرات اللاتي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾ أي: وتنتهي عدة الحوامل بوضع الحمل والولادة، ولا فرق في ذلك بين المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن، لما في الحديث الشريف: عن أبي سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده فقال: أفيتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت أنا: ﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾ قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي، يعني أبا سلمة، فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها فقالت: قُتِلَ زَوْجٌ سُبُعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حُبْلَى، فَوَضَعَتْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَحُطِبَتْ، فَأَنْكَحَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ أَبُو السَّنَابِلِ فِي مَنْ خَطَبَهَا. [رواه البخاري (٤٩٠٩)].

فالآية هنا تخصص عموم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ أي: ومن يتق الله فيلتزم أحكام دينه يسهل أمره عليه في الدنيا والآخرة ويوفقه للخير.

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ أي : ذلك حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ .

﴿وَمَنْ يَنْقُ اللَّهُ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات .

﴿وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾ بمضاعفته . وقرئ: (نُعْظِم) بالنون التفتاتاً من الغيبة إلى التكلم .

ولما حثَّ سبحانه على التزام التقوى في سياق معاملة المُعْتَدَاتِ بَيْنَ كَيْفِيَةِ الْعَمَلِ بِالتَّقْوَى فِي شَأْنِهِنَّ فَقَالَ :

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَسَرِّضْ لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾﴾ .

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ أي : أسكنوهن مسكناً من بعض مكان سُكْنَانِكُمْ مِنْ وَسْعِكُمْ وَمِمَّا تَطْبِقُونَهُ .

﴿وَلَا تُضَارَّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ أي : ولا تضاروهنَّ في السكنى لتضييقوا عليهن ، وتلجئوهن إلى الخروج .

﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾ أي : وإن كان المطلقات أولات حملٍ فعليكم أن تنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، ويخرجن من العدة .

فلا خلاف في وجوب سُكْنَى الْمَطْلُوقَاتِ أُولَاتِ الْحَمْلِ وَنَفَقَتِهِنَّ ، وَاخْتُلَفَ فِي الْمَطْلُوقَاتِ اللَّاتِي لَسْنَ أُولَاتِ حَمَلٍ ، وَقَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ : لِهِنَّ السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ ، لِأَنَّهُمَا جَزَاءُ الْإِحْتِبَاسِ ، وَهُوَ مُشْتَرِكٌ بَيْنَ الْحَامِلِ وَالْحَائِلِ .

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي : فإن أرضعن لكم بعد أن يضعن حملهنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ عَلَى الْإِرْضَاعِ .

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي : وتشااوروا بينكم بمعروف جميل في الأجرة والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ، ولا من الأمِّ معاورة .

﴿وَإِنْ تَعَسَّرَ مِنْ فِئْتِهِمْ فُسْئَرُهُمْ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ أي: وإن ضيق بعضكم على الآخر بتقليل الأجرة أو طلب الزيادة، فليطلب له الأب مرضعة أخرى.

وفيه معاتبَةٌ للأب، لأنه كقولك لمن تستفضيه حاجةً فتتعدر منه: سيقضيها غيرك، لأنَّ المبدول من جهتها هو لبنها لولدها، وقال بعضهم: إنَّ الكلام لا يخلو عن معاتبَةِ الأب أيضاً، لأنَّه إذا ضيقَّ على الأم في الأجر فامتنت من الإرضاع لذلك، فلا بدَّ من إرضاع امرأةٍ أخرى، وهي أيضاً تطلب الأجر في الأغلب، والأم أشفق، فهي به أولى، وهذا إذا قبل الرضيع ثدي أخرى، أما إذا لم يقبل إلا ثدي أمه فتجبر على الإرضاع بأجرة مثلها^(١).

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: لينفق الزوج على زوجته وولده الصغير على قدر ما تتسع له قدرته.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: ومن ضيقَّ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله وإن كان قليلاً.

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ جلَّ أو قلَّ؛ فإنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها. ففيه تطييبٌ لقلب المعسر، وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكدته تعالى بالوعد بالتيسير فقال:

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ إن اتقى الله كما سبق في السورة:

- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

- ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ودلت الآية على أن النفقة تقدّر بقدر حال المنفق، فإن كان موسراً فعليه نفقة الموسرين من غير إسرافٍ، وإن كان مُعسراً فعليه نفقة المعسرين بقدر وسعته.

* * *

حساب وعذاب

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُئِيسِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ لِتُعَامَوا أَنَّهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾

ثم توعدت الآيات المخالفين لهذه الأحكام بأسلوب غير مباشر:

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُئِيسِهِ فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨﴾﴾

﴿وَكَايَ مِنْ قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُئِيسِهِ﴾ أي: وكثير من أهل قرية أعرضت عن أمر ربها ورسله إعراض العاتي المعاند.

﴿فَحَاسِبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالتدقيق والاستقصاء لكل ذنوبهم.

﴿وَعَذَبْنَهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي: منكرًا فظيماً.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: عقوبة كفرها ومعاصيها.

﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي: خساراً وهلاكاً.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهو عذاب معدٌ منتظرٌ لا نجاة لكم منه إلا بتقوى الله .
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي : فاتقوا الله يا ذوي العقول الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم القرآن الذي يذكركم بالله وأحكام دينه وشريعته .

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُمِيزَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ .

﴿رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُمِيزَاتٍ﴾ أي : وأرسل إليكم رسولا يقرأ عليكم ويبلغكم آيات الله المييزات للحلال والأمر والنهي .

﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي : ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، فبادروا إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح .

﴿وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وفي قراءة : (ندخله) بالنون، وفي هذه الجنات ما فيها من الرزق الحسن العظيم المعجب .

﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ فهو رزق من الله حسنه وأكرمه لأهل الجنة .

ثم ختم سبحانه السورة ببيان كمال قدرته وعلمه تذكيراً للمكلفين بأنه سبحانه يراقبهم ويعلم أحوالهم وأقوالهم :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي : في العدد أو في التركيب والخصائص ، فلم تذكر الأرض في القرآن إلا موحدة .

أو سبع أرضين منبسطة تفرق بينها البحار. ولعل في الأجرام الكثيرة السابحة في الفضاء أجراماً مثل الأرض في بعض خصائصها وتركيبها.

﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمر الله تعالى وقضائه وقدره بينهن.

﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: أخبرتكم بذلك لتعلموا كمال قدرته تعالى وعلمه.



تفسير سورة التحريم أزواج الأنبياء في سورة التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قصة تحريم العسل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَصَّ اللَّهُ لَكُمْ نَجَلَةَ آيَمِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى نَعِصِ أَزْوَاجِهِمْ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة التحريم بعتاب لطيف للنبي ﷺ فقال:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾﴾

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ أي: من العسل.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكنُ عندها، فواطأتُ أنا وحفصةُ عن أيتنا دخلَ عليها فلتقلُ له: أكلتُ مغافيرَ؟ إنِّي أجِدُ منك رِيحَ مغافير، قال: «لا، ولكنني كنتُ أشربُ عسلاً

عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً» [رواه البخاري (٤٩١٢) ومسلم (١٤٧٤)].

والمغافير: نباتٌ رائحته كريهة، وكان ﷺ يحبُّ الحَلْوَاءَ والطَّيْبَ، ويكره الرائحة الكريهة.

وأخرج النسائي في الكبرى [٨٨٥٧] والحاكم [٤٩٣/٢] وصححه، وابن مردويه: عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كانت له امرأة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراماً، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحْرَمُ...﴾.

لكن النووي قال في «شرح مسلم»: الصحيح أن الآية نزلت في قصة العسل، لا في قصة مارية المروية في غير «الصحيحين»، ولم تأت قصة مارية في طريق صحيح^(١).

﴿تَبَلَّغِي مَرَّاتٍ أَرْوَجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: تطلب رضاها بترك ما أحلَّ الله لك وقد غفر لك ذلك.

ففي الآية تعظيمُ شأنه عليه الصلاة والسلام بأن ترك الأولى بالنسبة لمقامه السامي الكريم يعدُّ كالذنب، وإن لم يكن في نفسه كذلك، وأن عتابه ليس إلا لمزيد الاعتناء به.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: قد شرع الله لكم تحليل الأيمان وحلَّ ما عقَّدته بالكفارة.

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أي: والله متولي أموركم، وهو العليم بما يصلحكم، الحكيم في جميع أفعاله وأحكامه.

واحتجَّ بالآية من يرى أن تحريم الحلال يكون يميناً، فإذا حرَّم طعاماً فقد

(١) روح المعاني: ١٤٦/٢٨.

حلفَ على عدم أكله، فإذا حنث فيه وأكل الطعام فعليه كفارةٌ يمينٍ. ومن قال لامرأته: أنت عليّ حرامٌ؛ يقع طلاقاً بائناً لتعارفِ الناس على ذلك، وإن نوى غير ذلك ينصرفُ إلى ما نوى، ويكونُ يميناً.

ثم بيّنت الآيات كيف كان رسول الله ﷺ يعامل أزواجه أمهات المؤمنين عندما تقع الغيرة والمنافسة بينهما، ففي حادثة تحريم العسل أسرَّ النبي ﷺ إلى إحدى أمهات المؤمنين حديثاً، وهو امتناعه عن شرب العسل عند السيدة زينب، واستكتمها ذلك، وأوصاها ألا تخبر به أحداً، وأضافت بعض الروايات أنه أخبرها بخلافة أبي بكر وعمر بعده، ولكنها بدافع الغيرة والسرور أخبرته به:

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ وهي السيدة حفصة رضي الله عنها.

﴿فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ﴾ أي: أخبرته به السيدة عائشة رضي الله عنها.

﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: وأطلعه الله تعالى على إفشائه.

﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي: أعلم حفصةً ببعض ما كان منها وأعرض

عن بعضٍ تكرماً وتسامحاً.

وقرى: (عَرَفَ) بالتخفيف بمعنى جازى عليه، تقول للمسيء: لأعرفن لك

ذلك.

﴿فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَبِيرُ﴾ أي: نبأني العليم

بالسرائر، الخبير بالضمائر، وإنما قالت ذلك ظناً أن عائشة أخبرته.

* * *

عتاب وتأديب

﴿إِنْ نُؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَرْوَاجًا خَيْرًا مِّمَّا مَسَّيْتَ مُؤْمِنَاتٍ فَمُنِّتٍ تَمْتَلِكِ أَيْدِيًا سَجَدٍ تُنَبِّتِ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَعْمَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُحْرَمُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ .

ثم التفتت الآيات تخاطبُ السيدتين حفصة وعائشة رضي الله عنهما خطاب العتاب والتأديب :

﴿إِنْ نُؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿إِنْ نُؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: إن تتوبا إلى الله فهو الواجب عليكما، فقد وجد منكما ما يوجبُ التوبة، وهو ميل قلوبكما عن الحق، فقد سرهما ما كره رسول الله ﷺ وهو الامتناع عن شرب العسل .

ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبه له حتى خرج حاجباً، فخرجت معه، فلما رجعت، وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، فوقف له حتى فرغ، ثم سررت معه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة . [رواه البخاري (٤٩١٣)].

﴿وَإِنْ تَطَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإن تعاوننا على إيذاء النبي ﷺ بسبب الإفراط بالغيرة فإن الله وليه وناصره، وجبريل وليه أيضاً وناصره، وكل من صلح من المؤمنين .

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي: والملائكة بعد نصر الله وجبريل وصالح المؤمنين أعوان للنبي ﷺ.

فما أعظم هذا النبي! وما أكرمه على الله تعالى! فمكانته عليه الصلاة والسلام رفيعة عالية في الملائكة الأعلى وبين المؤمنين في الأرض.

وأفردت الآية جبريل بالذكر تعظيماً له، وتنبهاً على علو منزلته ومكانته.

وفي قراءة: (تظاهرا) بتشديد الظاء، وأصلها: تظاهرا، فأدغمت التاء بالظاء.

وعن أنس رضي الله عنه: قال عمر رضي الله عنه: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه، فقلت لهن: عسى ربّه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية. [رواه البخاري (٤٩١٦)].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُٗٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ مَسَلَمْتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَانَلَّتِ تَبَيَّنَتِ عَيْدَاتٍ سَيَّحَنَتِ تَبَيَّنَتِ وَأَبْكَارًا﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّهُٗٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ﴾ أي: واجب من الله إن طلقكن رسول الله ﷺ أن يزوجه خيراً منكن، وهذا الواجب أوجه سبحانه على نفسه تفضلاً كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيراً منهن، ولم يكن على وجه الأرض نساءً خيراً من أمهات المؤمنين؟

قلت: إذا طلقهن رسول الله ﷺ لإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهن^(١).

وفي قراءة (يبدله) بالتشديد.

ثم بينت الآيات أوصافهن:

﴿مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنَاطٍ﴾ أي: مطيعات ومواظبات على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

﴿تَبَيَّنَتِ عَيْدَاتٍ سَدَّحَاتٍ﴾ أي: صائمات أو مهاجرات.

﴿تُبَيَّنَتِ﴾ جمع تَبَيَّنَ، وهي التي تزوجت وبانت من زوجها.

﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: عذارى، جمع بكر، ووسط حرف العطف بين الشيبات والأبكار دون سائر الصفات لأنهما صفتان متنافيتان بخلاف سائر الصفات.

أخبر الله في الآية عن قدرته فقط، لا عن الوقوع والحدوث، لأنه قال: ﴿إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ وقد علم سبحانه أنه لا يطلقهن، فهو تخويفٌ لأمهات المؤمنين، وتأديب لهن يدل على رفعة مكانتهن، فالله سبحانه تولى تأديبهن، بينما أمر المؤمنين بتأديب أزواجهن، فقال:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٦﴾

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ أي: احفظوا أنفسكم وأزواجكم من النار بالتأديب، وأمرهم بالخير، ونهيمهم عن الشر.

فالرجل مسؤول عن نفسه وعن أهل بيته، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث الشريف: أنه ﷺ قال: «كلُّكم راع، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته، والأميرُ راع، والرجلُ راعٍ على أهل بيته، والمرأةُ راعيةٌ على بيت زوجها وولده، فكلُّكم راع، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته» [رواه البخاري (٥٢٠٠)].
فعلى الرجل أن يحمل نفسه وأهل بيته على طاعة الله تعالى.

﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي: تتقد نار جهنم بهما كما يتقد غيرها بالحطب.

﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: على

النار ملائكة موكلون عليها، يعذبون أهلها، غلاظ الأقوال والأجسام، شداد

الأفعالِ أقوياء، لا يعصون أمره تعالى، ويفعلون ما يأمرهم به، فهم يبادرون إلى طاعة الله، ولا يتشاقلون عن تنفيذ أمره.

ثم أشعرت الآيات المؤمنين بمسؤوليتهم عن أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، فعظمت شأن هذا اليوم، فهو يومٌ لا عذرَ فيه لأحدٍ، ولهذا يقال فيه للكافرين:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

في الدنيا من الكفر والمعاصي.

* * *

التوبة النصوح

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنَّا وَأَعْمِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِدَدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِحِبِّي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِيهِ وَبِحِبِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ رَحْمَتُهَا فَنفَخَهَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

ثم أمرتهم بالتوبة النصوح:

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا تُوبُوْا اِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزٰى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعٰى بِيۤانٍ اَيْدِيَهُمْ وِبَآيْمٰنِهِمْ يَقُوْلُوْنَ رَبَّنَا اٰتِنَا لَنَا نُورًا وَاغْفِرْ لَنَا اِنَّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿٨﴾ .

﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا تُوبُوْا اِلَى اللّٰهِ تَوْبَةً نَّصُوْحًا﴾ أي: توبة بالغة في النصح، تصلح ما أحدثته المعصية من خلل في الدين، مأخوذة من النصيحة وهي الخياطة.
 أو: توبة خالصة، من قولهم: عسلٌ ناصحٌ؛ إذا خلص من الشمع.
 أو: تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب.
 قال العلماء: التوبة واجبةٌ من كلِّ ذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرةً أو كبيرةً^(١).

ولا بدّ أن تستجمع التوبة ثلاثة أمورٍ: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على ألا يعود إلى مثلها أبداً، وإن كانت تتعلق بحق آدمي لزم ردُّ الحق إلى صاحبه أو طلب البراءة منه.

وبعد أن أوجب الله تعالى على المؤمنين التوبة أطمعهم في قبولها تفضلاً وتكرماً بقوله:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجْرٰى مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزٰى اللّٰهُ النَّبِيَّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مَعَهُۥ﴾ والمراد بالنبي سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم، والمراد بنفي الإخزاء: إثبات أنواع الكرامة والعز.

والخزي: الفضيحة، يقال: أخزى الله فلاناً: فضحه، أو الانكسار والذلة يقال: خزي الرجل؛ لحقه إنكسار إما من نفسه حياءً، وإما من غيره أو منهما جميعاً^(٢).

وعطف الآية للمؤمنين على النبي ﷺ فيه تشريفٌ كبيرٌ لهم، وتعريض بمن أخزاهم من أهل الكفر والفسوق.

(١) تفسير الخازن: ٦/٣٠٥.

(٢) روح المعاني: ٢٨/١٦١.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمِنُ بِهِمْ﴾ وهو كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: يقولون ذلك عندما ينطفئ نور المنافقين.

أو يقولون ذلك لتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم، فيسألون إتمامه تفضلاً. ثم أمرت الآيات النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ومعاملتهم بغلظة وشدّة، فإن في التشديد عليهم مصلحة لهم لعلها تسوقهم إلى الإيمان:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأْمُرْهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

إن أصرُّوا على الكفر والنفاق حتَّى الموت، فمعاملة الكفار والمنافقين تختلف عن معاملة المؤمنين والمؤمنات، فإنَّ أساسَ معاملة المؤمنين والمؤمنات قائم على المودة والرحمة، بينما أساس معاملة الكفار والمنافقين قائم على الشدة والخشونة والغلظة.

ثم خوّفت الآيات أزواج النبي ﷺ، لأن كونهن نساءه لا يفيدهن إن أتين بما يحظر عليهن:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ضرب الله مثلاً لحال الذين كفروا في الدنيا والآخرة.

﴿امْرَأَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي: كانتا في عصمة نبيين كريمين، فالحالة التي كانتا عليها في الدنيا داعية لهما إلى الخير والصلاح.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: بالكفر والعصيان، مع تمكنهما من الإيمان والصلاح، فخيانتها كانت بالكفر والنفاق، وهي مخالفة الحق، ولا تفسر هنا بالفجور، فما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتها في الدين، والزنى من المنفرات لا يقع أبداً من أزواج الأنبياء.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: فلم يدفعا عن امرأتيهما شيئاً من عذاب الله.

﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ أي: وقيل لهما عند الموت أو يوم

القيامة: ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفار الذين لا صلة بينهم وبين الأنبياء ﷺ، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على صلاح غيره، فالكافر لا ينتفع بطاعة غيره من المؤمنين، وكذلك لا تضره معصية غيره، فإن صلة المؤمن بالكافر لا تضر المؤمن.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَوَجِّئِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَجَجِّئِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ كانت امرأة أعدى أعداء الله

تعالى، آمنت بالله، وسألته المنزلة العالية في الجنة.

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ في أعلى درجات المقربين، قدمت

ذكر الجار على الدار.

﴿وَوَجِّئِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ أي: ونجني من نفس فرعون الخبيثة وكفره وظلمه.

﴿وَوَجِّئِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ونجني من قوم فرعون التابعين له في الظلم.

ويبدو أن فرعون لما علم بإيمانها أمر بتعذيبها، فلجأت إلى الله، وسألته

النجاة من ظلمهم، وهذا يدل على أن الالتجاء إلى الله عند المحن والنوازل من

صفات الصالحين، وقد أثنى النبي ﷺ عليها، وبين اسمها ومكانتها فقال:

«كَمَلُ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ

عمران، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ [رواه البخاري (٣٤١١)].

قال ابن حجر رحمته الله: «اسْتُدِلَّ بهذا الحصر على أنهما نبيتان، لأنَّ أكمل النوع الإنساني الأنبياء، ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة»^(١).

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾^(١٢).

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وهي شهادة من الله تعالى بعفتها وحصانتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي: من روح خلقناه من دون توسط سبب، فهي إضافة تملك وتشريف كبيت الله وناقة الله، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ أي: وصدقت بشرائع الله التي شرعها، وكتبه التي أنزلها كالتوراة والإنجيل، فهي شهادة من الله تعالى بصدق إيمانها وإخلاصها وعلمها. وفي قراءة: (بكلمة الله وكتابه) أي: بعبادة الله والإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ أي: من المطيعين الخاشعين، وهي شهادة أخرى من الله تعالى بإخلاصها في العبادة، فهي من النساء الكاملات كما مر معنا في الحديث الشريف.

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ» [رواه البخاري (٣٤٣٢)].

ودلَّ الحديثُ على أنَّ مَرْيَمَ أَفْضَلُ مِنْ آسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَنَّ خَدِيجَةَ أَفْضَلُ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

فالواجب على أزواج النبي ﷺ أن يكنَّ مثل هاتين المرأتين المؤمنتين في طاعتهما لربهما، وفي إخلاصهما في العبادة، وألا يتكلنَّ على أنَّهما أزواج رسول الله ﷺ.

والجدير بالذكر هنا: أنَّ الطبراني أخرج عن سعد بن جنادة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ زَوَّجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرِيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَأَخْتَ مُوسَى» وهو حديث منكر، فيه يونس بن شعيب قال البخاري: منكر الحديث، وعبد النور قال فيه الذهبي: كذاب^(١).



(١) ميزان الاعتدال: ٤/٤٨١، برقم (٩٩٠٧).

تفسير سورة المُلْك

الْحَلْقُ وَالتَّدْبِيرُ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحياة والاختيار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَعَةَ سَمَوَاتٍ طَائِفًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

مجدد الله تعالى في أول سورة المُلْك نفسه، وأخبر عن كمال قدرته، فقال:

﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

أي: تزايد خيرٌ وعطاءٌ الذي بيده الملك، فأحسانه تعالى لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازديادٍ.

ومرَّ معنا أن (تبارك) كلمة تعظيم، لا تستعمل إلا لتعظيم الله ﷻ، والمستعمل منها الماضي فقط، وهي إمَّا من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته،

وإِذَا مِنَ الْبِرْكَاتِ لِدَوَامِ الْمَاءِ فِيهَا وَثِبَاتِهِ، وَلَعَلَّ الْمَعْنَى الثَّانِي أَنْسَبُ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فَمَلِكُهُ تَعَالَى ثَابِتٌ دَائِمٌ.

ثم شرعت الآيات تبين بعض أحكام الملك وآثار القدرة:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: الذي خلق موتكم وحياتكم أيها المكلفون في الدنيا.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليختبركم في ما بين الحياة إلى الموت، ويعاملكم معاملة المختبر، فيجازيكم على عملكم، لا على علمه بكم.

وقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أيكم أصوب عملاً، أو خير عملاً، ولم يقل أكثر عملاً، فالمهم أن يكون العمل موافقاً لشرع الله، خالصاً له.

وصيغة التفضيل للترغيب في الترقى في مدارج الطاعات، فالدنيا دار اختبار وفناء، والآخرة دار جزاء وبقاء.

وقدَّمَ الموتَ لأنه قبل الحياة، فالإنسان كان في حكم الموتى، ثم طرأت عليه الحياة، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ودلَّت الآيَةُ على أَنَّ الموتَ صفة وجودية تضاد الحياة لتعلق الخلق به، وذهب بعضهم إلى أنه أمر عدمي، وهو عدم الحياة، وأجابوا عن الاستدلال بالآية بأن الخلق فيها بمعنى التقدير، وهو يتعلَّق بالعدمي كما يتعلَّق بالوجودي^(١) فالتقدير للموت والحياة معاً.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي: وهو الغالب المنتقم ممن عصاه، الغفور لمن تاب ورجع إلى طاعته.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ .

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض .

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ وفي قراءة: (تَفَوُّتٍ) بالتشديد؛ أي: لا ترى فيه من نقص ولا عيب ولا خلل، فخلق الرحمن محكم متقن، ولهذا قال يتحدّى كل متأمل ناظر في خلق الرحمن:
﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: هل ترى خللاً وعيباً ونقصاً؟! .

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ .

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرتين .

﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: يرجع إليك البصر ذليلاً وهو كليل منقطع من التعب والإعياء، فإنك مهما كررت النظر فلن ترى نقصاً ولا خللاً في خلق الرحمن، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَلَهُمُ الرَّبَّ إِنَّهَا شَاقِقَةٌ ﴿٦﴾﴾ فَرُوجُ ﴿ق: ٦﴾ .

الكواكب زينة ورجوم

﴿وَلَقَدْ رَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءُ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ .

وبعد أن وجّهت الآيات الأنظارَ إلى كمال الخلق وإحكامه وجّهتها إلى جماله وتناسقه:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ أي: زيننا أقرب السماوات إلى الأرض
بكواكب مضيئة بالليل .

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ أي: وجعلنا لها فائدة أخرى، وهي رجم الشياطين
الذين يسترقون السمع، قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكَبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصفات].

فالله خلق هذه النجوم زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى
بها، فالشَّهْبُ التي يُرمى بها تفصل من هذه الكواكب .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: وهياًنا للشياطين عذاب السعير في الآخرة
بعد الإحراق بالشهب في الدنيا .

وهذا العذاب ليس مختصاً بالشياطين وحدهم، فهو مهياً لكل من كفر بالله
من الإنس والجن:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾ .

وقرئ: (عذاب جهنم) بالنصب عطفاً على (عذاب السعير).

* * *

حسرة وندامة

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَحْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَسَاكِينِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ .

ووصفت الآيات شدة هول هذا العذاب بقوله تعالى :

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾﴾ .

أي: إذا طرخوا في جهنم سمعوا لها صوتاً منكراً وهي تغلي بهم غليان المرجل بما فيه .

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾ .

﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تكاد تتقطع غضباً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم .

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يحذركم من هذا العذاب، وهو سؤال توبيخ وتقريع .

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ .

أي: فكذبنا الرسل، وأفرطنا في التكذيب، حتى نفينا الإنزال والإرسال وقلنا للمرسلين: ما أنتم إلا في ضلال كبير .

وأضافوا بعد اعترافهم هذا متحسرين نادمين:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

أي: لو كنا نسمع كلام الرسل ونستجيب له ونعقل حكمه ونعمل به ما كنا في عداد المعديين في السعير، فمدار التكليف على أدلة السمع والعقل، وهما حجتان متلازمتان.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

أي: فبعداً لهم عن رحمة الله تعالى وكرامته، فإن اعترافهم لا ينفعهم. ثم بينت الآيات بعد هذا الوعيد الشديد فضل الذين يخشون ربهم بالغيب، وما لهم عنده من المغفرة والأجر:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخافون عذابه ولم يعاينوه بعد، أو وهم غائبون عن أعين الناس، أو يخشونه وهم لا يرونه لأنه تعالى يراهم. ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وما دام الأمر كذلك فأخلصوا في عبادته، وأقبلوا على طاعته، فإنه عليهم بجميع أحوالكم وأقوالكم.

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾

أي: إنه عالم بضمائرهما ودخائلها، وكيف لا يعلم ما فيها وهو خالقها؟!.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

أي: وهو العالم بدقائق الأشياء وحقائقها.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ أي: مسخرة لكم، وفيها أسباب معاشكم وحياتكم.

﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ لاكتساب الرزق في الأرض، فالأرض مسخرة للإنسان، وجعل الله فيها كل ما يحتاج الإنسان إليه من أسباب الحياة والعيش، وما عليه إلا أن يسعى في تحصيل ذلك، والسعي والعمل أهم أسباب تحصيل الرزق.

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي: وكلوا من رزقه الذي خلقه لكم، وتفضل به عليكم، واشكروه على ذلك بطاعته وعبادته، فإن مرجعكم بعد الموت إليه في يوم الحساب والجزاء.

* * *

الخسف والحاصب

﴿أَمْسِمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمْسِمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسَلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوْلَدُ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّجْمُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَصْرَمُكَم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْفَعُكَمَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَحُوا فِي عَتْوٍ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

وأنتم دائماً وأبداً في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، فاخشوه وعظّموه، ولا تأمنوا عذابه.

﴿أَأَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿أَأَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ أي: من هو إله معبود في السماء كما هو إله معبود في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

فالسمااء خلق من خلقه تعالى، وهي في قبضة قدرته ومشيتته كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

فله سبحانه صفة العلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود، لأنها صفات الأجسام، وإنما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء، لأن السماء مهبط الوحي، وإليها تُرفع أعمال العباد، كما يتجه المصلون إلى الكعبة في الصلاة، قرر ذلك القرطبي رحمته الله، ثم قال: «لأنه خلق الأمكنة، وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان، ولا مكان ولا زمان، وهو الآن على ما عليه كان»^(١).

وفي قراءة: (أمنتم) بإدخال ما بين الهمزتين ألفاً، (وا أمنتم) بإبدال الأولى واواً لضم ما قبلها وهو راء (النشور).

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: أمنتم أن يغييبكم في الأرض كما فعل بقارون، فإذا هي تضطرب بكم وتهتز عندما تغيبون في داخلها.

﴿أَمْ أَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿أَمْ أَمْنُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحاً تحمل حجارة ترميكم بها.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ أي: فستعلمون حينئذٍ كيف إنذاري إذا عايتم عذابي .

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿١٨﴾

أي: ولقد كذب الذين من قبل الكفار المعرضين، فكيف كان إنكاري عليهم عندما أهلكتهم؟! ألم يكن عظيماً شديداً؟! .

ومما يدل على قدرته تعالى على الخسف وإرسال الحاصب:

﴿أَوْلَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقُولُونَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّيحُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ﴿١٩﴾

﴿أَوْلَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى﴾ أي: باسطات أجنحتهن في أثناء الطيران .
 ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويضمنن أجنحتهن فيكون القبض تارة بعد تارة كما يفعل السابح في الماء .

﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّيحُ﴾ أي: ما يمنعهن عن الوقوع عند القبض والبسط إلا الرحمن .

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ يعلم سبحانه كيفية إبداع المبدعات، وتدبير أمر المخلوقات، فهو الذي قدر أسباب الخلق، ودبر أمرها بمشيئته وقدرته جل وعلا .
 ثم انتقلت الآيات بأسلوب الإضراب من توبيخهم على ترك التأمل في أحوال الطير التي تدل على كمال قدرته وعموم رحمته، إلى توبيخهم على اعتقادهم بأن لهم ناصرًا غير الله يمنعهم من بأسه وعذابه، ويرزقهم إن أمسك رزقه عنهم:

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ فِي غُرُورٍ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أي: مَنْ هذا الذي ينصركم من عذاب الرحمن؟! .

ثم قرر بعد هذا التوبيخ أنهم في ضلال عظيم فاحش:

﴿إِنَّ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ صدَّهم عن الإذعان للحق وحجبهم عنه .

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ أي: من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده؟! فلا أحد يُعطي ويمنع ويخلق ويرزق إلا الله .

ومع ذلك فالقوم لا زالوا على عنادهم وإعراضهم:

﴿بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: استمروا في استكبارهم وإعراضهم .

ثم وصفت الآيات بعض ما ينتظرهم يوم القيامة، لعل استكبارهم وعنادهم يزول عنهم:

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٢﴾ .

فالكافر يمشي يوم القيامة منحنيًا على وجهه، لا يدري أين يسلك، بل هو تائه حائر؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَكُفًّا وَصَمًّا مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] .

بينما المؤمن يمشي سويًا منتصبًا القامة على طريق واضح بين .

* * *

المصارحة بالحقيقة

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَ وُجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَسَّ مَعِيَ أَوْ رَحِمَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي صَلَاتٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

بعد هذا التوبيخ والوعيد أمرت الآيات النبي ﷺ أن يواجههم بالحقيقة،
ويصارحهم بها، لكي يدعونا لها ويؤمنوا بها:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ومع ذلك لا تشكرون الله شكراً قليلاً على ما أنعم عليكم من النعم العظيمة الجليلة، فأنتم لا تسمعون المواعظ، ولا تنظرون آثار قدرته، ولا تتفكرون بآياته.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

أي: هو الذي خلقكم في الأرض وإليه تحشرون للجزاء والحساب لا إلى غيره.
وبقي القوم بعد كل هذا الوعيد والتذكير مُصِرِّين على عنادهم وضلالهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يقولون ذلك استبعاداً لوقوعه.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْهَمْتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إن العلم بوقت وقوعه لا يعلمه إلا الله، فما أطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا .

﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أُنذِرْكُمْ بِوَقُوعِهِ، وَأُبَيِّنُ لَكُمْ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ وَالدِّينِ .

ثم وصفت الآيات أحوالهم عندما تقوم القيامة ويرونها بأسلوب الوقوع والحدوث تأكيداً لوقوعها وحدوثها:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فلما رأوا العذاب قريباً منهم ساءهم ذلك، وجاءهم من الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، فعلا وجوههم القتر والذلة، وغشيتها الكآبة .

ويقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ:

﴿وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ أي: تستعجلون أو تطلبون عندما كنتم تقولون منكرين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥] .

ثم أمر النبي ﷺ بعد هذه المصارحة وما فيها من تهديد وتوبيخ أن يدعوهم بأسلوب المحاكمة العقلية المنطقية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأبقانا، وأخر آجالنا، فهو الخالق المدبر يفعل ما يشاء .

﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ أي: لا ينجيهم أحد من العذاب، أهلكنا أو أبقانا، فنحن مع إيماننا خائفون؛ فمن يمنعكم من عذابه وأنتم كافرون؟! .

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ﴾ الذي أدعوكم إليه، له وحده الخلق والتدبير، ولهذا:
 ﴿ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فلم نكفر به كما كفرتم، وفوضنا إليه أمورنا.
 ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فستعلمون عند نزول العذاب ومعابنته مَنْ
 هو في ضلال مبين نحن أم أنتم. وقرئ: (فسيعلمون) بالياء.
 وأقرب دليل عملي ملموس على ذلك:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض لا تستطيعون الوصول إليه.
 ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ظاهر تراه العيون، وتنااله الأيدي، غير الله الخالق
 المدبر جل وعلا.

والجدير بالذكر أن هذه السورة تسمى: المانعة، والمنجية، والمجادلة،
 لأن الله تعالى يحمي أصحابها من عذاب القبر.
 فقد أخرج الطبراني: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسميها على عهد
 رسول الله صلى الله عليه وسلم المانعة.

وأخرج الترمذي [٢٨٩٠] وغيره: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ضرب بعض
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خبائه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ
 سورة المُلِكِ حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي
 المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر».

وكان سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله يقرأها مساء كل يوم، ويوصي
 بقراءتها، وجاء في فضلها أخبار كثيرة؛ منها: ما أخرج الإمام أحمد [٧٩٦٢]
 وأبو داود [١٤٠٠] والترمذي [٢٨٩١] والنسائي في الكبرى [١٠٤٧٨] وابن ماجه،

والحاكم وصححه [٣٧٨٦] وابن حبان [٧٨٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ سُوْرَةَ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾».



تفسير سورة القلم

الاستدراج في سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
صاحب الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿١﴾ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿٢﴾ مَا أَنْتَ بِعِيمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٤﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ فَسَتَنْصَبِرُ وَيُنصِرُونَ ﴿٦﴾ بَأْيَتِكُمُ الْمُفْتُونُ ﴿٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٨﴾ .

بدأ الله تعالى سورة القلم بالقسم به فقال:

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ .

﴿ت﴾ وهو حرف من حروف الهجاء، والله أعلم بالمعنى المراد منه، ويؤيد أنه حرف سكونه وكتابتها بصورة الحروف، وقرئ بسكون النون وإدغامها في واو (والقلم).

﴿وَالْقَلَمِ﴾ المراد كل قلم يكتب به، فهو الوسيلة الأساس للتعليم، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَىٰ رَبَّكَ الْأَكْرَمَ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق].

نَبَّهَ تَعَالَى بِهَذَا الْقِسْمِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنْ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ الَّتِي بِهَا تُنَالُ الْعُلُومُ
ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: وما يكتبون.

وقد يرادُ به القلمُ الذي أجراه اللهُ بالقدر، ففي الحديث: عن الوليد بن
عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي حين حضره الموتُ فقال: إني سمعتُ
رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: اكْتُبْ، قَالَ: يَا رَبِّ
وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ» [أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)]
والترمذي (٢١٥٥) وقال: حسن صحيح غريب].

وجواب القسم:

﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾

أي: ما أنت يا محمد برحمة ربك بمجنون.

وهو رد لقولهم الذي حكاه سبحانه عنهم في قوله الكريم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي
نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

فنعمة الله تعالى ظاهرة على النبي ﷺ، فقد جمع له تعالى كمال الخلق
والخلق، وبرأه من كل عيب، فهم كاذبون في قولهم: (إنك لمجنون)، ثم بشره
ربه بالأجر العظيم:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

أي: وإن لك لأجراً على احتمال ذلك الأذى والصبر عليه غير منقوص
ولا مقطوع، فلا ينبغي أن تمنعك افتراءاتهم عن الاستمرار على طريق دعوتهم
وتبليغهم رسالة ربهم وإقامة الحجة عليهم.

ثم شهد له جل وعلا شهادةً عاليةً تؤكد مضمون قوله: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمَجْنُونٍ﴾ فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

فمن كان كذلك لا ينسب إلى الجنون.

فأخلاقه عليه الصلاة والسلام عظيمةٌ كاملةٌ حميدةٌ، بلغت الغاية العالية في الكمال، حتى إنَّ السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لسعد بن هشام عندما سألها عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قال: بلى، قالت: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ. [رواه مسلم (٧٤٦)]. زاد البيهقي في «دلائله»: يرضى برضاه، ويسخط بسخطه.

ومن المعلوم: أنَّ الله جمعَ في القرآن الكريم كلَّ مكارم الأخلاق، وكلها اجتمعت في رسول الله ﷺ، وورود هذه الشهادة الربانية في سياق القسم الإلهي بالقلم وما يسطرون دلَّ على أن أعظم المقدرات التي كتبها القلم في لوح المقادير: إنك يا محمدُ لعلی خلق عظيم، لقد اجتمع فيه ﷺ ما جبله الله عليه من الخُلُقِ العظيم في أصل فطرته الكريمة، مع امثاله لما في القرآن الكريم من الأخلاق الكريمة والمثل الإنسانية الرفيعة، وهذا ما جعلَ السيدة عائشة رضي الله عنها وهي أقربُ الناس إليه تقول: إِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا. [رواه مسلم (٢٣١٠)].

وقد بعثه الله تعالى ليتمم للبشرية مكارم الأخلاق، فقال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» [رواه أحمد (٨٩٣٢)] وقال مصحح المسند: إسناده صحيح، والبزار (كشف: ٢٧٤٠) ومالك في الموطأ (٢/٩٠٤).

قال القاضي عياض: وكان - في ما ذكره المحققون - مجبولاً عليها من أصل خلقته وأول فطرته، لم تحصل له باكتساب ولا رياضة إلا بجود إلهي وخصوصية ربانية^(١).

(١) الشفا في حقوق المصطفى: ٥٤٥/١.

ثم بيّن تعالى أن إمهال المشركين وتأخير العذاب عنهم إنما هو استدراج لهم ومكر بهم:

﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾.

أي: فستعلم ويعلمون؛ أو سترى وسيرون؛ حين يميز الله بين الحق والباطل.

﴿يَأَيُّكُمْ الْمَقْتُولُ﴾.

أي: الذي افتتن عن الحق، وضلَّ عنه، فهو كقوله تعالى: ﴿سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُّ﴾ [القمر].

أو أيكم الذي فُتن بالجنون، ودخلت الباء في قوله: ﴿يَأَيُّكُمْ﴾ لتدل على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبُصِّرْهُ﴾ أو بأي الفريقين منكم المجنون، وفي أيهما يوجد من يستحق هذا الوصف.

ويقوي المعنى الأول قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهم المجانين على الحقيقة.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهم الذين انتفعوا بعقولهم، وساروا في طريق الهدى

والرشاد.

تحقير المكذبين وفضح عيوبهم

﴿فَلَا تَطْعُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ نُدُّهُمْ فَيَدَّهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّارٍ مَشَّاءٍ
يَمْسِيهِ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ أَتَيْهِ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ نَعَدَ ذَلِكَ رَبِيرٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيِّنٍ ﴿١٤﴾ إِذَا
تَنَلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولَىٰ ﴿١٥﴾ سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ .

ووجهت الآيات النبي ﷺ للثبات على طريق الدعوة واحتمال أذى المشركين:

﴿فَلَا تَطْعُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ .

لدعوة الحق وهي دعوة التوحيد، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُ الْكٰفِرِينَ
وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ اٰذَنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

﴿وَدُوا لَوْ نُدُّهُمْ فَيَدَّهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ .

أي: تمنوا أن تُصانعهم وتترك بعض ما أنت عليه، فتلين لهم ويلينوا لك
بترك الطعن والأذى.

وأصل الإدهان: اللين والمصانعة والمقاربة في الكلام، ويبدو أنهم كانوا
يدعون النبي ﷺ ليكف عن تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، وشتم آبائهم،
ليكفوا عن أذاه، فبشبهته تعالى وأنزل في ذلك قوله الكريم: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَقَدْ
كِدْتَ تَرَكَّنْ إِيَّاهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وبعد النهي عن طاعة عموم المكذبين خصت بالذكر بعضهم:

﴿وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: كثير الحلف بالباطل، حقير، فالإنسان إنما يكذب لمهانة نفسه عليه.

﴿هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنِيمٍ ﴿١١﴾﴾ .

أي: عيَابِ فِتَانٍ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ لِيُفْسِدَ بَيْنَ النَّاسِ .

﴿مَتَاعٍ لِلْآخِرِ مَعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿مَتَاعٍ لِلْآخِرِ﴾ أي: بخيل بالمال .

أو: يمنع ولده وعشيرته عن الدخول في الإسلام .

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أي: ظلوم يتعدى الحق ولا يرضى به، فاجرٌ يتعاطى الآثام .

﴿عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿عُتْلٍ﴾ أي: غليظ سيئ الخلق .

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: وهو مع ما وصفناه من الصفات المذمومة زنيم، وهو

الدعوي الملتصق في القوم، وليس منهم، أو الذي لا أصل له، قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً، ولا ذكر من عيوبه مثل ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة^(١) .

ومعظم المفسرين على أن هذه الآيات نزلت فيه، لكن خصوص السبب

لا يمنع عموم الحكم، ولفظ الآية: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَافٍ﴾ يدل على العموم، فالآيات تنسحب على كل من اجتمعت فيه هذه الصفات التسع .

ثم كشفت الآيات سبب إظهار قبائحه وعيوبه :

﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: جعل في مقابلة النعم التي أُعطيها من المال والبنين الكفرَ بآياتنا .

وفي قراءة: (أأن كان) على الاستفهام، وبعضهم حَقَّقَ الهمزتين، وبعضهم سهَّلَ الثانية.

﴿سَسِمُّهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾

أي: سنكويه على أنفه، فنجعل له علامة يُعَرَفُ بها يوم القيامة.
 أو: سنلحق به ذلة وعاراً لا يفارقانه، إذ الأنف مكان العزة والحمية، واشتقوا منه الأنفة، وقالوا في الذليل: رِغْمَ أنفه.
 وفي لفظ (الخرطوم) استهانةٌ به، لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، وقد ألحق الله به بما ذكر في هذه الآيات من عيوبه عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة كالوسم على الخرطوم الذي لا يخفى ولا يُمَحَى.
 وهكذا رفعت الآيات النبي ﷺ إلى أعلى عليين، وأنزلت عدوه إلى أسفل سافلين.

* * *

قصة أصحاب الجنة

﴿إِنَّا لَنُؤْتِيهِمْ كَمَا نَلُونَا أَحْسَبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِمُهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَيْنَ أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْتَعِينُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سَخِنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّمَّا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾

لقد وضع هذا الرجل الكفر مكان الشكر، فقد كان ذا مال وبين حاله في هذا كحال جميع المكذِّبين من مشركي مكة، إذ كانوا في جوار حَرَمِ الله، يتمتعون

بالأمن والغنى، فكفروا بنعمته تعالى بدل أن يشكروه قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمَاءَ إِمْنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِئَالِ الْبَطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِمَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. فتوعدهم الله بأن يبتليهم بالجوع والقحط وهلاك الأموال كما ابتلى قبلهم أصحاب الجنة، فقال:

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: إنا اختبرنا أهل مكة كما اختبرنا أصحاب الجنة.

ويظهر أن أهل مكة كانوا على علم بقصة أصحاب الجنة؛ وهي بستان باليمن قرب صنعاء - كما ذكر المفسرون - ولعلها كانت قريبة من مكة المكرمة في الطائف فهي قريبة من مكة، وفيها كثير من المزارع والبساتين، ورثها أصحابها عن أبيهم الذي كان يُعطي جزءاً من ثمارها للمساكين عند القطاف وجني المحصول، ولما مات أبوهم وصارت لهم:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا ليقطعن ثمرها إذا أصبحوا قبل أن يحضر المساكين جرياً على ما عودهم أبوهم.

﴿وَلَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ .

حصّة المساكين كما كان يفعل أبوهم.

أو: حلفوا أيماناً مؤكدة من غير أن يعلقوها على مشيئة الله تعالى، ويضيفوا إلى لفظها: إن شاء الله.

ولما أُنعت ثمارها وحن وقت قطافها دمرها سبحانه وحرّمهم منها:

﴿ظَافَ عَلَيْهَا طَافٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُرُّ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: نزل عليها بلاء بمشيئة الله تعالى وتقديره في ليلة قطافها وهم نائمون.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾

كالبستان الذي صُرِمَتْ ثماره وكالزرع المحصود، فالصريم بمعنى المصروم؛ أي: المقطوع ما فيه.

﴿فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

أي: فنادى بعضهم بعضاً لما أصبحوا.

﴿أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: اخرجوا إلى بستانكم إن كنتم قاطعين ثماره.

﴿فَانْطَلَفُوا وَهَمُّوا يَنْخَفُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: يتحدثون سراً فيما بينهم.

﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: يقولون: لا تمكّنوا مسكيناً من الدخول.

﴿وَعَدُّوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

وعدوا قاصدين إلى جنتهم، قادرين عند أنفسهم على صرامها وحرمان المساكين منها، أو قادرين على نكد لا غير.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَّالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: لمخطئون الطريق، وليست هذه جنتنا. لكنهم لما تأملوها عرفوا أنها جنتهم.. قالوا:

﴿لَمْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

قد حُرِّمْنَا خَيْرَهَا وَنَفَعَهَا .

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

قال أعدلهم رأياً: ألم أقل لكم: هَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ وَتَتُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَعَزَمَكُمْ عَلَى مَنَعَ الْمَسَاكِينَ حَقَّهُمْ؟! .

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

نَزَّهُوا اللَّهَ عَنِ الظُّلْمِ فِيمَا فَعَلَ بِجَنَّتِهِمْ ، وَأَقْرَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالظُّلْمِ .

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَوْنَ ﴿٣٠﴾﴾ .

يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ؛ فَإِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَشَارَ بِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهُ ثُمَّ رَضِيَ بِهِ .

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ .

مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ اللَّهِ .

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾ .

طَالِبُونَ مِنْهُ الْخَيْرِ ، رَاجُونَ عَفْوَهُ .

فَأَبْدَلَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا بِبُرْكَاتِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ . وَفِي قِرَاءَةِ: (يُبَدِّلُنَا) بِالتَّشْدِيدِ .

* * *

التوبيخ والتحدي

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَسَنَاتٍ نَّعِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَفَجَعَلُ
 الْمُشْرِكِينَ كَالْمُحْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَحْتَرُونَ
 ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ
 لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

وعقب الله تعالى على قصتهم بقوله:

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي: كذلك العذاب في الدنيا لكل من سلك سبيلهم.

﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولعذاب الآخرة أعظم منه؛ لو

كانوا يعلمون لما فعلوا ما يُفضي إليه.

ثم بيّن تعالى ضرورة الجزاء يوم الحساب للتمييز بين المؤمنين والكافرين،

فليس من الحكمة التسوية بينهما، وقرر في مقابل ما ذكر من عذاب الآخرة

للكافرين ما للمتقين من الثواب العظيم في جنات النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ نَّعِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ .

ثم رَدَّتْ الآيات مزاعم الكفار الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، ويقولوا: إن

صحَّ أننا نبعث كما يزعم محمد والمؤمنون، فسيكون حالنا فيها أحسن من

حالهم، وكما فضلنا عليهم في الدنيا بالمال والجاه سنفضل عليهم في الآخرة:

﴿أَفَجَعَلُ الْمُشْرِكِينَ كَالْمُحْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ .

وهو تقرير لما قبله من فوز المتقين بجنات النعيم، وردُّ لمزاعمهم الباطلة

أكدته الآيات بأسلوب الالتفات تعنيفاً وتوبيخاً لقائله.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦).

أي: أي شيء حصل لكم من خلل في العقل وفساد في الرأي؟! فمثل هذا القول لا يصدر من عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧).

أي: هل لكم كتاب نازل من السماء تقرؤون فيه؟!.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهَا لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ (٣٨).

أي: لما تشتبهون وتريدون، فالأمر مفوض إليكم، والحكم منوط بمشيئتكم. ولا يخفى ما في الآيات الكريمة من تهكم مرير بهم. وتابعت الآيات هذا التهكم اللاذع المرير:

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩).

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: ألكم عهود ومواثيق مؤكدة لا تنقطع ولا تبطل حتى تبلغ ذلك اليوم ويحصل لكم المُقسَم عليه؟! وهو:
﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: لأنفسكم من الخير والكرامة عند الله تعالى.
ثم وجهت الآيات الخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يتحداهم موبخاً لهم:

﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٤٠).

أي: كفيل بذلك الحكم.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: ألهم شركاء يشاركونهم في هذا القول، أو يشهدون لهم بصدقه وصحته؟!.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ فلا أحد يقر لهم بهذا ويساعدهم عليه ويقلدهم فيه .
وبهذا نفت الآيات جميع ما يمكن أن يتشبثوا فيه من عقل أو نقلٍ أو وعد
أو محض تقليد .

* * *

الامر العظيم

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ ﴿٤٢﴾ حَشِيعَةً أَنْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ
إِلَى الشُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِ لَهُمْ
إِنْ كِيدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

وأضافت إلى ذلك وصف هول يوم القيامة، وما يصيبهم فيه من ذلة وخوف
وفضيحة :

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى الشُّجُودِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي : يوم يشتد الأمر ، ويعظم الخطب كقولهم : شمرت
الحرب عن ساقها ؛ أي : اشتدت ، والأصل في أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى
الجد شمر عن ساقه ، ومنه تشمير المخدرات عن سوقهن في الهرب ، فإنهن لا يفعلن
ذلك إلا إذا عظم الخطب ، واشتد الأمر ، فيذهلن عن الستر ومنه قول الشاعر :

أخو الحرب إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّها وإن شَمَرَتْ عن ساقها الحربُ شَمَرًا

أو : يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً ، مستعار من
ساق الشجر وساق الإنسان ، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم^(١) .

(١) تفسير البيضاوي : ٣٣٤/٦ .

ويقويه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وروى ابن كثير في معنى الآية عن ابن عباس: هو يوم القيامة يوم كرب وشدة، وعن ابن مسعود قال: عن أمر عظيم.

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» [رواه البخاري (٤٩١٩)].

قال ابن حجر رحمته الله: «أخرجه من طريق حفص بن ميسرة، عن زيد بن أسلم بلفظ: (يكشف عن ساق) قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن، لا يُظنُّ أنَّ الله ذو أعضاء وجوارح؛ لما في ذلك من مشابهة المخلوقين، تعالى الله عن ذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]»^(١).

﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ويدعى الكفار إلى السجود لا تكليفاً ولكن توبيخاً على تركهم السجود في الدنيا، فلا يستطيعون السجود، ولا يقدرين عليه من شدة ما يعتريهم من رعب وخوف.

﴿خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (٤٣).

﴿خَشَعَةَ أَبْصَارِهِمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: ذليلة أبصارهم تعلوهم كآبة ومهانة، وتسود وجوههم كما في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ غَيْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ أي: وقد كانوا في الدنيا يدعون بالأسنة الرسل إلى السجود لله تعالى وهم متمكنون منه لا يمنعه منه مانع.

وتابعت الآيات تسلي النبي صلى الله عليه وسلم وتواسيه عما يلقي من أذى المكذبين بالقرآن، مع تهديدهم ووعيدهم:

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: فدعني والمكذبين بالقرآن، ولا تشغل قلبك بهم، وكلهم إليّ، فإني أكفيك إياهم .

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: سنُنذِرُهُمْ من العذاب درجة درجة، بالإمهال وإدامة الصحة وازدياد النعمة من حيث لا يعلمون أنه استدراج، بل يعتقدون أنه من الله كرامة وهو في الحقيقة إهانة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون].

فكلما أذنبوا ذنباً جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار والتوبة، وهذا هو الاستدراج، فهو الأخذ من جهة الأمن، يحسبونه تفضيلاً لهم على المؤمنين، وهو في الحقيقة سبب هلاكهم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٥]. وقوله أيضاً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ .

أي: وأمهلهم، فلا أعاجلهم بالعقوبة، إن عذابي شديد لا يُدفع ولا يُمنع . سَمِيَّ سبحانه إحسانه وتمكينه لهم كيداً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً لهلاكهم .

وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْءَانَ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. [رواه مسلم (٢٥٨٣)].

الصبر لحكم الله

﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ آجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فهُمْ يُكْتَبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ آلِ لُوطٍ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَحْبَبْنَا رَبَّنَا فَفَعَلْنَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وعادت الآيات مرة ثانية تنفي كل شبهة يمكن أن يتشبَّث بها الكفار وهي تخاطب النبي ﷺ تمهيداً لشئته وتصيره:

﴿أَمْ سَأَلْتَهُمُ آجْرًا فَهُمْ مِنْ مَعْرَمٍ مَثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

أي: أتطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة فيثقل عليهم ذلك ويشبطهم عن الإيمان؟! .

والمعرم: الغرامة المالية، وهو استفهام بمعنى النفي، أي: لست تطلب أجراً على تبليغ الوحي، ودعوتك منزّهة عن أي كسب مادي.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فهُمْ يُكْتَبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: أعندهم لوح المغيِّبات فهم يكتبون منه ما يحكمون به، ويستغنون به عن علمك؟! .

فلا حجة لهم في معارضة دعوتك، والسعي في إيذائك، والله سبحانه يمهلهم ولا يمهلهم، ويستدرجهم. وما دام الأمر كذلك:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ آلِ لُوطٍ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم.

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ آلِ لُوطٍ﴾ هو يونس عليه السلام الذي سبق ذكره في الآيات

الكريمة: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٣٧﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٣٨﴾ فَالْقَمَمَةُ آخُوتٌ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٠﴾ لَلِيبَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤١﴾ [الصفات].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» [رواه البخاري (٣٤١٦)].

قال العلماء: ما قال ﷺ ذلك إلا تواضعاً، وخصَّ يونس بالذكر لما يُخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيصٌ له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة^(١).

﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: إذ نادى وهو في بطن الحوت وهو مملوء غمّاً أو غيظاً، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَدِّبًا فَلَمَّا أَنْ لَمَسَ نَفَرًا عَلَيْهِ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ويلاحظ أنه تعالى قال في معرض مدح يونس ﷺ: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، بينما قال هنا في معرض النهي عن اتباعه: (صاحب الحوت)؛ لأن كلمة (ذا) أبلغ من (صاحب) لاقتضائها تعظيم المضاف إليها والموصوف بها^(٢).

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿٤٩﴾.

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وهي توفيقه للتوبة والتسبيح وقبولها منه. ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ أي: لنبذ بالأرض الخالية من الأشجار وهو معاتب ملوم، لكنه رُحِمَ، فنبت غير مذموم.

﴿فَأَجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٠﴾.

أي: فاصطفاه ربه فجعله من المستكملين لصفات الصلاح.

(١) فتح الباري: ٤٥٢/٦.

(٢) روح المعاني: ٤٥/٢٩.

العين حق

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْنُومٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

فلا بد للنبي ﷺ أن يصبر عليهم حتى يأتي أمر الله بعذابهم، فعداوتهم له شديدة، دلّ على شدتها قوله تعالى:

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَحْنُومٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفُقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ أي: إنهم لشدة عداوتهم ينظرون إليك شراً بحيث يكادون أن يزيلوك عن مكانك، أو يهلكوك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني.

أو: يكادون يصيبونك بالعين، لولا وقايته تعالى لك وحمايته إياك منهم. ففي الآية دليل على أن إصابة العين وتأثيرها حق بمشيئته تعالى وقدره، وفي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «العين حق، ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يأمرها أن تسترقي من العين. [رواه مسلم (٢١٩٥)].

وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ رأى في بيتها جارية في وجهها سفعة - سواد مع حمرة - فقال: «استرقوا لها، فإن بها النظرة» [رواه البخاري (٥٧٣٩)].

وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواص في الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحشمه من الخجل، فيرى في وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه، وكثير من الناس

يسقّم بمجرد النظر إليه، وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى في الأرواح من التأثيرات، ولشدة ارتباطها في العين نسب الفعل إلى العين.

وورد في مداواة المعين: ما أخرجه أبو داود من رواية الأسود: عن عائشة رضي الله عنها أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يأمرُ العائن أن يتوضأ ثم يغتسل منه المعين^(١). وفي قراءة: (ليزلقونك) بفتح الياء.

﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي: وقت سماعهم القرآن الكريم.. وهذا يدل على اشتداد بغضهم للنبي ﷺ وحسدهم له عند سماع تلاوته القرآن الكريم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي: وينسبون النبي ﷺ إلى الجنون؟!.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

أي: وما محمد ﷺ إلا شرف للعالمين، فكيف يُنسب إليه الجنون؟! .
أو: ما القرآن إلا ذكر عام للعالمين، لا يدركه ولا يتعاطاه إلا من كان أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً؛ فكيف يُنسب إلى الجنون؟! .



تفسير سورة الحاقة

الْحَقُّ الثَّابِتُ فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تعظيم يوم الحق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴿﴾

بدأ الله تعالى سورة الحاقة بتعظيم يوم القيامة وتفخيم شأنه فقال:

﴿الْحَاقَّةُ﴾ (١) ﴿﴾

سُمِّيتِ الْقِيَامَةُ حَاقَّةً مِنَ الْحَقِّ الثَّابِتِ، فَهِيَ ثَابِتَةُ الْوُقُوعِ لَا رَيْبَ فِيهَا.

أو: واجبة الوقوع، من حَقَّ يَحِقُّ بالكسر، أي: وجب.

أو: لأن الأمور تُحَقَّقُ فيها ويصير كل إنسان حقيقاً بجزاء عمله.

أو: لأنها تحق كل مخاصم جاحد لها، يقال: حاقتته فحقته، أي: غالبته

فغلبته. أو: لأنها يوم الحق.

﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾ (٢) ﴿﴾

مبتدأ وخبر، وهما خبر (الحاقة)، والأصل: الحاقة ما هي؟ أي: أي شيء

هي؟ تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لهولها، حقها أن يُستفهم عنها لعظمتها، فوضع الاسم الظاهر موضع الضمير لزيادة التهويل.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾﴾ .

أي: وأي شيء أعلمك ما هي؟! فإنها أعظم من أن تبلغها درايةً أحد، ومهما قدّرت حالها فهي أعظم من ذلك، فهي لا تُعلم، ولا تبلغها الأوهام والأفكار.

* * *

قوارع وعبر

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لِيَالٍ وَثَمَلِيَّةَ أَنْيَابٍ خُشُوعًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغِي كَانْتَهُمُ أَعْمَارُ نَحْلِ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ يَرْعُونَ وَمَنْ قَلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْحَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَحَدَهُمْ أَحَدَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَعَا أَلْمَاءُ حَمَلْنَاكَ فِي اللَّيَالِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذَكُّرَةً وَنَعِيًا أُذُنٌ وَعِيَةً ﴿١٢﴾﴾ .

فهي حقيقة ثابتة يحق إهلاك المكذبين بها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾ .

أي: بالقيامة التي تقرع الناس بالأفزع والأهوال، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده، وهي تقرع السماء بالانشقاق، والأرض والجبال بالزلزلة والنسف، والنجوم بالطمس والانكدار.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ .

أي: بالصيحة الطاغية المجاوزة للحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً

وَجِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيرِ الْحُمْطِرِ ﴿٣١﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾

أي: أهلكوا بريح شديدة الصوت، باردة، فهي شديدة العصف، جاوزت الحد والمقدار، فلم يقدروا على الامتناع منها.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخَلٍ ﴿٧﴾﴾
خَاوِيَةٌ ﴿٧﴾

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: سلطها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعة دائمة من غير فتور ولا انقطاع حتى حسمتهم واستأصلتهم، فلم تبق منهم أحداً، بدأت عند طلوع الشمس من أول يوم وانقطعت عند غروب شمس آخر يوم.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخَلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: فترى القوم فيها موتى كأنهم أصول نخل ساقطة بالية ليس لها رؤوس.

﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾

أي: من نفس باقية، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أُوْدِيِّنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِيرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا سَنَكُوتُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف].

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾

أي: وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم الماضية وأهل قرى لوط بالفعلة الخاطئة:

وفي قراءة: (ومن قبلة) بكسر القاف وفتح الباء، أي: ومن معه وتبعه من

جنوده، وسميت قري لوط: (المؤتفكات) لأنها اتفتكت؛ أي: انقلبت بهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَنِيبَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجَالٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمُ أَخَذَةً رَّابِيَةً﴾ ﴿١١﴾

أي: فعصت كل أمة رسولها فأخذهم الله أخذة زائدة في الشدة كما زادت أعمالهم في القبح.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ ﴿١٢﴾

أي: إنا لما جاوز الماء حدّه المعتاد في أثناء الطوفان، حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم في سفينة نوح الجارية، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَجٍ وَّدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا﴾ [القمر].

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَنَعِيهَا أُذُنًا وَعِيَةً﴾ ﴿١٤﴾

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لنجعلها لكم عبرة ودلالة على كمال قدرتنا ورحمتنا. ﴿وَنَعِيهَا أُذُنًا وَعِيَةً﴾ أي: وتعلقلها وتنتفع بها أذن حافظة منتفعة بما سمعت وحفظت، فلا تترك العمل به، ولا شك أن المراد صاحبها، ولا يُنسب للأذن حقيقة إلا السمع. وفي قراءة: (وتعيها) بإسكان العين، و(أذن) بتسكين الذال للتخفيف.

بين يدي الواقعة

﴿إِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَجْلِسُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَّظِيرٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

ثم شرعت الآيات في وصف بعض أحداث القيامة وما يكون بين يديها إثر بيان عظم شأنها وإهلاك مكذبيها:

﴿إِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

وهي النفخة الأولى: نفخة الصعق، قال تعالى: ﴿وَتُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].
فنفخة واحدة خربت العالم كله؛ فما أعظمها! ووقع الفعل على النفخة لأنه لم يأت قبلها اسم مرفوع، ويجوز نصب (نفخة) على المصدر وقرئ بها، ويقوم (في الصور) مقام نائب الفاعل.

﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

أي: رُفعت عن أماكنها بقدرته الله، فضربتا ببعضهما ضربة واحدة.
أو: فبسطنا بسطة واحدة، فصارتا أرضاً مستوية لا عوجَ فيها ولا أمتاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه].

ولا شك أن ذلك يؤدي إلى حدوث زلزلة عظيمة في الأرض، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّفُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وقال أيضاً: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

وفي قراءة: (وَحَمَلَتْ) بتشديد الميم على التكاثر والمبالغة في تهويل الحمل.

﴿فِيَوْمِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: فحينئذ قامت القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٦﴾ لَيْسَ لِرِوَعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة].

﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: فهي حينئذ ضعيفة بعدما كانت مُحَكِّمَةً قوية.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ .

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ أي: والملائكة يلجؤون إلى أطراف السماء وجوانبها قبل نزولهم إلى أرض المحشر، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَيُرَى الْمَلَائِكَةُ نَزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقد يكون المراد: والملائكة حول أرض المحشر يحيطون بها.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ﴾ أي: ويحمل عرش ربك فوق الملائكة ثمانية أو فوق أهل القيامة، وهل المراد ثمانية صفوف من الملائكة أو ثمانية ملائكة؟ الله أعلم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧].

وروى أبو داود في سننه [٤٧٢٧] بسند جيد: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعُمِئَةِ عَامٍ».

﴿يَوْمِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: تُعْرَضُونَ على الله تعالى للحساب لا تخفى منكم سريرة ولا حال كنتم تخفونها في الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَلِّغُ السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي قراءة: (لا يَخْفَى) بالياء، فالله يظهر أحوال الخلائق في ذلك اليوم، فالمحسنون يسرون بإحسانهم، والمسيئون يحزنون بإساءاتهم.

* * *

أصحاب اليمين

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَقْرَأُونَ كِتَابِيَةَ﴾ (١٩) ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حَسَابِيَةَ﴾ (٢٠) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٢٢) ﴿فَطُوفُهَا دَائِمَةٌ﴾ (٢٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (٢٤).

ثم وصفت الآية أحوال هذا العرض، وبدأت بأصحاب اليمين:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ مَقْرَأُونَ كِتَابِيَةَ﴾ (١٩).

أي: خذوا اقرؤوا كتابي، أو تعالوا اقرؤوا كتابي.

والأصل: (كتابي) والهاء فيه وفي (حسابيه) و(ماليه) و(سلطانيه) للسكت، ولإظهار فتحة الياء، وحقها أن تكتب في الوقف وتسقط في الوصل، كما فعل بعض القراء، وقد استحب الوقف لثبوتها في المصحف.

والمراد: كتاب الأعمال الذي قال تعالى عنه: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُرْفِهِ ۗ وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَشْهُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حَسَابِيَةَ﴾ (٢٠).

أي: إني أيقنت وعلمت أنني أبعث وأحاسب يوم القيامة، فلم أنكر البعث، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا رَبَّهُمْ وَانَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

ولعله عبّر عن العلم بالظن إشعاراً بأنه لا يقدر في الاعتقاد ما يهجس في النفس من خطرات لا تنفك عنها العلوم النظرية غالباً^(١).

قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقينٌ، ومن الكافر فهو شك. وقال الحسن في هذه الآية: إنَّ المؤمنَ أحسنَ الظنِّ بربه فأحسنَ العملَ، وإنَّ المنافقَ أساءَ الظنَّ بربه فأساءَ العملَ^(١).

وَجُوِّزَ أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ما حصل له من الحساب اليسير، فإن ذلك ممَّا لا يقين له به، وإنما ظنَّه ورجَّحه لمزيد وثوقه برحمة الله تعالى، ولعلَّ ذلك عند الموت، فقد دلَّت الأخبار على أنَّ اللائق بحال المؤمن حينئذٍ غلبة الرجاء وحُسن الظن^(٢).

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً» [رواه البخاري (٧٤٠٥)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يُحسِنُ بالله الظنَّ» [رواه مسلم (٢٨٧٧)].

وعنه أيضاً قال: سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يُبْعَثُ كلُّ عبدٍ على ما مات عليه» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٢١)

أي: مرضية يرضى بها صاحبها، وذلك لأنه لقي الثواب، وأمن من العقاب.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (٢٢)

رفيعة المكان والدرجات.

(١) تفسير القرطبي: ٢٧٠/١٨.

(٢) روح المعاني: ٥٩/٢٩.

﴿قُطِرُوهَا دَانِيَةً ٢٣﴾ .

أي: ثمارها قريبة لمن يتناولها، قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوبُهَا نَذِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. ويقال لهم:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٤﴾ .

أي: بما قدمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية.
هذه أحوال أصحاب اليمين.

* * *

أصحاب الشمال

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأَيْتُ أُوتِيتُ كِتَابِي ٢٥﴾ وَلَرَأَيْتُ مَا حَسَابِي ٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ ٢٧﴾ مَا أَعْوَى عَنِّي مَالِي ٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي ٢٩﴾ خَذَرُهُ فَعَلُوهُ ٣٠﴾ تَرَى الْحَجِيمَ صَلْوَهُ ٣١﴾
تَرَى فِي سَيْسِلَةٍ دَرَعَهَا سَبْعُونَ دَرَاكًا فَاسْأَلُكُوهُ ٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى
طَعَامِ الْمَسْكِينِ ٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ ٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا
الْخَاطِئُونَ ٣٧﴾ .

وأما أحوال أصحاب الشمال:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَرَأَيْتُ أُوتِيتُ كِتَابِي ٢٥﴾ .

لما يرى من قبح أعماله وكثرة فضائحه.

﴿وَلَرَأَيْتُ مَا حَسَابِي ٢٦﴾ .

أي: يا ليتني لم أعلم ما حسابي.

﴿يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: يا ليت الموتة التي مِتُّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري، فلم أبعث بعدها. فالحالة التي هو فيها أشنع وأمرُّ من الموت.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: لم ينفعني ما جمعته في الدنيا شيئاً.

﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: زال عني مُلكي وقوّتي وتسلطي على الناس، وصرت ذليلاً حقيراً. والرّنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة المفتوحة قبلها توحى بعمق الحسرة وشدة الندم، ويقطعها الأمر العلوي الحازم الجازم:

﴿خُذُوهُ فُغْلُوهُ ﴿٣٠﴾﴾ .

أي: شدُّوه بالأغلال، واجمعوا يديه إلى عنقه.

﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلْوُهُ ﴿٣١﴾﴾ .

وهي النار العظيمة الشديدة التّأجج.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي: طولها سبعون ذراعاً، فهي طويلة لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى.

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: أدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده.

ودلّ تقديم الجحيم والسلسلة على الفعل على التخصيص، وإبراز أنواع ما يعذب به، و(ثم) لتفاوت ما بينها في الشدة.

ومن المعلوم أنَّ الإثارة الوجدانية في القرآن ليست غايةً في حدِّ ذاتها، بل هي وسيلةٌ لتربية النفوس وصلها وتهيتها لقبول الأحكام، ولهذا قال تعالى:

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ .

أي: ولا يحث نفسه على إطعام المسكين، ولا يأمر أهله بذلك. فتارك الحض بهذه المنزلة، فكيف بتارك الفعل! فأقبح العقائد الكفر بالله، وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب، فهو لم يحم حقَّ الله على عباده بتوحيده وعبادته، ولم يؤدِّ حقَّ العباد بعضهم على بعض من الإحسان والتعاون على البر والتقوى. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة كما في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤١﴾ قَالُوا لَوْلَا نُرُكٌ مِّنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٢﴾ وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿المدثر﴾ .

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي: ليس له قريب مشفق يحميه من العذاب ويدفعه عنه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غَسَلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ .

وهو صديد أهل النار، وهو في الأصل ما يجري من الجراح إذا غُسلت. فهذا لون من ألوان العذاب الذي يعذب به أهل النار، فتارة لا طعام لهم إلا من غسلين، وأخرى من الضريع لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿الغاشية: ٦﴾، وثالثة من الزقوم كما مرَّ معنا.

﴿لَا يَأْكُلُهُمْ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: أصحاب الخطايا، من خطئ الرجل إذا تعمَّد الذنب، لا من الخطأ المقابل للصواب.

تنزيل رب العالمين

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا مَعْصُ الْأَفَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَمَدْنَا مِثْلَ الْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا يَسْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِرِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِثْرَ مُكْدِبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

ثم أضاف تعالى تقرير صدق النبي ﷺ وصحة رسالته بالقسم بجميع المكونات الظاهرة والخفية.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

أي: إن القرآن لقول رسول كريم على الله تعالى.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴿٤١﴾ أي: ليس القرآن بقول شاعر كما تزعمون، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].
﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ أي: لا تؤمنون إلا إيماناً قليلاً، فالمراد إظهار عنادهم وشدة جحودهم.

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ﴿٤٢﴾ وهو الذي يوهم أنه يعلم الغيب، ويخبر عما في غدٍ من غير وحي، بل بضربٍ من الظن، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور].

﴿قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ أي: لا تتذكرون إلا تذكرًا قليلاً، فما أقسى قلوبكم!

فنظم القرآن الكريم وإعجازه البياني أمر ظاهر ينافي نظم الشعر، ولهذا ذكر الإيمان مع نفي الشاعرية، وأحواله عليه الصلاة والسلام وكمال أخلاقه تنافي الكاهنية، وهي تتوقف على تذکر أحواله، ولهذا قرن التذکر بنفي الكاهنية. وفي قراءة: (يؤمنون، يذكرون) بالياء.

﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

أي: هو تنزيل من رب العالمين.

فالقرآن الكريم كلامه تعالى ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله ﷺ الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، ليس له فيه إلا التبليغ، أكد ذلك سبحانه بقوله:

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوَالِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾

أي: لو قال شيئاً من عند نفسه فنسبه إلينا لعاجلناه بالعقوبة، وأخذناه بالقوة والقدرة، فعبر عن القوة باليمين، لأن قوة كل شيء في يمامنه.

أو: لأذللناه وأهنتاه، كفعل السلطان لمن يريد أن يهينه يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه، وإنما خصَّ اليمين بالذكر لأنه أشرف العضوين^(١).
فالمعنى المراد: لأخذنا بيمين المتكول علينا.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وهو العرق الذي يغذي القلب؛ إذا قُطع مات صاحبه، فلو كذب علينا وتكول علينا قولاً لم نقله لمنعناه من ذلك بالموت.

(١) تفسير الخازن: ٣٥١/٦.

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ (٤٧).

أي: مانعين يمنعوننا عن عقوبته، وإنما قال: (حاجزين) بلفظ الجمع وهو وصف لأحد، لأنه في معنى الجماعة.
هكذا أظهرت الآيات عزَّ الربوبية بجانب ضعف العبودية، ولا يقرأ أحدُ هذه الآيات إلا ويستشعر أنها كلام رب العالمين، ولهذا قال معقِّباً:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (٤٨).

أي: لموعظة بليغة للمتقين. ومع هذا البيان والوضوح:

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ﴾ (٤٩).

يكذبون بالقرآن، أو يكذبون محمداً ﷺ، وسيكون تكذيبهم حسرة عليهم يوم القيامة:

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٥٠).

ولهذا قال تعالى في يوم القيامة: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

﴿وَإِنَّهُ لِحَقِّ الْيَقِينِ﴾ (٥١).

أي: الحق الثابت من اليقين، أو إنه لعين اليقين، فالقرآن عين اليقين ومحض اليقين في أعلى مراتب العلم والثبوت.

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٥١).

شكراً لله الذي أوحى إليك القرآن الكريم.



تفسير سورة المعارج

تَحْقِيرُ الْمُكَدِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العذاب الواقع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ ۝١﴾ لِكُفْرِهِمْ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۝٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۝٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائِينَ أَلْفِ سَنَةٍ ۝٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا حَبِيلًا ۝٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦﴾ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّهِ ۝٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْرِ ۝٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۝١٠﴾ يُبْصَرُونَ يَوْمَئِذٍ الْمَجْرُمَ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَيْتِهِ ۝١١﴾ وَصَحَّجْتَهُ وَأَجْبَهُ ۝١٢﴾ وَفَصَّلْتَهُ الَّتِي تُوْبِدُ ۝١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُحِجُّهُ ۝١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ۝١٥﴾ تَرَاعَةَ لِلشَّوْلِ ۝١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ۝١٨﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المعارج بقوله :

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَقَعِ ۝١﴾ .

أي: دعا داعٍ بعذابٍ نازلٍ وكائنٍ، وذلك على سبيل الاستهزاء والتكذيب.
وقرى: (سال) بغير همز من السؤال أيضاً، إلا أنه حُفِّفَ بالتلحين.
(وسائل) مهموز إجماعاً^(١).

ويبدو أنَّ السائلَ أحدُ كبار المشركين المستهزئين، وذكروا أنه النضر بن الحارث، فقد دعا على نفسه وسأل العذاب، فأنزل الله به وبأمثاله قوله الكريم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنزِلْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وقيل: هو أبو جهل.

والتعبير بالماضي للدلالة على تحقق وقوع العذاب إما في الدنيا وهو عذاب يوم بدر، وقد قتل فيه النضر وأبو جهل، وإما في الآخرة وهو عذاب النار. وذكر بعض المفسرين أنَّ النبي ﷺ دعا بنزول العذاب عليهم، وهو أمرٌ مستبعدٌ، لأنه عليه الصلاة والسلام نبى الرحمة ما دعا بنزول العذاب عليهم. وقد يسأل سائل: لمن ذلك العذاب؟ وعلى من ينزل؟ فقال تعالى مجيباً لذلك السائل:

﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾

أي: ليس له رادُّ يردّه، فالعذاب واقع بهم لا محالة، سواء طلبوه أم لم يطلبوه.

﴿مَنْ أَلَّهَ ذِي الْمَعَارِجِ﴾

أي: وهو عذابٌ واقعٌ من الله ذي السماوات. سمّاها معارج لأن الملائكة تعرج فيها، وأصل المعارج: الدرج، من عرج إذا صعد، فالمعارج الطرائق التي يصعد فيها. أو: ذي الدرجات، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

أو: ذي الفواضل والنعم. والمعنى الأول أقوى لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعد الملائكة وجبريلُ إلى الله ﷻ، وخصّه بالذكر لعموم فضله وشرفه. وقرئ: (يعرج) بالياء.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهو مقدار يوم القيامة من وقت البعث إلى أن يفصل بين الخلق .

دلَّ على ذلك الحديث الشريف: الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُوَدِّي منها حَقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحٌ من نارٍ، فأحميَ عليها في نار جهنَّمَ، فيكوى به جنبه وجبينه وظهره، كلِّما بردت أُعيدتْ له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإمَّا إلى النار» [رواه مسلم (٩٨٧)].

ولما كان سؤال المشركين عن العذاب تكذيباً لرسول الله صلى الله عليه وآله واستهزاءً به التفتت الآيات إليه تأمره بالصبر والثبات:

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَبِيلًا﴾

أي: صبراً لا جزع فيه، ولا يشوبه استعجال واضطراب.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾

أي: إنهم يرون يوم القيامة بعيداً من الإمكان غير كائن.

﴿وَنَزَلَتْهُ قَرِيبًا﴾

كائناً لا محالة، فكلُّ آتٍ قريبٌ، ولهذا عَظُمَتِ الآياتُ هذا اليوم، وحَقَّرَتِ المكذِّبين به وهَوَّنتِ من شأنهم.

﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾

أي: تكون ضعيفةً غير متماسكة كالفلزات المذابة على مهل.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾

أي: كالصوف المنفوش قبل أن تُنسَفَ وتصيرَ هباءً منبثاً.

﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ١٠ .

ولا يسأل قريبٌ مشفقٌ قريباً مشفقاً عن حاله، لا ابتلاء كل منهم بما يشغله، مع أن كل واحدٍ يبصر الآخر ويعرفه .
وفي قراءة: (ولا يُسأل) على بناء المفعول.

﴿يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَهُمُ الْيَوْمِ الْمَجْرُمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ ١١ .

﴿يَبْصُرُونَهُمْ﴾ أي: يرونهم، فيرى الرجل أباه وأخاه وقرابته فلا يسألهم .
﴿يَوْمِ الْمَجْرُمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ أي: يتمنى الكافر لو يفتدي من عذاب يوم القيامة بأولاده .

﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ١٢ .

وبزوجته وأخيه .

﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ ١٣ .

أي: وبعشيرته التي تضمه ويأوي إليها .

﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ ١٤ .

ويتمنى أيضاً لو ملك كل من في الأرض ليفتدي بهم جميعاً، ثم ينجيه ذلك الفداء من عذاب الله، و(ثم) للاستبعاد .

﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَى﴾ ١٥ .

﴿كَلَّا﴾ لا ينجيه من عذاب الله شيء، وهي كلمة ردع وزجر .
﴿إِنَّهَا لَأَطْنَى﴾ أي: إنها النار التي تتلظى وتتلهب، فلا نجاة منها، قال تعالى:
﴿فَانذَرْتُمْ نَارًا تَلْبُظُ﴾ [الليل: ١٤] .

﴿نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى لِلشَّوَى﴾ (١٦)

أي: إنها تتلظى نزاعة للشوى وهي جلدة الرأس، أو جلدة الوجه، أو الأطراف اليدان والرجلان. وفي قراءة: (نزاعة) بالرفع، أي: هي نزاعة.

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ (١٧)

أي: تدعو من أدبر عن الإيمان، وأعرض عن الحق، فهي تدعوهم بأسمائهم، وقد تكون دعوتها إياهم تعذيبهم.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ (١٨)

أي: جمع المال في وعاء، ومنع منه حق الله تعالى، فكان جموعاً منوعاً، ولهذا كان بعض الصالحين من السلف لا يربط كيس نقوده، ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾.

* * *

المكرمون يوم القيامة

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَوْعًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢١﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الَّذِينَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُورٍ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٧﴾ فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣١﴾ أُولَٰئِكَ فِي حَسَنٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وفي مقابل تحقير المكذبين وتهوينهم عظمت الآيات المصدقين بيوم الدين،

فأبرزت أعمالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة، وأهمها الصلاة التي تقوم طباعهم، وتهذب نفوسهم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾

شديد الهلع، فسره تعالى بقوله:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَرُوعًا ﴿٢٠﴾﴾

أي: مبالغاً في الجزع، وهو أبلغ من الحزن، لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

أي: مبالغاً في المنع والإمساك.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾

وهو استثناء الجمع من الواحد، لأن الإنسان الواحد في معنى الجمع، فأهل الصلوات الخمس ليسوا كذلك.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يحافظون عليها في أوقاتها، ولا يشغلهم عنها شاغل.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾

كالزكوات والنفقات الموظفة عليهم في أوقات معلومة.

﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٥﴾﴾

للذي يسأل والذي يتعفف عن السؤال فيحسب غنياً فيحرم.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الَّذِينَ ﴿٢٦﴾﴾

تصديقاً يجعلهم خائفين من عذابه .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

خائفون وجلون، يعملون عمل مَنْ يرجو الثواب ويخاف العقاب .

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا مُنِنَ ﴿٢٨﴾﴾

فلا ينبغي لأحدٍ مهما بالغ في الاجتهاد والطاعة أن يأمنه، بل ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ممسكون لها عما تدعو إليه شهواتهم .

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾﴾

فلا لوم عليهم في قضاء شهواتهم مع أزواجهم، أو ما ملكت أيماهم، ففي الحلال ما يُغني عن الحرام .

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وِرَاءَهُ ذَلِكُمْ فَاولئك هم العادون ﴿٣١﴾﴾

المتجاوزون للحدود المشروعة، فالله حرّم قضاء شهوة الجنس من غير طريق الزواج الشرعي الصحيح وملك اليمين المشروع الصحيح .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

حافظون، فالراعي: القائم على الشيء للحفاظ والصلاح، فالإسلامُ يوجبُ

حفظَ الأمانات والوفاء بالعهود. وفي قراءة: (لأمانتهم).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقومون فيها بالحق ولا يكتُمونها. وفي قراءة: (بشهادتهم).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يراعون شرائطها، ويكتمون فرائضها وسننها. ويدل تكريرُ ذكر الصلاة ووصفهم بها أولاً وآخرأً على فضلها وأهميتها، فالدوام عليها خلاف المحافظة، لأنَّ الدوام يرجع إلى الصلاة نفسها، بينما المحافظة عليها ترجع إلى أحوالها.

﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مَكْرُومٍ ﴿٣٥﴾﴾

أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات في جنات مكرمون، فهم يُكرمون بأعلى درجات الجنان وأفضلها لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون].

* * *

أمانتي خادعة

﴿مَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِن مَّهَطُوا ﴿٣٦﴾ عَنِ النَّبِيِّ وَعَنِ الشَّمَالِ عَرِينٍ ﴿٣٧﴾ أَبْطَعُ كُلَّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ بَعِيرٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا لَخَلَقْتَهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَّمَ أَنْ تُدَلَّ حَبْرًا مِنْهُمْ وَمَا تَحْنُ بِمَسْتُوفِينَ ﴿٤١﴾ فَدَرَّهْمٌ يَتَّخِضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ ﴿٤٣﴾ حَشَعَةً أَنْصَرَهُمْ نَرَهُهُمْ دَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

وكان كبار المشركين في مكة يجتمعون حول النبي ﷺ يستهزئون به

ويكذبونه، فهَوَّنت الآيات من شأنهم، وحقَّرت أمرهم للنبيِّ ﷺ تشيئاً له في مواجعتهم ودعوتهم.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ (٣٦)

أي: ما بالهم مسرعين مقبلين إليك مادي أعناقهم وهم ينظرون إليك؟.

﴿عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ (٣٧)

أي: عن يمين النبي عليه الصلاة والسلام وشماله جماعات متفرقة، فكان كل فرقة تعتزي وتنتسب إلى غير من تعتزي إليه الأخرى، وكان رسول الله ﷺ ينكر على أصحابه إذا رأهم كذلك، ففي الحديث: عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: خرج علينا النبي ﷺ فرأنا حلقاً فقال: «ما لي أراكم عزين؟!» [رواه مسلم (٤٣٠)].

﴿أَيُّطِعُ كُفْلُ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ (٣٨)

بلا إيمان ولا تصديق بيوم الدين، وهو إنكار لقولهم: لو صحَّ ما يقوله محمد ومن معه ل نكون فيها أفضل حظاً منهم.

﴿كَلَّا إِنَّآ خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن هذا الطمع الكاذب والأمانى الخادعة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من نطفة مهينة حقيرة أبهم ذكرها إشعاراً بأنه يُستحيا من ذكرها، فمن أين يشرّفون ويدعون التقدّم على المؤمنين، فالإنسان يشرف بالإيمان والطاعة ومن لم يكن مؤمناً مطيعاً لا يتبوأ منازل الكاملين يوم القيامة.

ثم أكدت الآيات هوانهم على الله تعالى بهذا القسم:

﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿فَلَا أُقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: مشارق النجوم ومغاربها، أو مشرق كل يوم ومغربه، وهو قسم عظيم يشير إلى دقة النظم الكونية وإحكامها وإتقانها.
﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ أي: إنا لقادرون على إهلاكهم، وعلى أن نخلق أفضل منهم وأطوع لله، فوجودهم أمرٌ غيرٌ لازمٍ إذ هو منوط بمشيئة الله وقدرته.
﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين عن ذلك.

﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُونَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

أي: فذرهم يخوضوا في أباطيلهم، ويلعبوا في دنياهم، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون فيه بالجزاء والحساب.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ﴾ أي: يخرجون من القبور مسرعين.
وفي قراءة: (يُخْرَجُونَ) بضم الياء.
﴿كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنهم إلى عَلمٍ منصوب على الطريق يُسرعون.
والمرادُ أَنَّهُمْ يخرجون مسارعين إلى الداعي، والإسراعُ في السير إلى المعبودات الباطلة كان عادة المشركين.
وفي قراءة: (نُصُبٍ) بفتح النون وسكون الصاد.

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةً﴾ أي: تغشاهم وتعلوهم ذلَّةٌ شديدة.
﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا وهم يكذبون به.



تفسير سورة نوح دَعْوَةٌ وَدَعَاءٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الإنذار من العذاب الأليم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَلَمْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾ يَعْرِفْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُخَرِّجْكُمْ إِلَىٰ أَهْلِ مَسْجِدٍ ﴿٤﴾ إِنِّي لَأَجَلٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أخبر تعالى في أول سورة نوح ﷺ أنه أرسله إلى قومه منذراً لهم من عذاب أليم:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

أي: خوِّف قومك وحذِّرهم من قبل أن يأتيهم العذاب الأليم، وهو الغرق بالطوفان.

وبادر ﷺ إلى تبليغ الرسالة، والقيام بأعباء الدعوة:

﴿قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

أُبَيِّنْ لَكُمْ رسالة الله، وهي:

﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿٣﴾﴾ .

أي: اعبدوا الله وحده، واحذروا عصيانه، وأطيعوني في ما أمركم به وأنهاكم عنه، فطاعة الرسول طاعة لله تعالى .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ما سلف من ذنوبكم .

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ﴾ أي: ويؤخركم إلى منتهى آجالكم، فلا يعاقبكم،

وقد يكون المراد أنه تعالى يمدُّ في أعماركم، ويدراً عنكم العذاب .

فقد يستدل بهذه الآية من يقول: إِنَّ الطَّاعَةَ وَالْبِرَّ وَصِلَةَ الرَّحْمِ يَزَادُ بِهَا فِي

العمر، كما في الحديث الشريف: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي

أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [رواه مسلم (٢٥٥٧)].

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا إلى الإيمان قبل مجيء

وقت العذاب، فإنه إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون لسارعتن لما أمركم به

وأدعوكم إليه .

* * *

استمرار الدعوة

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُبِينِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ حَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ السَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنْتَكِرُ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَّا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ .

وبذل ﷺ في الدعوة غاية المجهود، وجاوز في الإنذار كلَّ حدٍّ معهودٍ، فليثَّ يدعوهم ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِيهِ فَلِثَّ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. حتى إذا ضاقت عليه الحيل، وقطع منهم الأمل، توجه إلى الله تعالى يشكوهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾﴾ .

أي: دعوة دائمة مستمرة من غير فتور ولا توانٍ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ .

أي: نفاراً وإدباراً.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِيءَ آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ .

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إذا استجابوا وآمنوا.

﴿جَعَلُوا أَصْلِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ سَدُّوا أَسْمَاعَهُمْ عَنْ اسْتِمَاعِ دَعْوَتِي .

﴿وَأَسْتَعْسَفُوا بِآبَائِهِمْ﴾ وَتَغَطُّوا بِثِيَابِهِمْ كِرَاهَةَ النَّظَرِ إِلَيَّ .

﴿وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ اتِّبَاعِي

اسْتِكْبَارًا عَظِيمًا .

والجدير بالذكر أنَّ مشركي قريش كانوا يفعلون مثل هذا عندما كان النبيُّ

ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ

صُدُّوهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] .

واستعمل نوح ﷺ أساليب كثيرة في دعوتهم حرصاً على هدايتهم:

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ (٨) .

أي: أظهرت لهم الدعوة في المحافل العامة.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (٩) .

أي: ثم إنني كررت الدعوة معلناً، فلما لم يقبلوا دعوتهم في السر.

وتفنن ﷺ في دعوتهم فرغبهم تارة:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ (١٠) .

للتائبين .

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ (١١) .

أي: مطراً مدراراً كثير الدر والخير.

﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (١٢).

وعنّهم تارةً أخرى، ولفت أنظارهم إلى التفكير في بدائع مخلوقات الله المبتوثة حولهم:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ (١٣).

أي: ما لكم لا تخافون عظمته؟! أو: لا تأملون له توقيراً؛ أي تعظيماً؟
أو: ما لكم لا تعرفون الله حقاً، ولا تشكرون له نعمة؟! أو: أي عذر لكم في ترك الخوف من الله؟!.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (١٤).

أي: تارةً بعد تارةٍ، وحالاً بعد حالٍ، نطفة ثم علقة ثم مضغة، مما يدل على كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (١٥).

بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (١٦).

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: نوراً لأهل الأرض في ظلمة الليل، وهو في فضاء السماء الدنيا، وإذا كان في فضاء السماء فهو فيهنّ.

﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ أي: مضيئةً بذاتها، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

ومن المعلوم: أن الشمس نيّرة بذاتها، والقمر نيّر بعرض مقابلة الشمس،

فنوره مستمدٌ من ضوء الشمس، قال تعالى: ﴿بَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

ثم ذكّرهم بقدرته تعالى عليهم وبفضله ورحمته:

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١٧)

أي: والله أنشأكم منها فنبتم نباتاً.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ (١٨)

أي: ثم يعيدكم في الأرض بالدفن بعد الموت، ويخرجكم عند البعث إخراجاً محققاً، لا ريب فيه.

وعطف (يعيدكم) بـ (ثم) لما بين الإنشاء والإعادة من الزمان المترaxي.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (١٩)

تتقلبون عليها كما تتقلبون على البساط والفراش، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (٢٠)

أي: لتتخذوا منها طرقاً واسعة، و(من) لتضمين الفعل معنى الاتخاذ.

* * *

المكر الكبير

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَنَ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

هكذا كانت دعوة نوح ﷺ؛ أخلص في دعوتهم، وتفنن فيها، وصب فيها حصيلة عمره المديد، وعصارة تجاربه الكثيرة، فماذا كانت النتيجة؟.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي﴾ أي: لم يجيبوا دعوتي بعد كل هذا الجهاد والعناء، وبعد كل هذا الإنذار والإطعام، وساروا وراء الضالين المضلين.
﴿وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واتبع العامة الأغنياء والرؤساء الذين لم تزدهم كثرة الأموال والأولاد إلا ضلالاً في الدنيا ونقصاً في الآخرة.

﴿وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

أي: مكرًا كبيراً عظيماً، فهو من صيغ المبالغة، وهم الرؤساء والقادة مكروا بنوح ﷺ، فقد كانوا يحرضون العامة على أذاه، ويصدون الناس عن الإيمان به والاستماع إليه، وجمعوا في مكرهم بين الضلال القولي والعملية:

﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَنَ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَقَالُوا لَا نَدْرَنَ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي: لا تدعن عبادتها.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ وفي: قراءة (وُدًّا). وهذه الأسماء المذكورة لخمسة أصنام أفردها بالذكر؛ لأنها كانت أعظمها عندهم، قال ابن عباس رضي الله عنه: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمّا وُدٌّ

فكانت لكلبٍ بدومة الجندل، وأما سُواع فكانت لهُذيل، وأما يعوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نَسْر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، وهذه الأسماء كانت أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلمُ عُبدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

* * *

الدعاء

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرَفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَصْنَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَمَا كُنَّا رَبِّ أَعْمَرَ لِي وَلِوَالِدَيْ وَلَمْ يَدْحَلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي: أضل الرؤساء خلقاً كثيراً، فالضلال استمرّ فيهم عبر

الزمن الطويل لعمر دعوة نوح ﷺ.

﴿وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أي: ولا تزد المشركين بعبادتهم الأصنام إلا

ضلالاً؛ أي: هلاكاً، وهو دعاء عليهم، دلّ على أن نوحاً ﷺ قد امتلأ قلبه غضباً وغيظاً عليهم، فدعا عليهم هذا الدعاء، ولعلّه دعا عليهم بعد أن يش من هدايتهم؛ فقد أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون كما في قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ

لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

واستجاب الله تعالى له :

﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا﴾ أي: من أجل خطيئاتهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا ناراً عظيمة، وفي قراءة: (مما خطاياهم).

وتقديم (مما خطيئاتهم) لبيان أنه لم يكن إغراقهم بالطوفان وإدخالهم في النيران إلا من أجل خطيئاتهم، والفاء في (فأدخلوا) للإيدان بأنهم عذبوا بالإحراق عقيب الإغراق، فيكون دليلاً على إثبات عذاب القبر^(١).

﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ ينصرونهم، ويمنعونهم من عذاب الله.

وكان دعاؤه ﷺ شاملاً كل الكفار ليدل على شدة المعاناة التي تحملها منهم:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: لا تترك أحداً من الكافرين يدور في الأرض.

وأضاف ﷺ على سبيل التعليل قائلاً:

﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ .

قال ذلك لما جربهم، واستقرأ أحوالهم، قال ابن عباس وغيره: كان الرجل ينطلقُ بابه إلى نوح فيقول له: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي حذرني، فيموتُ الكبيرُ وينشأ الصغيرُ على ذلك.

وخشي ﷺ أن يكون دعاؤه بسبب ما لقي منهم، وأنه كالانتقام منهم، وأن نفسه حظاً في ذلك، فأضاف إلى دعائه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين:

﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ (٢٨)

﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ وهذا يدل على أن قومه قاطعوه وهجروه، وصدّوا الناس عن دخول بيته، كما فعل المشركون في مكة عندما قاطعوا النبي ﷺ والمؤمنين في سنوات المقاطعة.

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا يُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَارًا﴾ أي: هلاكاً ودماراً.

تنبيه: لا بدّ لي أن أنبه إلى الخطأ الجسيم الذي وقع فيه سيد قطب رحمه الله في ما كتب في «الظلال» في هذه السورة قال: «ولا نملك أن نسأل كيف تلبّست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني»^(١).

وقد سبق ونهتُ إلى مثل ذلك في سورة الحجر، وبينتُ خطورته ومصادمته لحقيقة العقيدة الإسلامية، وقد عاد غفر الله له، فكّرّه في سورة نوح، وأضاف قائلاً: «كما أنّ استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - جماعة منهم - معناه اتصال الفناء بالبقاء، والجزء بالكل، والمحدود الناقص بالكامل المطلق»^(٢).

وهذا ليس من الإيمان ولا من معناه، ولا من حقيقته، والإيمانُ هو التصديقُ بدعوة التوحيد التي دعا إليها جميعُ الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم.



(١) في ظلال القرآن: ٦/٣٧٠٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

تفسير سورة الجن الْجِنُّ الْمُؤْمِنُونَ فِي سُورَةِ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
المستمعون للقرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى حَدْ رِبًّا مَا أَتَدَّ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ .

أخبر الله تعالى في أول سورة الجن بأن نفراً منهم استمعوا للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن الكريم:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ .

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: قل يا محمد: أعلمت بواسطة الوحي أن نفراً من الجن استمعوا إليّ وأنا أقرأ القرآن. والنفر: ما بين الثلاثة إلى العشرة.

ودل ظاهر الآية على أن النبي ﷺ ما رآهم، وهو ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر

السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطينُ إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب؛ قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمرَّ نفرٌ الذين أخذوا نحو تهامة وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً... فأنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...﴾ [رواه مسلم (٤٤٩)].

وأثبتها ابن مسعود رضي الله عنه فقال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم؟ فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه، فقرأتُ عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم، وأثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: «لكم كلُّ عظمٍ ذُكِرَ اسمُ الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكلُّ بعرةٍ علقت لدوابكم، فلا تستنجوا بهما، فإنهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠)].

قال ابن حجر: «ويمكن الجمع بالتعدد، فإن الذين جاؤوا أولاً كان سبب مجيئهم ما ذُكِرَ في الحديث من إرسال الشهب، وسبب مجيء الذين في قصة ابن مسعود أنهم جاؤوا بقصد الإسلام وسماع القرآن، والسؤال عن أحكام الدين، ولا يلزم من عدم ذكر اجتماعه بهم حين استمعوا ألا يكون اجتمع بهم بعد ذلك.

وفي الحديث: إثبات وجود الشياطين والجن، وأنهما لمسمي واحد، وإنما صاروا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن بهم: إنه شيطان.

وفيه: أن الصلاة في الجماعة شرعت قبل الهجرة.

وفيه: مشروعيتها في السفر، والجهر في القراءة في صلاة الصبح، وأن

الاعتبار بما قضى الله للعبد من حسن الخاتمة، لا بما يظهر منه من الشر ولو بلغ ما بلغ، لأن هؤلاء الذين بادروا إلى الإيمان بمجرد استماع القرآن لو لم يكونوا عند إبليس في أعلى مقامات الشر ما اختارهم للتوجه إلى الجهة التي ظهر له أن الحدث الحادث من جهتها، ومع ذلك غلب عليهم ما قضى لهم من السعادة لحسن الخاتمة، ونحو ذلك قصة سحرة فرعون^(١).

﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي: فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم: إنا سمعنا قرآنًا بديعاً مبيناً لكلام الناس في حسن التّظم ودقة المعنى.

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي: يدعو إلى الحق والصواب، فآمنّا بالقرآن، وصدقنا بالله الواحد الأحد، وأنه ربُّ كل شيء ومليكه.

﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ أي: ولن نعود إلى ما كنّا عليه من الشرك، ويبدو أنهم كانوا مشركين.

ففي الآية تبيّنت لمشركي قريش المتثاقلين عن قبول دعوة التوحيد، فإنّ الجنّ مع تمردهم، وهم من غير جنس الرسول عليه الصلاة والسلام، لما سمعوا القرآن الكريم بادروا إلى الإيمان، ودخلوا في الإسلام.

والنبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه فهو من المؤمنين، ومصيره إلى الجنة، ومن كفر به، فهو من الشياطين المعذّبين، ومصيره إلى النار، فالجنُّ مُتَعَبِّدُونَ بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقتهم وبحالهم^(٢).

وبعد أن أعلنوا إيمانهم بالله تعالى عظموه ونزهوه عن صاحبة والولد:

(١) فتح الباري: ٦٧٥/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٣٧١/٦.

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾ .

أي: تعالى جلالاً ربنا وعظمته عن أن يتخذ صاحبة وولداً، لأنه تعالى منزّه عن كل نقص.

فالجَد: العظمة، ومنه قول عمر أو أنس: كان الرجلُ إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدًّا فينا، أي: عَظَمَ في عيوننا^(١).

وقيل: الجَد: الغنى، ومنه الحديث: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» [رواه البخاري (٦٣٣٠) ومسلم (٥٩٣)] أي: لا ينفعُ ذا الغنى غناه، وقيل: القدرة والأمر، والآؤه ونعماؤه على خلقه ومملكه.

وفي قراءة: (وإنه تعالى) بالكسر على أنه من جملة المحكي من أقوالهم، وكذا ما بعده، إلا قوله: ﴿وَأَلْوِ اسْتَقْمُوا﴾ [الجن: ١٦]، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الجن: ١٩] فإنها من جملة الموحى به.

* * *

سفه وضلال

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا طَنَّ أَن لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَنْ يَنعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ .

ويعد أن أعلنوا إسلامهم وصفوا بعض ما كانوا عليه من سفه وضلال:

﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾ .

أي: قولاً ذا شطط، وهو البعد ومجاوزة الحد.

أو: هو شطط لفرط ما شَطَّ منه، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله سبحانه .

والمراد من السفية: الجاهل، أو إبليس، أو كل متمرّد من الجن .

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ .

أي: ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤون الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه، فلمّا سمعنا القرآن علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله، فقد نورّ سماع القرآن الكريم بصائرهم، ونبههم من غفلتهم .
وفي قراءة: (أَنْ لَنْ تَقُولَ) بفتح القاف وتشديد الواو، والمعنى: ظنناهم صادقين في قولهم: لله صاحبة وولد، وعلمنا كذبهم حين سمعنا القرآن .

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

أي: وكان الرجل من العرب إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سفهاء قومه، فزادوا الجن باستعاذتهم بهم كبراً وعتوّاً، أو فزاد الجن الإنس ضلالاً وإثمًا. وأصل الرهق: غشيان المحذور .

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ .

أي: وأنّ الجن ظنوا كما ظننتم يا أهل مكة أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت، فقد كانوا ينكرون البعث كإنكاركم، ثم اهتمدوا بسماع القرآن الكريم، وأقروا بالبعث، فهلا أقررتم كما أقروا؟! .
هكذا أثر استماع القرآن الكريم بالجن، فطهرهم من العقائد الفاسدة، ومن سفه الجاهلية وضلالها .

الحرس والشهب

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ
فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشْدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِرَ اللَّهَ فِي
الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِرَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَهْدِيَءَ أَمَّنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ كَسَسًا
وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِمَّا الْمُتْسِلُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ مَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا
الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ .

ومن لطف الله بعباده ورحمته بخلقه حفظه لوحيه الموحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، فلما بُعث محمد ﷺ حُفِظَتِ السَّمَاءُ، وطُردت الشياطينُ عن مقارها .

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾﴾ .

أي: طلبنا بلوغ السماء واستراق السمع، فوجدناها مليئة حرساً شديداً من الملائكة، وشهباً مضيئة محرقة من الكواكب .

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾﴾ .

﴿وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ﴾ أي: كنا نجد فيها أماكن خالية يمكن استراق السمع منها .

﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾ أي: يجد شهاباً راصداً له ولأجله، يمنعه عن الاستماع .

وتساءلوا عن سِرِّ حراسة السماء ومنع استراق السمع:

﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ .

أي: خيراً وصلاحاً أو رحمة، ويلاحظ أدهم مع الله تعالى، فأضافوا الخير إليه، وأضافوا الشر إلى غير فاعل.
ثم وصفوا أحوالهم واختلاف عقائدهم:

﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ .

﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّالِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: وأنا ممَّا الأبرار المتقون، ومنا قوم دون ذلك مقتصدون في الصلاح أو غير صالحين.
﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي: كنا جماعات مختلفين، أو كانت طرائقنا طرائق مختلفة. والقدة: القطعة من الشيء، من قَدَّ إذا قطع.

﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ .

أي: وأنا علمنا أننا لن نعجز الله أينما كنا في الأرض أو إذا هربنا إلى السماء، فنحن في قبضة قدرته تعالى في أي مكان في الأرض أو في السماء.

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدْيَ ءَأَمْنَا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ .

﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدْيَ ءَأَمْنَا بِهِ﴾ أي: لما سمعنا القرآن الكريم آمنا به. وهو من نعم الله عليهم فهو فخر لهم وشرف رفيع.
﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: فلا يخاف نقصاً في ثوابه، ولا ذلة ترهقه وتغشاه، لأنه لم يبخس أحداً حقاً، ولم يرهقه ظلماً، فالقرآن الكريم يهذبُ النفوسَ ويربيها فلا تعتدي على أحدٍ ولا تظلم أحداً.

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ .

﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ أي: وأنا منَّا المستسلمون لله تعالى ولأحكام دينه وشرعه، ومننا الجائرون العادلون عن الحق. فالقاسط: الجائر. وأمَّا المُقْسِطُ: فإنه العادل. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: طلبوا طريق الحق وتوخواه.

﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ .

أي: وقوداً تُسَعَّرُ بهم.

* * *

الرخاء والأمن

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١٦﴾﴾ لِنَفْسِهِمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ صَرًا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيبَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أَصْعَفُ نَاصِرًا وَاَقْلَ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ .

ثم بيّن تعالى ما يترتب على الاستسلام لدينه، والتزام أحكام شريعته، من سعة ورخاء في العيش، وأمن ونجاة من العذاب:

﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١٦﴾﴾ .

أي: لو استقام الإنسان والجنُّ على التمسك بأحكام دينه وشريعته لأسقيناهم

ماءً كثيراً. وذكر الماء لأنه سبب سعة الرزق.

﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ (١٧).

﴿لَتَفْنِيَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم كيف يشكرون، ونعاملهم معاملة المختبر.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: ومن يعرض عن طاعة ربه وعبادته يدخله عذاباً شديداً شاقاً لا راحة فيه. وفي قراءة: (نسلكه) بالنون. وأساس الاستقامة عبادة الله وحده.

﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨).

أي: وأوحى إليّ أنّ البيوت المبنية للصلاة مختصة بالله تعالى وحده، فلا تعبدوا فيها غيره. أو: أنّ السجود لله، فلا تسجدوا لغيره.

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٩).

أي: وأنه لما قام محمد ﷺ يعبدُ الله، ويقرأ القرآن، كاد الجنُّ يركبُ بعضهم بعضاً من الازدحام عليه، حرصاً على استماع القرآن الكريم.

أو: لما قام الرسول ﷺ بالدعوة تلبّدت الإنسُ والجنُّ، وتظاهروا عليه، ليبتلوا الحقّ الذي جاء به، فأمر عليه الصلاة والسلام بمواجهتهم، وأن يقول لهم بثبات وثقة:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٠).

فلم تتعجبون وتزدحمون؟ فليس ذلك بمنكر يوجب مقتي، والإعراض عن دعوتي. وفي قراءة: (قال) بالألف.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿٢١﴾ .

أي: مضرّة ولا نفعاً، فلا أقدر على أن أدفع عنكم ضرراً، ولا أجلب إليكم رشداً، فكل ذلك بمشيئته تعالى وقدرته .

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لن يمنعني من الله أحد إن عصيته .
﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأً ألاجأ إليه .

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ ففي تبليغ الرسالة الجواز والأمن والنجاة، فلا أمن لي إلا إذا أطعته، وأديت ما كلفني به من تبليغ الرسالة .
ولهذا قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: «اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟» . وزاد في رواية: «اللهم اشهد» [رواه البخاري (١٧٣٩)] .
﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بعد أن تبلغه الرسالة .
﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ فعلى الرسول البلاغ، وعلى المكلفين من الإنس والجن السمع والطاعة، وإلا فإن العذاب ينتظرهم .

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب في الدنيا أو في الآخرة .
﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهو أم هم؟ فالكافرون لا ناصر لهم .

يومئذ .

بطلان الكهانة والتنجيم

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِٗ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُٗ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدِ اتَّبَعُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ .

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: لا أدري أ قريب ما توعدون من العذاب إن كفرتم وأعرضتم؟! .

﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: غاية بعيدة، فإنكم معذبون لا محالة، ولكن لا أدري أ هو حال أم مؤجل .

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِٗ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ .

الله عالم الغيب، فلا يُطلع على غيبه أحداً من خلقه .

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُٗ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ أي: إلا من يصطفيه لرسالته ونبوته، فيظهره على ما يشاء من الغيب حتى يكون دليلاً على صدق رسالته، وصحة نبوته ومعجزة له .

ويجوز أن يلهم الله بعض أوليائه وقوع بعض الوقائع في المستقبل، فيخبر به، فتكون كرامة له، والفرق أن المعجزة أمر خارق للعادة مع عدم المعارضة مقرونة بالتحدي، بينما الكرامة لا تقرن بالتحدي، وتكون من غير دعوى .

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى بطلان الكهانة، فقد انسدت بمبعث النبي ﷺ وكذلك التنجيم، فمن ادعى منهم اطلاقاً على عَيْبٍ فقد كفر بما جاء به القرآن^(١).
﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ أي: فإن الله يجعل حول الرسول ﷺ حفظة من الملائكة يحفظونه من الجن.
وفي قوله: (يسلك) من الحُسن ما فيه، فهو يصوّر الجهات التي تأتي منها الشياطين بالثغور الضيقة والمسالك الخفية.

﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم كاملة بلا زيادة ولا نقصان، والمراد ليعلمه موجوداً حاصلاً بالفعل. وفي قراءة: (ليعلم) بضم الياء، أي: ليعلم الناس.
﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ أي: وأحاط بجميع أحوال الرسل وبما عندهم من العلم، وأحصى كل شيء عدداً، حتى قَطُرَ الأمطار، وورق الأشجار، وحب الرمال، فكيف لا يحيط بما عند الرسل من وحيه وكلامه ﷻ وسع علمه كل شيء؟! ..



تفسير سورة المزمّل

قيام الليل في سورة المزمّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تأنيس وملاطفة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فِرَّ أَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ تَصَفَّهُ: أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ وَرَقَلِ الْقُرْآنَ
تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة المزمّل بنداؤ النبي ﷺ فقال:

﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾﴾ .

أي: يا أيها الملتف في ثيابه، وأصله: المزمّل، فأدغمت التاء في الزاي.
ونداؤه عليه الصلاة والسلام بذلك تأنيس له وملاطفة، على عادة العرب في
اشتقاق اسم للمخاطب من صفته التي هو عليها.
وفي الآية تنبيه لكل راقِد في الليل، لينتبه إلى قيام الليل، وذكر الله تعالى
فيه، لأنّ الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه مع المخاطب كل من عمل ذلك
العمل واتصف بتلك الصفة^(١).

ولم يخاطب ﷺ بالنبي والرسول في هذه الآية لأنه لم يكن قد قام بالتبليغ بعد، وإنما كان في بدء الوحي، ففي حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: أول ما بُدئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبَّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه - وهو التعبُّد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ [العلق] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. [رواه البخاري (٣)].

ويبدو أن هذه الآيات نزلت على النبي ﷺ في هذه الفترة.

﴿قُرْآنٌ لَيْلٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾﴾ .

أي: قم للصلاة والعبادة في الليل إلا قليلاً تنام فيه .
ثم بين تعالى قدر القيام فقال :

﴿نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾﴾ .

أي: قم نصف الليل، أو انقص منه قليلاً إلى الثلث .

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ .

﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ أي: أو زد على النصف إلى الثلثين .

جعل الله له سَعَةً في مدة قيامه، فخيرَه بين النصفِ أو أنقص منه إلى الثلث، أو أكثر من النصف إلى الثلثين، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

ودلت الآيات على أن قيام الليل كان فرضاً على النبي ﷺ في بواكير الدعوة، ثم خفف عنه فصار تطوعاً، ففي الحديث الشريف: أن سعد بن هشام عندما دخل على السيدة عائشة رضي الله عنها وسألها قائلاً: أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ، فقالت: ألسنتَ تقرأ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْتَلُّ﴾؟ قلتُ: بلى، قالت: فإنَّ الله ﷻ افترض قيامَ الليلِ في أول هذه السورة، فقام نبيُّ الله ﷺ وأصحابُه حولاً، وأمسك اللهُ خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء، حتى أنزل اللهُ في آخرِ هذه السورة التخفيف، فصارَ قيامُ الليلِ تطوعاً بعدَ الفريضة. [رواه مسلم (٧٤٦)].

قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومما يؤكد أن قيام الليل صار تطوعاً في حقه عليه الصلاة والسلام قولُ المغيرة رضي الله عنه: إن كان النبي ﷺ ليقوم - أو ليصلي - حتى ترمَ قدماه - أو ساقاه - فيقالُ له، فيقول: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً؟» [رواه البخاري (١١٣٠)].

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي: اقرأ القرآن على تمهّل، فإنّه يكونُ عوناً على فهمه وتدبره، وكذلك كان يقرأ عليه الصلاة والسلام، فعن قتادة قال: سئل أنسُ: كيف كانت قراءةُ النبي ﷺ؟ فقال: كانت مدّاً. ثم قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، يمدُّ بسم الله، ويمدُّ بالرحمن، ويمدُّ بالرحيم. [رواه البخاري (٥٠٤٦)].

* * *

المهمة الثقيلة

﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَعَةً طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكَرَ أَسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الشَّرْقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَدَرَنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قِيلًا ﴿١١﴾ ﴾

ثم بيّن الله تعالى الحكمة من التكليف بقيام الليل فقال:

﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَالَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ . ﴾

وهو القرآن الكريم، فقد كُلف النبي ﷺ بالعمل به، ودعوة الناس إليه. والصلاة تعين المصلي على القيام بأعباء التكليف، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

فالصلاة تمدُّ المصلي بقوة روحية كبيرة تقويه في مواجهة المصاعب، وتعينه على احتمال الشدائد، ولهذا ندب الله سبحانه السيدة مريم إلى زيادة عبادتها وصلاتها قبل أن تحمل المهمة الثقيلة التي اصطفها لها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَايِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران].

وفي سنن أبي داود [١٣١٩]: من حديث حذيفة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى .

وتلقَّى النبي عليه الصلاة والسلام القرآن من الوحي كان أيضاً ثقيلاً عليه، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ

فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلةِ الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصمُ عني، وقد وعيتُ عنه ما قال، وأحياناً يتمثلُ لي الملكُ رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشةُ رضي الله عنها: وقد رأيته ينزلُ عليه الوحي في اليومِ الشديدِ البردِ فيفصمُ عنه وإنَّ جبينه ليتفصدُ عرقاً. [رواه البخاري (٢)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسولُ الله ﷺ يعالجُ من التنزيلِ شدةً. [رواه البخاري (٥)].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾

أي: إنَّ العبادة التي تنشأ بالليل وتحدث هي أشدُّ خشوعاً وإخلاصاً وأصحُّ قراءةً وأثبتُّ، فمواطأة القلب للسان أكثر في صلاة الليل. وفي قراءة: (وطاء). فالعبادة في الليل أشدُّ نشاطاً، وأكثر إخلاصاً، وأبعد عن الرياء، وأكثر بركةً، وأبلغ في الثواب.

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾

أي: تصرفاً وتقلباً في حوائجك وأشغالك، فاصرف وقتك في الليل للعبادة. وأصلُ السبح: المرُّ السريع في الماء، فاستعير للذهابِ مطلقاً.

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أي: دم على ذكره بالليل والنهار، أو أكثر من ذكره على أيِّ وجه كان من تسبيح وتهليل وتحميد وقراءة قرآن وذكر اسم من أسمائه الحسنی وغير ذلك.

﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾: وانقطع إليه بالعبادة، وجرَّد نفسك عما سواه،

واستغرق في مراقبته سبحانه.

فالتبتلُ المأمورُ به الانقطاعُ إلى الله بإخلاص العبادَةِ، بينما التبتُّلُ المنهَى عنه هو سلوكُ مسلكِ النصارى في ترك النكاح والترهبِ في الصوامع، لكن عند فساد الزمان «يوشكُ أن يكونَ خيرَ مالِ المسلمِ غَنَمٌ يتبعُ بها شعفَ الجبالِ، ومواقعَ القطرِ، يفرُّ بدِينه من الفتن» [كما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (١٩)].

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾.

أي: هو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو، فتوكل عليه، وفوض أمرك إليه. أو: اتخذه ولياً وكفياً.

وفي قراءة: (ربُّ المشرق والمغرب) بالجر على البدل من (ربك). وبينت الآيات ثقل المهمة التي كُلف بها عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال أمرها له بالصبر، ووعيدها المعارضين له والمكذبين.

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: واصبر على ما يقولون من التكذيب والأذى، واعتزلهم اعتزلاً حسناً بقلبك مع حُسنِ المحافظة وترك المكافأة.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أي: وكل إلي أصحاب النعم والغنى. والمراد: دعني وإياهم، وكل إلي أمرهم، فإني أكفيك شرهم. ﴿وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا﴾ إمهالاً قليلاً أو زماناً قليلاً.

* * *

بعث النار

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَحَدْنَاهُ أَحَدًا وَيَلَا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَنْقُوتُ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ .

وشدّدت الآيات وعيدها بوصف بعض ما أعد الله لهم يوم القيامة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ﴿١٢﴾﴾ .

أي: إن عندنا في الآخرة قيوداً عظاماً ثقلاً، وناراً محرقة. والنكل: القيد الثقيل.

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ .

وطعاماً غير سائغ في الحلق، ونوعاً آخر من العذاب مؤلماً يصل ألمه إلى القلب، لا يحيط بقدره إلا الله تعالى.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتترزّل.
 ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ أي: وصارت الجبال رملاً مجتمعاً سائلاً غير متماسك قبل أن تنسف، فلا يبقى منها شيء، وتصبح هباءً منثوراً.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنا أرسلنا إليكم يا أهل مكة رسولاً

يشهد عليكم يوم القيامة بالكفر والتكذيب .

﴿كَأَنزَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ وهو موسى عليه السلام .

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾

أي: شديداً ثقيلاً، يعني: فعاقبناه عقوبة عظيمة غليظة .
فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسولَ فيصيبكم ما أصاب فرعون . ولكنهم كذبوه، وأعرضوا عن دعوته، فوجهت الآيات الخطابَ إليهم توبخهم على ذلك :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾

أي: كيف تتقون العذاب يوم القيامة إن بقيتم على الكفر في الدنيا، وهو يوم يشيب فيه الولدان من شدة هوله .

أو: كيف يحصل لكم أمانٌ في هذا اليوم إن كفرتم؟! .

وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«يقولُ اللهُ: يا آدمُ، فيقولُ: لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، يقول: أخرجِ بَعَثَ النارِ، قال: وما بعثُ النار؟ قال: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَةٌ وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ، فذاك حين يشيبُ الصغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمَلٍ حَمَلَهَا، وترى الناسَ سُكَّارِي، وما هم بسكَّارِي، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ» .

فاشدد ذلك عليهم فقالوا: يا رسول الله أين ذلك الرجل؟ قال: «أبشروا فإنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» - أي: منكم رجلٌ مُخْرَجٌ» .

ثم قال: «والذي نفسي بيده إنِّي لأطمعُ أن تكونوا ثلثَ أهلِ الجَنَّةِ» فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال: «والذي نفسي بيده إنِّي لأطمعُ أن تكونوا شطرَ أهلِ الجَنَّةِ، إنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّورِ الْأَسْوَدِ أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحَمَارِ» [رواه البخاري (٦٥٣٠)] .

وقد استشكل بأن ذلك الوقت لا حمل فيه ولا وضع ولا شيب، ولهذا رأى

بعضهم أنه على الفرض والتمثيل، فمن المعروف أن الهموم والأحزان إذا تعاقبت على الإنسان أسرع فيه الشيب.

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يُحْمَلَ على حقيقته، فإن كل أحد يبعث على ما مات عليه، فتبعثُ الحاملُ حاملاً، والمرضعُ مرضعاً، والطفلُ طفلاً، فإذا وقعت زلزلة الساعة، وقيل ذلك لآدم، ورأى الناسُ آدم، وسمعوا ما قيل له، وقع بهم من الوجل ما يسقط معه الحَمْلُ، ويشيبُ له الطفل، وتذهلُ به المرضعة»^(١).

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنْ كَفَرْتُمْ﴾: وتقديره تقدير مشكوك في وجوده، ما ينبه على أنه لا ينبغي أن يبقى مع إرسال هذا الرسول لأحد شبهةً تبقى في الكفر فهو النور المبين^(٢)، فهو كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١].

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ۗ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: السماء على عظمها وإحكامها شيء منشق لشدة ذلك اليوم وهوله، فما ظنك بغيرها من الخلائق؟! أو تنشق بأمره سبحانه. ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ أي: كان وعده سبحانه كائناً لا محالة فيه ولا خلف. أو: كان وعد هذا اليوم واقعاً كائناً لا محيد عنه.

وعقب الآيات على هذا الوعيد الشديد المرعب بقوله تعالى:

﴿إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ ۚ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾

﴿إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ﴾ أي: إن هذه الآيات عظة بليغة يتعظ بها أولو الألباب، فيبادرون إلى الإيمان واتباع طريق الإسلام.

(١) فتح الباري: ٣٩٠/١١.

(٢) روح المعاني: ١٣٦/٢٩.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾: فهو السبيلُ المؤدي إلى رضوان الله ورحمته، فلإنسان مشيئةً وكسبٌ واختيار، وهي أساسُ التكليف والمسؤولية.

* * *

تخفيف قيام الليل

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُهُ وَتُلْتَهُ. وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْتَمِلُهُ فَنَابَ عَلَيْكُمُ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْبِلُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَقُولُوا بِإِثْمِهِمْ إِنَّا نَكْفِرُهُمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم عادت الآياتُ إلى قيام الليل، فأنزل الله فيها التخفيف، كما سبق معنا في حديث السيدة عائشة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُهُ وَتُلْتَهُ. وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْتَمِلُهُ فَنَابَ عَلَيْكُمُ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقْبِلُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَقُولُوا بِإِثْمِهِمْ إِنَّا نَكْفِرُهُمْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَيَضَعُهُ وَتُلْتَهُ. وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم ذلك المقدار جماعةً من أصحابك.

وفي قراءة: (ونصفه وثلثه) بالخفض عطفًا على (ثلثي).

﴿وَاللَّهُ يَدْرُسُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: والله يعلم مقادير الليل والنهار، فيعلم القدر الذي تقومون به من الليل.

أو: والله يعطي كلاً من الليل والنهار قدره، كما في قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَقَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] فتارةً يعتدل الليل والنهار، وتارةً يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، وكل ذلك بتقديره تعالى.

﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ أي: علم أنه لن تطبقوا قيامه على هذه المقادير إلا بشدة ومشقة فخفف عنكم.

﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾: بالترخيص في ترك القيام المقدر، ورفع المشقة عنكم كما رفع التبعة عن التائب.

﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآناً كما في قوله تعالى: ﴿أَقْرِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

واستدل أبو حنيفة رحمته الله بالآية لقوله: إِنَّ الْفَرْضَ فِي الصَّلَاةِ مَطْلُقُ الْقِرَاءَةِ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فَوَاجِبٌ مِنْ وَاجِبَاتِهَا. ثم بين سبحانه علّة التخفيف فقال:

﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخَرُونَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: علم أنه سيكون منكم مرضى، وآخرون يسافرون طلباً لكسب الرزق، وتحصيل العلم، وآخرون يجاهدون في سبيل الله، وهي أعمال شاقة، يحتاج أصحابها إلى النوم والراحة بالليل.

﴿فَأَقْرَهُوْا مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: صلوا ما أمكن.

وكرر الأمر بالتيسير لشدة حرصهم على قيام الليل.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: أدوا ما أوجب عليكم من صلاة وزكاة.

وهذا يدل على أن الزكاة فُرِضَتْ في مكة قبل الهجرة، لكن مقاديرها لم تبيّن إلا بعد الهجرة في المدينة المنورة.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ فَرَسًا حَسَنًا﴾: بالنوافل والصدقات غير الواجبة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ فما قدّمتم خير مما أخرتم إلى الوصية عند الموت، فالذي تقدمونه لأنفسكم خير من الذي أخرتموه ولم تقدموه.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: استغفروا الله في جميع أحوالكم، فإنّ الإنسان لا يخلو من تقصير، والله يستر على أهل الذنب والتقصير، ويرحم أهل الجهد ويخفف عنهم.



تفسير سورة المدثر

التَّبْلِيغُ وَالتَّذِكْرَةُ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الإنذار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾ فُرُ فَاذِرُ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَذِبُ ﴿٣﴾ وَنَبَاكَ فَطَهْرُ ﴿٤﴾ وَالرُّجُحَ فَاهْمُرُ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَسُّ
تَسْكَنُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ ﴿٧﴾ فَاذَا بَعَّرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عِزٌّ
بِئْسَ ﴿١٠﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المدثر كما بدأ سورة المزمل ببدء النبي ﷺ:

﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِرُ ﴿١﴾﴾ .

أي: المتدثر، أدغمت التاء بالدال، من تدثر، أي: لبس الدثار، وهو ما يُلبس فوق القميص.

نودي عليه الصلاة والسلام باسم مشتق من صفته التي كان عليها تأنيساً له وملاطفةً، كما مرَّ معنا في ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾ [المزمل: ١]، إذ كان ﷺ حديث عهد بالوحي.

وبيّن الحديث الشريف سبب تدثره: فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه

قال - وهو يحدث عن فترة الوحي -: فقال ﷺ في حديثه: «بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً من السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ (١) فَرُّ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَتَبَايَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥)﴾» فحمي الوحي وتتابع. [رواه البخاري (٤)].

ودلَّ الحديث على أن نزول سورة المدثر بعد فترة الوحي.

﴿فَرُّ فَأَنْذِرْ (٢)﴾

أي: قم قيام عزم وجد، واشتغل بالإنذار الذي كلفك الله به، وهو تحذير الكفار من عذاب الله إن لم يؤمنوا.
وقد يكون المراد: يا أيها المدثر بالنبوة دثرت هذا الأمر فقم به.

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (٣)﴾

أي: عظم ربك عن ما يقوله المشركون.
وفي ذكر هذه الجملة بعد الأمر السابق إشارة إلى مزيد الاهتمام بأمر التكبير، فالمقصود الأوَّل من الأمر بالقيام بالإنذار أن يكبر ربه ﷻ، وينزهه من الشرك، كما أن فيها تشجيعاً للنبي عليه الصلاة والسلام على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه، فكل ما سواه مقهورٌ تحت كبريائه تعالى وعظمته، فلا ينبغي أن يُرهَب إلا منه، ولا يُرغب إلا إليه ﷻ.

﴿وَتَبَايَكَ فَطَهِّرْ (٤)﴾

بغسلها وحفظها عن الأقدار والنجاسات.

أو: طهر نفسك عن الأخلاق الذميمة، ففيها إرشادٌ كريم للنبي عليه الصلاة والسلام لكي يطهر دثار النبوة عن ما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر.

﴿وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (٥)

أي: اثبت على هجر الأوثان والأصنام، فقد كان عليه الصلاة والسلام بريئاً منها.

وفي قراءة: (والرَّجْزَ) بالكسر، وأصل معنى الرجز: العذاب، قال: تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، وسُمِّيَت الأوثان رجزاً لأنها تؤدي إلى العذاب.

﴿وَلَا تَمَنَّ تَسْتَكْبِرُ﴾ (٦)

ولا تمنن على ربك بما تتحملة من أثقال النبوة وأعباء الدعوة وتراه كثيراً، إنما عملك من فضله تعالى عليك، أو لا تعط مستكبراً طالباً الكثير، اجعل عملك وعطاءك خالصاً لله تعالى.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (٧)

أي: اصبر على أذى المشركين والقيام بأعباء الدعوة، واجعل صبرك لله تعالى. هكذا أدب الله تعالى في بواكير النبوة النبي عليه الصلاة والسلام بأعلى الآداب وأشرف الأخلاق، ورفعته إلى أعلى الدرجات، وتوعدت الآيات في المقابل معارضيه ومكذبيه بأهوال يوم القيامة.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي النَّافِثِ﴾ (٨)

أي: نفخ في الصور، والمراد: النفخة الثانية.

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾

إذ يلقون فيه عاقبة إعراضهم وتكذيبهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك، فهو يومٌ شديدٌ على الكافرين، يسير على المؤمنين.

المعاند المكذب

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَرِيدَ ﴿١٥﴾ كَلًّا إِنَّهُ كَانَ لِأَيَّتِنَا عِنْدًا ﴿١٦﴾ سَاهِقَهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنِّ هَذَا إِلَّا بَعْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَاهِقَهُمْ سَفَرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا يُعْقَى وَلَا تَدْرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاعِمٌ لِلشَّرِّ ﴿٢٩﴾﴾

ثم خصصت الآيات الوعيدَ برأسٍ من رؤوس الشرك والكفر في مكة المكرمة، أنعم الله عليه بنعم الدنيا، فكفر بأنعم الله، وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود والافتراء:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾

أي: ذرني وحدي معه، فإني أكفيك أمره.

أو: خلقتني وحدي لم يشركني في خلقه أحد.

أو: خلقتني في بطن أمه وحيداً فريداً لا مال له ولا ولد.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾

مبسوطاً كثيراً يمدُّ بعضه بعضاً بالنماء والزيادة.

﴿وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾

حضوراً معه لا يغيبون، يشهدون معه المحافل والمجامع، وهو أبلغ في النعمة.

﴿وَمَهَّدتْ لَهُ تَهْيِيدًا﴾ (١٤).

أي: وبسطت له في العيش بسطاً، ويسّرت له أسباب الرخاء، حتى لُقّبَ ربحانة قريش.

واتفق المفسرون على أنه الوليد بن المغيرة المخزومي، قال ابن عباس: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكبر له، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، فوالله ما يشبهها الذي يقول، والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلَى. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر، يآثره عن غيره. فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا...﴾. [رواه بهذا اللفظ الواحد في (أسباب النزول، ص ٧٠٠) ورواه الطبري (١٥٢/٥٩) والحاكم (٥٠٦/٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يتعبه الذهبي].

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (١٥).

أي: ثم يرجو أن أزيده في ماله وولده مع كفره وجحوده.

﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا﴾ (١٦).

﴿كَلَّا﴾ ردع له، وقطع لرجائه، فلن يجمع له بعد اليوم بين الكفر والمزيد من النعم، وما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان حتى هلك. ﴿إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا﴾ معانداً جاحداً، فكفره كفر عناد، فقد عرف الحق بقلبه، وجحد بلسانه، وهو أقبح أنواع الكفر وأفحشه.

﴿سَأَلَّهُمْ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ .

سأكلفه عذاباً شاقاً لا راحة فيه . والصعود: العقبة الشاقة، وهي جبلٌ من نار يكلفُ أن يصعده .

ثم قال تعالى معللاً هذا الوعيد الشديد:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: فكَّر في الأمر الذي يريده، وقَدَّر في نفسه ما يقول فيه .

﴿فَقُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: عُدِّب أو لُعِنَ؟ كيف قَدَّر هذا التقدير؟! وهو تعجيبٌ معه توبيخٌ وإنكار .

﴿ثُمَّ قُلْ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثم لعن كيف قدر؟! كرهه للتأكيد، و(ثم) للإشعار بأنَّ الدعاء الثاني أبلغ من الأول .

ووصفت الآياتُ أحواله وهو يكذُّ ذهنه، ويعصرُ فكره، بحثاً عن شبهة يحتجُّ بها سترًا لجحوده وعناده:

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: في أمر القرآن الكريم مرة بعد أخرى .

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي: كلع، وقَطَّبَ وجهه كالمهتَّم المتفكر في شيء يدبِّره .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ .

أي: أدبر عن الحق، واستكبر عن الإذعان له واتباعه.

﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّؤْتَرٌ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: ما هذا الذي يقوله محمد إلا سحر يُروى ويُحكى عن السحرة.

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلَ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ .

وهو تأكيد للجملة الأولى، ولذلك لم يعطف عليها.
وجاء الرد على جحوده وعناده عنيفاً شديداً:

﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: سأدخله سقراً، وهو اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

وهو تفخيم لشأنها وتهويل لعذابها.

﴿لَا بَقِيَّةَ وَلَا نَذْرٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: لا تبقي لحماً ولا تذر عظماً.

﴿لَوْاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: هي لواحة للبشر، مسودة للجلود، ومحركة لها.

خزنة جهنم

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَحْصَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَرَدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرْضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ
إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّسْرِ (٣١) كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرَ (٣٤) إِنَّمَا يَلْحَدِي الْكُفْرَ (٣٥)
نَدِيرًا لِلبَشَرِ (٣٦) لَمَن شَاءَ مَسْكُورًا أَن يَفْقَدَ أَوْ يَنْتَحِرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَحْصَبَ إِلَيْهِمْ (٣٩)
فِي جَنَّةٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَوْ نَكُنَّ
نُطْعَمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْفَاطِمِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ (٤٧)
فَمَا نَنْفَعُهُمْ سَفْعَةُ الشَّعِيرَيْنِ (٤٨)﴾ .

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ .

ملكاً، وهم رؤساء ونقباء الملائكة الموكلين بها .

ففي الحديث: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْصَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا وَلَا يَرْآبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرْضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ خُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْبَشَرِ (٣١)﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْصَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ : فهم خلاف جنس المعذبين، فلا تأخذهم الرأفة والرفقة، وهم أشد الخلق بأساً، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسُهُمْ

وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿التحریم : ٦﴾ .

﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : ابتلاءً واختباراً للذين كفروا، وافتنانهم استقلالهم لهم واستبعادهم أن يتولّى هذا العدد القليل تعذيب جميع من في النار من الإنس والجن .

﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْفُوا الْكُتُبَ﴾ : بنبوّة محمد ﷺ ، فإنّ هذا العدد مكتوبٌ في التوراة والإنجيل .

﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ بما يشاهدون من صدق أخبار نبیهم عليه الصلاة والسلام .
﴿ولا يربّاب الذين أوفوا الكتب والمؤمنون﴾ بصدق رسالة النبي عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته .

﴿ويقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي : شك ونفاق، وهو إخبار عن ما سيحدث من المغيبيات بعد الهجرة، فالنفاق حدث في المدينة بعد الهجرة، وآيات السورة مكية .
﴿والكفرون﴾ : المصرون على الكفر والتكذيب .

﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي : ما الذي أراد الله تعالى بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ؟ .

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي : مثل ذلك الإضلال والهدى يضل الله من يشاء من عباده ممن علم منه اختيار الضلال، ويهدي من يشاء من عباده ممن علم منه اختيار الهدى، فالهداية والإضلال لله تعالى وحده، وله الحكمة التامة والحجة البالغة .

﴿وما يعلم جود ربك إلا هو﴾ أي : وما يعلم عددهم وأنواعهم إلا هو ﷻ .

﴿وما هي إلا ذكري للبشر﴾ : وما هذه العدة إلا ذكرى للبشر ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنّه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .
أو : وما سقر وصفتها إلا تذكرة وموعظة للبشر .

أو: وما هذه الآيات إلا موعظةٌ للناس، ليتعظوا بها، ولهذا زجرت الآيات من أنكرها، ولم يتعظ بها:

﴿كَلَّا وَالْقَمَرَ (٣٢)﴾

أي: وأقسم بالقمر، فهو آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته وعظيم رحمته.

﴿وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣)﴾

أي: ولّى ذاهباً.

وفي قراءة: (إذا دبر) على الماضي بمعنى أدبر، وقيل: دبر بمعنى أقبل، تقول العرب: دبرني فلان؛ أي: جاء خلفي، فالليل يأتي خلف النهار.

﴿وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤)﴾

أي: أضاء وظهر. وجواب القسم:

﴿إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبْرِ (٣٥)﴾

أي: إن الإنذار بهذه الآيات القرآنية لإحدى الكبر.

والكبر: جمع كبرى مثل الأوّل والأولى.

ففي الآيات القرآنية تذكيرٌ كبيرٌ، وموعظةٌ بليغةٌ، وما على النبي ﷺ إلا أن يقوم بالإنذار بها:

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦)﴾

فهي كبيرة في حال الإنذار والتذكير.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ (٣٧).

أي: لمن شاء أن يتقدم إلى الخير والطاعة أو يتأخر إلى الشر والمعصية، فهو وعيد شديد خرج مخرج الخبر كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (٣٨).

مرتبهة بكسبها، مسؤولة عن عملها، إما خلصها وإما أهلكتها.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ (٣٩).

فإنهم لا يرتهبون بذنوبهم، لأن الله يغفرها لهم، ويتجاوز عنها.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ﴾ (٤٠).

أي: هم في جنات يسأل بعضهم بعضاً.

﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٤١).

أي: عن أحوال المجرمين، فيقول المسؤولون للسائلين: قلنا للمجرمين:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (٤٢).

وهو سؤال توبيخ وتقرير.

﴿قَالُوا لَوْ نَكُنُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ (٤٣).

أي: لم نصل لله في الدنيا، فقد أعرضنا عن طاعته وعبادته.

﴿وَلَرَّ نَكَ نُطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾﴾ .

فما كنا نهتمُّ إلا بأنفسنا وشهواتنا، فما عبدنا ربنا، ولا أحسنَّا إلى أحد من خلقه كالضعفاء والمساكين .

﴿وَكُنَّا نَحْوُضُ مَعَ الْحَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

وكنا نخالط أهل الباطل والضلال، ونشاركهم في باطلهم وضلالهم؛ فكلمًا غوى غاوي غوينا معه، وكلمًا كذب مكذب كذبنا معه، حتى كذبنا بيوم الحساب والجزاء:

﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ .

فمشاركة الضالين في ضلالهم أمر خطير كبير يؤدي إلى سوء العاقبة والخاتمة.

﴿حَتَّىٰ آتَنَّا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

أي: جاءنا ونزل بنا الموت .

﴿فَمَا نَفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ .

من الملائكة والنبين والصالحين، لأن الشفاعة للمؤمنين دون الكافرين .

* * *

الحمر النافرة

﴿فَمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَىٰ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تُحَدِّثُونَ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۗ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الَّذِينَ يُدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُدْعَوْنَ لِئَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِظُلْمِهِمْ ۚ وَمَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ مَوْجُودَةٌ لَا يَتَذَكَّرُ لَهَا بَشَرٌ مِنْهُمْ وَلَا الْعِزَّةُ الْمُبَشِّرُونَ ۗ﴾

وقام رسول الله ﷺ بإنذارهم، فبلغهم ووعظهم، ومع ذلك ظلوا معرضين عن التذكرة، ولهذا تساءلت الآيات سؤال التعجب من حالهم:

﴿فَمَا لَمْ يَنْتَبِهُوا إِلَىٰ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تُحَدِّثُونَ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۗ﴾

أي: نافرة. شبهوا في إعراضهم ونفاهم عن استماع التذكرة من النبي ﷺ بحُمرِ نافرة، وفي قراءة: (مستنفرة) بفتح الفاء.

﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۗ﴾

وهو الأسد، فالحُمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت منه، وكذلك كان المشركون إذا سمعوا النبي ﷺ هربوا منه، وابتعدوا عنه.

ففي الآية مدمة كبيرة لهم، وتبيح عظيم لحالهم في إعراضهم عن مواظب القرآن الكريم، كما أن فيها شهادة عليهم بالبله وقلّة العقل.

ولم يكتفوا بمجرد الإعراض:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشَرَةً ۗ﴾

أي: قراطيس وكتباً تُقرأ وتُنشر عليهم، يؤمرون بها بتصديق النبي ﷺ واتباعه؛ لهذا زجرتهم الآيات مرة ثانية عن هذه الاقتراحات:

﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣﴾ .

فلذلك أعرضوا عن التذكرة، فاستحقوا أن يزجروا مرة ثالثة:

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ٥٤﴾ .

فالقرآن الكريم تذكرةً بليغةً كافية كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إرْسًا فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٥٥﴾ .

أي: فمن شاء اتعظ به، فإنما يعود نفع ذلك عليه.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ٥٦﴾ .

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله، أو إلا بمشيئة الله، فمشيئته هي الغالبة النافذة.

﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو حقيق بأن يتقيه عباده، ويخافوا عقابه، وهو حقيق أيضاً أن يغفر لهم ما سلف من ذنوبهم إن استجابوا للتذكرة وقبلوا الموعدة. أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.



تفسير سورة القيامة

النَّفْسُ اللّوَاْمَةُ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يوم القيامة والنفس اللوامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٢﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَاْمَةِ ﴿٣﴾ أَلَيْسَ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجَعَ عِظَامَهُ ﴿٤﴾
بَلَى قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴿٥﴾ نَلَّ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٦﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٧﴾ فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصْرُ ﴿٨﴾ وَحَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٩﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿١٠﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَعْرُوفُ ﴿١١﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ
﴿١٢﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٣﴾ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٤﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِرَهُ ﴿١٦﴾

بدأ الله تعالى سورة القيامة بالقسم بيوم القيامة تأكيداً لوقوعها:

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

أي: أقسم بيوم القيامة، ودخول (لا) على القسم مستفيض في كلام العرب وأشعارهم، وفائدتها تأكيد القسم، وفي قراءة: (لأقسم).

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (٢)

وهي النفس التي تلوم صاحبها على التقصير في التقوى.
فَاللَّوَّامَةُ: بمعنى اللائمة، صفةٌ مدح، فهي نفس تحاسبُ صاحبها، وتراقبُ أعماله، قال الحسن البصري: إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللَّهِ - مَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟.. وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قَدَمًا مَا يِعَاتِبُ نَفْسَهُ (١).

ويمكن أن تكون لَوَّامة لأنها تلوم غيرها، وتقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمرادُ من القسم مدحٌ مثل هذه النفس، والتنويهُ بها.
وقد تكونُ صفةَ ذمٍّ، فهي نفسُ الكافر الذي يلوُمُ نفسه، ويتحسّرُ في الآخرة على ما فرّط في جنبِ الله سبحانه، كما في قوله: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقد يكونُ المرادُ مطلق النفس، فليس من نفس محسنة أو مسيئة إلا تلومُ نفسها يومَ القيامة، فالمحسِنُ يلوُمُ نفسه أن لو كان ازداد إحساناً، والمسيءُ يلوُمُ نفسه ألا يكون ارعوى عن إساءته، ولعلَّ هذا سر الاقترانِ في القسم بين يوم القيامة والنفس اللوامة.

وجواب القسم محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُجَمَعَ عِظَامُهُ﴾ (٣)

للإحياء والبعث، فالإنسانُ هنا: الكافرُ المكذّبُ بالبعث.

﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (٤)

أي: بلى قادرين على جمعها وإعادتها كما كانت حتى نسوي العظام

الصغار، فكيف بكبار العظام؟! فالله تعالى قادرٌ على إعادة الجسم البشري وتركيبه كما كان، بحيث لا ينقصُ منه عضوٌ ولا شكلٌ هذا العضو مهما صغر ودق.

وفي الآية إشارةٌ إلى حقيقة علمية اكتشفت في عصور متأخرة عن نزول القرآن الكريم، وهي اختلافُ شكل البصمات في رؤوس الأصابع.

ثم بيّنت الآياتُ كيف يمضي الفاجر قُدماً في طريق الحياة دون أن يعاتب نفسه ويحاسبها ويلومها، كما سبق معنا من كلام الحسن البصري رحمته الله.

﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ .

أي: بل يريد هذا الإنسان المنكر للبعث أن يدومَ على فجوره ما عاش، لا ينزع عنه ولا يتوب! ..

فالإيمانُ بيوم الحساب والجزاء يزكّي نفسَ الإنسان، ويحمله على التوبة والإنابة، ولكنَّ كثيراً من الناس لا يريدون ذلك، ويفضّلون الاستمرار على ما هم عليه من آثام وفجورٍ، لأنَّهم لا يؤمنون بيوم القيامة.

﴿سَتَلَأَبَانُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

سؤال متعنّت مستبعد له .

وردّت الآياتُ على مثل هذا الإنسان وجحوده ليوم القيامة بوصف بعض أحواله في هذا اليوم:

﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَرْقُ﴾ .

أي: تحيرٌ فزعاً ممّا يرى من أهوال يوم القيامة. وقرئ: (برق) بفتح الراء.

﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ﴾ .

أي: ذهب ضوءه وأظلم.

﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ ۙ﴾ (٩)

أي: جمع بينهما في ذهاب الضوء، قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١].
وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشمس والقمرُ يَكْوِرَانِ يومَ القيامة» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].

أو: جَمَعَ بين الشمس والقمر في الطلوع من جهة الغرب، إذ تتغيَّر النظمُ الكونية التي كانت في الدنيا.

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۙ﴾ (١٠)

أي: أين المهربُ وموضع الفرار؟.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۙ﴾ (١١)

أي: حقاً لا ملجأ لهم يهربون إليه، وكانوا إذا فرعوا لجؤوا إلى الجبل فتحصنوا به، فيقال لهم: لا جبلَ لكم يومئذٍ تحصنون به من عذاب الله تعالى.

﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۙ﴾ (١٢)

أي: إلى حكمه تعالى وأمره ومشيتته موضع قرارهم، يدخل من يشاء الجنة، ويدخل من يشاء النار، فيعاملهم سبحانه بحسب أعمالهم التي صدرت عنهم.

﴿يَبْئُؤُا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۙ﴾ (١٣)

أي: بما قدَّم من عمل عمله، وبما أخَّر منه ولم يعمله.

ثم بيَّنت الآيات بأسلوب الإضراب والانتقال دورَ النفس في مراقبة صاحبها، وفي شهادتها عليه يوم القيامة:

﴿بَلِ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: بل الإنسان على نفسه من نفسه رُقباء يشهدون عليه بعمله.

﴿وَلَوْ أَلْفَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: ولو جاء بكل ما يمكن أن يعتذر به، فإن ذلك لا ينفعه، لأن عليه من نفسه ما يكذبُ عذره. أو: ولو أرخى ستوره يريد أن يخفي عمله. وفي الآية دليل على قبول إقرار الإنسان المكلف على نفسه.

* * *

التأني عند نزول الوحي

﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا حَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصُرْهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحْسِنُونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ .

وما دام الإنسان مسؤولاً عن عمله، وعليه من نفسه رقباً وشاهداً، فعليه الأناة وترك الاستعجال حتى في أشرف الأمور، ولهذا التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تحثه على الأناة، وعدم الاستعجال عند تلقي الوحي بالقرآن الكريم:

﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾﴾ .

أي: لا تحرك بالقرآن لسانك عند تلقي القرآن لتأخذه على عجل مخافة أن ينفلت منك شيء منه، أو لمزيد حبك له وحرصك على تبليغه وأداء رسالته. فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٥].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧).

أي: إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ فِي صَدْرِكَ، فَلَا يَذْهَبُ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهُ، وَإِثْبَاتُ قِرَاءَتِهِ فِي لِسَانِكَ بِحَيْثُ تَقْرُوهُ مَتَى شِئْتَ، فَالْقُرْآنُ هُنَا مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى الْقِرَاءَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨).

أي: فَإِذَا قَرَأْتَهُ عَلَيْنَا بِوَسْطَةِ مَلِكِ الْوَحْيِ فَاسْتَمِعْ لَهُ، ثُمَّ اقْرَأْهُ كَمَا أَقْرَأكَ، فَجَعَلَ قِرَاءَةَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قِرَاءَتَهُ تَعَالَى، فَفِيهِ مَا فِيهِ مِنْ تَكْرِيمٍ لِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَعْظِيمٍ لِأَمَانَتِهِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩).

أي: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَعْدَ قِرَاءَتِهِ أَنْ نَبَيِّنَهُ لَكَ وَنَوْضِّحَهُ، وَنُلْهِمَكَ مَعْنَاهُ، كَمَا أَرَدْنَا وَشَرَعْنَا.

قال ابن كثير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ: هَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِرَسُولِهِ ﷺ فِي كَيْفِيَّةِ تَلْقِيهِ الْوَحْيِ مِنَ الْمَلَكِ، فَإِنَّهُ كَانَ يَبَادِرُ إِلَى أَخْذِهِ، وَيَسَابِقُ الْمَلَكَ فِي قِرَاءَتِهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَسْتَمَعَ لَهُ، وَتَكْفَلَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَجْمَعَهُ فِي صَدْرِهِ، وَأَنْ يَبَيِّنَهُ لَهُ وَيَوْضِّحَهُ، فَالْحَالَةُ الْأُولَى: جَمْعُهُ فِي صَدْرِهِ، وَالثَّانِيَّةُ: تَلَاوَتُهُ، وَالثَّلَاثَةُ: تَفْسِيرُهُ وَإِبْضَاحُ مَعْنَاهُ.

وَبَيَّنَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سَبَبَ النُّزُولِ فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ بِالْوَحْيِ، وَكَانَ مِمَّا يَحْرُكُ بِهِ لِسَانَهُ وَشَفْتَيْهِ، فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ يَعْرِفُ مِنْهُ، فَانزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ الَّتِي فِيهَا: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانُكَ لِتَعَجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) قَالَ: عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ وَقِرْآنَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) فَإِذَا أَنْزَلْنَاهُ فَاسْتَمِعْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) عَلَيْنَا أَنْ نَبَيِّنَهُ بِلِسَانِكَ،

قال: فكان إذا أتاه جبريلُ أطرقَ، فإذا ذهبَ قرأه كما وعدهُ اللهُ. [رواه البخاري (٤٩٢٩)].

وعنه أيضاً قال: كان النبي ﷺ إذا نزلَ عليه الوحيُ حرَّك به لسانه - يريد أن يحفظه - فأنزل اللهُ: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [١١]. [رواه البخاري (٤٩٢٧)].
قال ابن حجر رحمه الله: «لم يختلف السلفُ أن المخاطبَ بذلك النبي ﷺ في شأن نزول الوحي، كما دلَّ عليه حديثُ الباب.

وحكى الفخر الرازي: أن القفالَ جوَّزَ أنها نزلت في الإنسان المذكور قبل ذلك في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] قال: يعرض عليه كتابه فيقال: اقرأ كتابك، فإذا أخذ في القراءة تلجلج خوفاً، فأسرع في القراءة فيقال: لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه، أي: أن يجمع عملك، وأن يقرأ عليك، فإذا قرأناه عليك، فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان وما يتعلق بعقوبته. قال: وهذا وجه حسنٌ ليس في العقل ما يدفعه، وإن كانت الآثارُ غيرُ واردةٍ فيه»^(١).

ثم كشفت الآيات سبب الاستعجال عند الإنسان بقوله تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾

أي: حقاً يا بني آدم إنكم تحبون العاجلة، لكونكم جُبلتم وفُطرتم على الاستعجال، قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

وفي مقابل ذلك:

﴿وَيَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾

أي: وتتركون الآخرة والعمل لها، وفي قراءة: (يحبون، يذرون) بالياء.

ولا يخفى ما في الآيات من توجيه لطيف للنبي ﷺ إلى التآني وترك الاستعجال، فالإنسان وإن كان مجبولاً على ذلك، فمثله عليه الصلاة والسلام الذي أكرمه الله بأعلى المناصب والدرجات لا ينبغي أن يستغزّه مقتضى الطباع البشرية، فيحمله على العجلة وترك التآني، ولو كانت العجلة في طلب العلم والاستزادة من الهدى.

* * *

رؤية الله يوم القيامة

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٣١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٣٢﴾ وَوُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٣٤﴾ تَنْظُرُ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٣٥﴾﴾

وفي الآخرة التي تتكونها أعظم اللذات ومنتهى السعادات:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٣٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٣٣﴾﴾

أي: وجوه المؤمنين في الآخرة مشرقة حسنة ناعمة، تنظر إلى خالقها ومالكها، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

فرؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ثابتة، دلت عليها الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة، وهي رؤية تليق بذاته المقدسة، بلا تكييف ولا تشبيه.

فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ سترون ربكم يوم القيامة كما ترون هذا، لا تضامون في رؤيته» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وزاد في رواية ثانية: «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا» [رواه البخاري (٧٤٣٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ تَضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَهَلْ تَضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ» [رواه البخاري (٧٤٣٧)].

قال ابن بطّال: «ذَهَبَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَجُمْهُورُ الْأُمَّةِ إِلَى جَوَازِ رُؤْيَةِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَنْعَ الْخَوَارِجِ وَالْمَعْتَزِلَةَ وَبَعْضَ الْمَرْجُئَةَ، وَتَمَسَّكُوا بِأَنَّ الرُّؤْيَةَ تَوْجِبُ كَوْنَ الْمَرْتِي مَحْدَثًا وَحَالًا فِي مَكَانٍ، وَأَوَّلُوا قَوْلَهُ: (نَازِرَةٌ) بِمَنْتَظَرَةٍ، وَهُوَ خَطَأٌ، لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى بِإِلَى، وَمَا تَمَسَّكُوا بِهِ فَاسِدٌ، لِقِيَامِ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَوْجُودٌ، وَالرُّؤْيَةُ فِي تَعَلُّقِهَا بِالْمَرْتِي بِمَنْزِلَةِ الْعِلْمِ فِي تَعَلُّقِهِ بِالْمَعْلُومِ، فَإِذَا كَانَ تَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِالْمَعْلُومِ لَا يَوْجِبُ حَدُوثَهُ، فَكَذَلِكَ الْمَرْتِي:

وَتَعَلَّقُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وبِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وَالجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ: أَنَّهُ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فِي الدُّنْيَا جَمْعًا بَيْنَ دَلِيلِي الْآيَتِينَ، وَبِأَنَّ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ، لِإِمْكَانِ رُؤْيَةِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ إِحْاطَةٍ بِحَقِيقَتِهِ.

وَعَنِ الثَّانِي: بِأَنَّ الْمَرَادَ: لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ نَفْيَ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي اسْتِحَالَتَهُ، مَعَ مَا جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَلَى وَفْقِ الْآيَةِ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُونَ بِالْقَبُولِ مِنْ لَدُنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ حَتَّى حَدِثَ مِنْ أَنْكَرِ الرُّؤْيَةِ، وَخَالَفَ السَّلَفُ^(١).

وفي مقابل نظرة وجوه المؤمنين وصفت الآيات وجوه الكافرين:

﴿وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾

أي: شديدة العبوس.

(١) فتح الباري: ٤٢٦/١٣.

﴿تَنْظُرُنَّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَّةٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

داهية عظيمة تقصمُ فقار الظهر.

وأريدَ بالظنِّ اليقين كما مرَّ معنا، وقيل: هو على معناه الحقيقي المشهور، والمرادُ تتوَقَّع ذلك، فما هم فيه - وإن كان في غاية الشر - يتوقع بعده أشد منه، وهكذا أبداً، وذلك لأنَّ المرادَ بالفاقرة ما لا يكتنه من العذاب، وإذا كان ظاناً كان أشدَّ عليه مما إذا كان عالماً به، موطناً نفسه عليه^(١).

* * *

الفراق والمساق

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَاللَّفَتِ الْسَاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ ﴿٣٠﴾ يُومِئِدُ السَّاقُ ﴿٣١﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣٢﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٣﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِسَطْحٍ ﴿٣٤﴾ أَوْلَىٰ لَكَ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَن يُرَكَ سُدَىٰ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْعَمَ مِن مَّيِّ يُعْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْفَةً فَلَمَّا فَسْوَىٰ ﴿٣٨﴾ جَعَلَ مِنهُ الرُّوحِيَّيْنِ الذِّكْرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُجْحَىٰ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ .

وإذا كان الحال كذلك فعليهم أن يرتدعوا، وعلى نفوسهم اللوامة أن تزجرهم عن إيثار العاجلة على الآخرة، وأن تنبههم إلى ما ينتظرهم عند الموت الذي يقطعهم عن العاجلة، ويضعهم على أبواب الآخرة.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ .

أي: حقاً إذا بلغت النفس أو الروح التراقي، وهي العظام التي في أعلى الصدر، جمع ترقوة، فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُمُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣].

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ (٢٧)

أي: مَنْ رَاقٍ يرقى، والمرادُ: يشفي بالرقية.
ويقال ذلك على وجه الاستبعاد واليأس، فمن يقدر أن يرقى من الموت؟! فالمرادُ ببلوغ التراقي مشاركة الموت، وقربُ خروج الروح من البدن.
وقد يكونُ المراد من يرقى بروحه إلى السماء؟ من رقى يرقى إذا صعد، والاستفهام على هذا حقيقي.
واستحب عاصمٌ في قراءته الوقف، وأظهر النون في: (مَنْ راقٍ)، وأدغم الآخرون.

﴿وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ (٢٨)

أي: ووظنَّ الإنسانُ المُحتضر أنَّ ما نزل به الفراق من الدنيا وما فيها، أو فراق الروح الجسد.
ولعلَّه سمَّى اليقين هاهنا بالظنِّ، لأنَّ الإنسانَ ما دامت روحُه متعلِّقةً ببدنه يطمئعُ في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة، ولا ينقطعُ رجاؤه عنها، أو لعلَّه سمَّاه بالظنِّ على سبيل التهكم.

﴿وَأَلْفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ (٢٩)

أي: التَوَتَّ ساقه بساقه خوفاً من الموت، أو انتهى أمرهما، ويبسا بالموت، حتى كأنَّهما ملتفتان، فهما أول ما تفارقهما الحياة وتزولُ عنهما تبردانِ قبلَ سائر الأعضاء وتبيسان.

أو: اتصلت الشدة بالشدة، شدة آخر الدنيا بشدة أول الآخرة، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، وقال مجاهد: بلاء بلاء، أي تابعت عليه الشدائد،

والعرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام، ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق^(١).

وتأتي بعد شدائد الموت النهائية التي لا مفرَّ منها:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾.

أي: المرجع والمصير والمنتهى.

وأسباب تتابع الشدائد عليه أنه كان في حالة الرخاء معرضاً عن الحق وعن طاعته تعالى وعبادته.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾.

أي: فلا صدَّق بما أخبر الله تعالى في القرآن، ولا أدى أهم ما فرض تعالى عليه وهو الصلاة، التي تدل على إذعانه لله تعالى واستسلامه لأحكام دينه وشريعته.

﴿وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

ولكنه أظهر الجحود والإعراض عن الطاعة.

وإلى جانب ذلك:

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِعُ﴾.

أي: يمشي متبختراً افتخاراً واختيالاً، وأصله: يتمطط، وهو التمدد في التكاسل والثقال، وهذا يدل على قلة الاكتراث، فنفسه نفس متبلدة لا إحساس فيها، فلا توجه إلى صاحبها أي لوم، قد أنقلتها الشهوات، وأعمتها الأهواء.

وما أكثر الذين تنسحبُ عليهم هذه الآيات في عصرنا الحاضر!

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٢٣/١٩.

﴿أُولَٰئِكَ لَكَ فَآوَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ فَآوَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ .

وهو تهديدٌ بعد تهديد، ووعيدٌ بعد وعيد .

وروي: أنها نزلت في أبي جهل الجاهل بربه، أي: لا صدَّق رسولَ الله، ولا وقفَ بين يديَّ فصلَّى، ولكن كذبَ رسولي، وتولَّى عن الصلاة بين يدي، فتركَ التصديقَ خصلةً، والتكذيبُ خصلةً، وتركَ الصلاةَ خصلةً، والتولي عن الله خصلةً، فجاء الوعيد أربعة مقابلة لترك الخصال الأربعة^(١) . .

من المعلوم أنَّ خصوصَ السبب لا يمنع عمومَ الحكم، فالوعيد موجَّهٌ إلى كل متَّصفٍ بهذه الخصال القبيحة المذمومة .

وَرَدَّتْ الآيات في آخر السورة على تساؤل الإنسان المنكر ليوم القيامة بالأسلوب الإنكاري نفسه:

﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ .

أي: يُترك مهملاً بلا تكليف ولا جزاء، ولا بعث ولا حشر .

فهو استفهام إنكاري، يؤكِّد ويتسق مع ما سبق في قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ تَجْمَعَهُ عَظْمَهُ﴾ [القيامة: ٣] .

ثم بيَّن تعالى بطلان هذا الحسبان بتذكير هذا الإنسان ببداية خلقه وأصل نشأته وفضل الله تعالى عليه:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ .

أي: يصب في الرحم، وفي قراءة: (تُمْنَى) فالضمير للنطفة على هذه القراءة، أي: يمينها الرجل ويصبُّها في الرحم .

﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ .

ثم صار بقدره الله علقته، فقدّر خلقه، فسوّاه تسوية، وعدّله تعديلاً، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار].

﴿فَعَلَّ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ .

أي: فجعل من المنى الزوجين الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم].

وتشير الآية إلى حقيقة علمية، وهي أن الذكورة والأنوثة تتعلق بتقدير الله تعالى ومشيتته بالمنى الذي يُمنى، وهو ماء الرجل، فقد أصبح من المعلوم أن الرجل يحمل كروموزين جنسيين في كل خلاياه هما (yx)، وأن أحدهما فقط يكون لولده، بينما المرأة تحمل كروموزين جنسيين في كل خلاياها هما (xx)، وأن أحدهما فقط يكون لولدها، والولد إذا كان ذكراً فإنه يحمل كروموزوم (y) الذي أتاه من أبيه^(١).

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ .

فمن قدر على الابتداء فهو قادر على الإعادة.
 روى أبو داود [٨٨٤] والترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قرأ أحدكم هذه الآية فليقل: اللهم بلى».



تفسير سورة الإنسان السَّاكِرُ وَالكَافِرُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الأصل الضعيف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِّنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ نَّتِلِّيهِ فِجْلَنَّهُ سَمِيمًا ۝٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ إِنَّ الْأَبْتَرَارَ بَشْرُونَ ۝٥﴾ مِّنْ كَأْسٍ كَانَ مِرَاجُهَا كَافُورًا ۝٦﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٧﴾

بدأ الله تعالى سورة الإنسان بقوله:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ .

أي: قد أتى على الإنسان زمانٌ لم يكن شيئاً مذكوراً.

فالآية تذكّر الإنسان بأصله الضعيف في بدء خلقه وتكوينه، وأنه لضعفه وحقارته ما كان شيئاً يستحقُّ أن يُذكر، فهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾

[المرسلات: ٢٠]، أكّد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ .

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط .

والمراد بيضة المرأة الملقحة بالحيوان المنوي الذي يُمنيه الرجل ، وهذه البيضة أكبر خلية في جسم الإنسان، إذ يبلغ قطرها خمس ملليمتر، وليس ذلك عبثاً، وإنما لأنها تتكفل بغذاء النطفة الأمشاج حتى يحين موعد علوقها بالرحم، والتصاقها به، وتغذيتها منه، لمدة أسبوع كامل^(١).

ثم بين تعالى الحكمة من خلق الإنسان:

﴿نَبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ليبصر الدلائل والبراهين في الآفاق وفي نفسه، ويسمع الأدلة السمعية، فالسمع والبصر أهم وسائل التمكين والتمييز والمعرفة.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ .

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: إنا بيننا له سبيل الخير والرشاد بواسطة الأنبياء والمرسلين .

ولا شك أن بيان سبيل الخير يكفي لمعرفة سبيل الشر، فكل ما يخالفه شر وضلال وفساد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْنَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وبعد هذا البيان:

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١٩٨.

﴿إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي: إما أن يكون الإنسان شاكرًا لله تعالى بعبادته وطاعته، وإمَّا كافرًا لله تعالى بالإعراض عن عبادته وتكذيب رسله.

وفي الحديث الشريف: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا» [رواه مسلم (٢٢٣)].
فكل الناس يسعى بنفسه؛ فمنهم من يبيعه لله بطاعته، فيكون شاكرًا، ويعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعه للشيطان والهوى، فيكون كافرًا، ويهلكها بتعريضها للعذاب، وهو عذاب شديد بينت الآيات بعضه:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾.

أي: سلاسل يسحبون بها، وأغلالاً في أعناقهم، وناراً يحرقون بها.
وفي قراءة: (سلاسلًا) مُتَوَنِّةٌ عند الوصل، وبألف وبغيرها عند الوقف.
ثم شرعت الآيات في المقابل تبيينُ حُسْنِ حال الشاكرين بعد بيان سوء حال الكافرين:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

أي: إن الأبرار يشربون خمراً ممزوجة بالكافور.
فالأبرار: صفة مدح للشاكرين، جمع برّ أو بار، وهو المطيع المسترسل في فعل الخير، وتُطْلَقُ الكَأْسُ حَقِيقَةً على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازاً على الخمر، وذكر الكافور لبرودته وبياضه وطيب رائحته، فهو ليس بكافور الدنيا، ولعله التسنيم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُفْرَبُونَ [المطففين]. ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ أي: هذا الذي مُزِجَ للأبرار من الكافور هو من عينٍ

يشرب منها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج، ويروون بها. فهو منصوب بإسقاط الخافض أو بدل من كأس.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا من قصورهم ومجالسهم، والتفجير هو الإنباع، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجِرُنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩].

* * *

أعمال الشاكرين

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِي نَذَرُوا وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينَتُهُمْ وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَكُمْ أَجْرًا لَا يُزِيدُكُمْ مَكْرًا وَلَا جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غُورًا قَطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

وتوقفت الآيات فجأة عن بيان ما أعد الله للشاكرين من أنواع النعيم في الجنة لتبيين بأسلوب الاستئناف أبرز أعمالهم التي يعملونها، وفضائلهم التي يتصفون بها، وكأنها تعلق سبب الكرامة التي أكرمهم الله بها:

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِي نَذَرُوا وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِي نَذَرُوا﴾ أي: يؤديون ما أوجبه الله عليهم بعهد الإيمان، وما أوجبه على أنفسهم تقرباً إلى الله تعالى.

والأصل في معنى النذر: الالتزام، وهو في الشرع: التزام المكلف شيئاً لم يكن عليه، وشرط صحته أن يكون عبادةً.

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ» [رواه البخاري (٦٦٩٦)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم،

ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مُرُهُ فَلَيْتَكَلَّمْ وَلَيْسْتَظَلَّ وَلِيَقْعُدَ وَلِيَتَمَّ صَوْمَهُ» [رواه البخاري (٦٧٠٤)].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ سُورُهُ مَسْطَرًا﴾ أي: منتشرًا فاشيًا، أو عامًّا إلا من رحم الله.

والمراد: أنهم يتركون المعاصي والآثام خوفاً من سوء الحساب، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ عَهْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿١٧٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد].

﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ ﴿٨﴾ .

﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: وهم يحبون الطعام ويشتهونه ويحتاجون إليه، فيؤثرون غيرهم على أنفسهم، كما قال تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فالإيثار من صفات الأبرار كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

أو: يطعمون الطعام على حب الله تعالى وابتغاء مرضاته.

والمعنى الأول أوجه، لأن قوله بعد ذلك: ﴿لَوْجَهُ اللَّهُ﴾ يغني عنه.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ وهو الذي يؤسر فيحبس، ولو كان كافراً، وهذا يدل

على إنسانية الإسلام، ونبيل أخلاق المسلمين.

قال قتادة: لقد أمر الله بالأسرى أن يُحَسَّنَ إليهم، وإن أسراهم يومئذ لأهل

الشرك، وأخوك المسلم أحق أن تطعمه^(١).

وعن الحسن: أنه ﷺ كان يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين

ويقول: «أحسن إليه» فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه^(٢).

(١) تفسير القرطبي: ١٢٩/١٩.

(٢) روح المعاني: ١٩٦/٢٩.

وفي «السيرة»: عن ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: «استوصوا بالأسارى خيراً»، وكان أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى قال: وكنت في رهطٍ من الأنصار حين أقبلوا بي من بدرٍ، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجلٍ منهم كسرة خبزٍ إلا نفحني بها، فأستحي فأردّها على أحدهم فيردها عليّ ما يمسّها^(١).

وحصّه بعضهم بالأسير المسلم في أيدي الكفار أو المسلم المسجون، وسمّي أسيراً مجازاً لمنعه من الخروج.

ويبدو أنّ بعض الأسرى كما مرّ معنا في «السيرة» كان يبألغ في شكر أسريه، والثناء عليهم، فيقولون له:

﴿ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لِرُوحِهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ (٩)

أي: إنما نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه لا نريد منكم في مقابله مكافأة في الأعمال، ولا ثناء في الأقوال.

ويمكن أن يكون قولهم هذا بلسان الحال وأنهم ما قالوه فعلاً، ولكن الله تعالى علمه منهم، فأثنى عليهم به، فقد روى ابن كثير في تفسير الآية عن مجاهد: أنه قال: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به، ليرغب في ذلك راغب.

فعملهم خالص غير مشوب بأي حظ دنيوي يدل على إخلاصهم، والإخلاص من صفات الشاكرين. وأساس إخلاصهم خوفهم من الله تعالى:

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴾ (١٠)

أي: إنا نعمل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس

القمطير، وهو يوم القيامة الذي تعبس فيه الوجوه من هوله وشدته وتنقبض.
فالقمطير: الشديد العصب، أو الطويل، ولا شك أن اليوم العصب يوم
طويل.

بشارة ونعيم

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّئَهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَطَافَتْ عَلَيْهِمُ بَنَاتٌ مِّنْ فَضْوَةٍ وَكَرَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فَضْوَةٍ فَرَّرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَتُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَمْبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ عِيسًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا أَبْوَابًا مِّنْ فَضْوَةٍ وَسَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمُ حِزًّا وَكَانَ سَعِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

وبادرت الآيات تبشرهم بفضله تعالى ورحمته تطيباً لقلوبهم الخائفة
ولنفوسهم الوجلة:

﴿فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وأعطاهم بدل عبوس الكفار وحنزهم حسناً في وجوههم، وسروراً في
قلوبهم، فوجوههم مشرقة مستبشرة، وقلوبهم مفعمة بالسرور راضية.

﴿وَجَزَّئَهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجزاهم بما صبروا على طاعته وعن معصيته جنة وحريراً، وهو
السندسُ والإستبرقُ، كما سيأتي معنا عند قوله: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

واختلفوا في من نزلت فيه هذه الآيات؛ فذكر بعضهم قولين:

أحدهما: نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام، أجز نفسه ليستقي نخلًا بشيء من شعير ليلة حتى أصبح، فلما قبض الشعير طحن ثلثه، وأصلحوا منه شيئاً يأكلونه، فلما استوى أتى مسكين فأخرجوه إليه، وفعل ذلك في بقية الشعير فنزلت هذه الآيات. ذكره الواحدي في أسباب النزول بغير سند، وأورده السيوطي في «الدر المنثور» من رواية ابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري رضي الله عنه، صام يوماً، فلما أراد أن يفطر جاء مسكينٌ ويتيمٌ وأسيرٌ فأطعمهم ثلاثة أرغفة، وبقي له ولأهله رغيف واحد. رواه البغوي عن مقاتل من غير سند.

وأضاف القرطبي في «تفسيره» أقوالاً أخرى ثم قال: «والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار، ومن فعل فعلاً حسناً، فهي عامة، وقد ذكر النقاش والثعلبي والقشيري وغير واحدٍ من المفسرين في قصة علي وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصح ولا يثبت»^(١).

وأضافت الآيات إلى البشارة بيان بعض أنواع النعيم الذي أعده لهم في الجنة:

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾^(١٣)

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: يتنعمون بنعيم الجنة في حال اتكائهم على الأرائك، وهي السرر التي تغطيها الحجال المرفوعة فوقها.

والحجال: جمع حجلة: ساتر من القماش، ترفع فوق السرير، هي للزينة والتنعيم فقط.. فأهل الجنة:

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يرون فيها شدة حر كحر الشمس، ولا برداً مفرطاً يؤذي.

(١) تفسير القرطبي: ١٩/١٣٠.

وقيل: الزمهرير: القمر، فالمعنى: لا يرون شمساً كشمس الدنيا، ولا قمراً كقمر الدنيا، فهم في ضياء مستديم، لا ليل فيه ولا نهار، لأن ضوء النهار بالشمس، وضوء الليل بالقمر^(١).

والمعنى الأول أظهر، لما ورد في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير» [رواه مسلم (٦١٧)].

﴿وَدَايَةَ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾﴾

﴿وَدَايَةَ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا﴾: ويتنعمون أيضاً في ظلال الجنة القريبة منهم.
﴿وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا﴾ أي: وسُخِرَت ثمارها لمتناولها، وسهل أخذها، فهو يتناولها دون كلفة، سواء كان قائماً أو جالساً أو مضطجعاً.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَرُهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾﴾

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطوف عليهم الخدم بأواني الطعام وهي من فضة، وأكواب الشراب، جمع كوب، وهو قرح لا عروة له، ونبه بذكر الفضة على الذهب لقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: تلك الأكواب هي قوارير، أو جعلت قوارير ولكنها من فضة، فلها صفاء القوارير وبياض الفضة.

وفي قراءة: (قواريرا * قواريرا) عند الوصل، وبالألف عند الوقف، كما قرئت بغير ألف عند الوصل والوقف.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قَدَّرُوهَا على قدر رِيِّهِمْ، فلا تزيدُ عنه فتثقل الكف، ولا تنقص منه فيطلب الزيادة، وهذا أبلغُ في الكرامة والشرف وألذ للشارب. وفي قراءة: (قُدَّرُوهَا) بضم القاف وتشديد الدال، أي: جُعِلت لهم على قدر حاجتهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ (١٧)

أي: ممزوجة بالزنجبيل، وهو نبات طيب الرائحة يلذع اللسان، يحبُّه العرب إذا مزج بالشراب ويلتذونه. ولعله ذكر (يُسْقَوْنَ) هنا دون (يشربون) لأنه الأنسب لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾، والظاهر أنهم تارة يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً، وتارة يسقون من كأس كان مزاجها زنجبيلاً^(١).

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (١٨)

أي: هو من عين في الجنة تسمى سلسبيلاً، وهو اسم لما كان في غاية السلاسة، سميت العين بصفتها. وبعد أن وصفت الآيات شرابهم وصفت خدمهم ودورهم:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ (١٩)

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه من الطراوة والجمال، لا يهرمون ولا يتغيرون، على سن واحدة، وهم أخف في الخدمة. وقيل: مسوِّرون مقرطون؛ أي: محلون، والتخليد: التحلية. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا﴾ أي: ظننتهم من حسنهم وصفاء ألوانهم لؤلؤاً

مفرقاً في ساحة المجلس، واللؤلؤ إذا نُثِرَ على بساط كان أحسن منه منظوماً، وقيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين إذ شبههن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يُمْتَهَنَنَّ بالخدمة^(١).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠).

أي: وإذا رأيت ببصرك الجنة رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عظيماً، فمعنى (ثُمَّ) هناك، والمراد الجنة.

وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إني لأعلمُ آخرَ أهلِ النارِ خروجاً منها، وآخرَ أهلِ الجنةِ دخولاً، رجلٌ يخرجُ من النارِ حبواً، فيقول الله: اذهبْ فادخلِ الجنةَ، فيأتيها، فيخيّلُ إليه أنها ملاءى، فيرجعُ فيقول: يا ربِّ وجدتها ملاءى، فيقول: اذهبْ فادخلِ الجنةَ، فإنَّ لك مثلَ الدنيا وعشرةَ أمثالها، فيقول: تسخرُ مني، أو تضحكُ مني وأنتَ المَلِكُ» فقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحكاً، حتى بدت نواجذُه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة. [رواه البخاري (٦٥٧١)].

ودلت كلمة ﴿وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ على زيادة في تكريم أهل الجنة، فلا يدخل أحد عليهم إلا بعد أن يستأذن عليهم من حُجَّابهم وخدمهم. ثم وصفت الآيات ملابسهم وزينتهم:

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رِهْمٌ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١).

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ والسندس: ما رقَّ من الحرير والديباج كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم. والإستبرق: ما غلظ وفيه بريق ولمعان، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس. وخضر: نعت للثياب، وفي: قراءة (خضرٍ وإستبرقٍ) بخفضهما.

﴿وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي: ومن ذهب، فهو كقوله: ﴿سَرَبِيلَ تَقِيكُمْ﴾
 ﴿الْحَرَّ﴾ أي: والبرد، قال تعالى: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
 وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

وقيل: هذه صفة الأبرار، وأما المقربون فيحلّون من أساور الذهب
 واللؤلؤ، أو يحلّون على حسب ما يشتهون.

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ وهو نوع آخر يفوق النوعين السابقين يطهر قلوبهم
 ويطونهم، ويفيض عرقاً من جلودهم.

أو: يظهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل وسائر الأخلاق الرديئة، قال
 تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقيل: هو عبارة عن التجلي الرباني الذي يشغلهم عما سواه عندما يكرمهم
 الله ﷻ برؤيته، فهو الساقى ﷻ لأنه المتجلي لهم، وهذا منتهى درجاتهم في
 الارتقاء والكمال، لهذا ختمت به الآيات ذكر نعيم الأبرار.
 ويقال لهم تكريماً وإحساناً:

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعِيكُمْ مَشْكُورًا﴾

أي: إن هذا النعيم أكرمكم الله به بمقابلة إيمانكم وطاعتكم، وكان سعيكم
 مرضياً مقبولاً، جزاكم الله على القليل بالكثير.

* * *

تثبيت وإرشاد

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لِيُحْسِنُوا الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالطَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

ثم التفتت الآيات إلى النبي ﷺ وهو سيد الشاكرين وأعلاهم مقاماً ورفعة في الدنيا والآخرة؛ تُثَبِّتَهُ عَلَى طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وترشده إلى ما يُعِينُهُ عَلَى تَحْمِلِ أَعْبَائِهَا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ .

وهي نعمة عظيمة تفضّل الله بها عليك وأكرمك بها، فما افتريته، وما جئت به من عندك، كما يدّعي المشركون.

وفي الآية إشارة إلى تنزيل القرآن مفرقاً منجماً على النبي ﷺ، وهي نعمة أخرى أكرمه سبحانه بها، قال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا لَهُ آيَاتِنَا فَكَرَهُهُ لِنُقَرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مَكْرٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر على ما تلقى منهم، وعلى إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُخْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: ولا تطع الفاجر في أفعاله أو الجاحد في

كفره وجحوده.

أو: لا تطع هذا وهذا، فإنَّ (أو) في الإثبات تفيدُ أحدَ أمرين، وفي النفي تفيدُ نفيَ كلا الأمرين جميعاً.

أو: لا تطع مرتكبَ الإثم الداعي إليه أو مرتكب الكفر الداعي إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَدُّوْا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ويقال: نزلت في عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة، وكانا أتيا رسول الله ﷺ يعرضان عليه الأموال والتزويج على أن يترك ذكر النبوة، ففيهما نزلت: ﴿وَلَا تَطْعَمْنَهُمْ إِيَّامًا أَوْ كُفُورًا﴾^(١).

﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١٥).

أي: داوم على ذكره سبحانه في جميع الأوقات.

أو: صلِّ لله في أول الليل أو النهار وآخره.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾^(٢٦).

وهو كما في قوله تعالى: ﴿بِأَيِّهَا الْمُرْمَلُ﴾^(٦) فُرِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل].

وكشفت الآيات للنبي عليه الصلاة والسلام سبب إعراض المشركين عن دعوته:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾^(٢٧).

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾^(٢٧) أي: يحبون الدنيا العاجلة وشهواتها.

﴿وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا نَقِيلًا﴾^(٢٧) أي: ويتركون الآخرة خلف ظهورهم، فلا يؤمنون

بها، ولا يعملون لها، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾

[القيامة].

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أُمَّتَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: وشددنا أعضائهم ومفاصلهم بعضها إلى بعض. فالأسر: الشد والربط، ومنه: الأسير، لأنه يُكْتَف بالأسار، والمراد إظهار كمال قدرته وحكمته سبحانه، وأنه قادر على إعادتهم بعد الموت.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أُمَّتَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: وإذا شئنا أهلكناهم، وأتينا بآخرين غيرهم، فوجودهم منوطٌ بمشيئة الله تعالى، فهو وجودٌ غيرٌ واجبٍ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَا الْفَلَاحِ وَالْجَحْشَ وَالْجَمْرَ الْأَرْضِ الْيَحْيَىٰ وَإِن يَشَأْ يُدْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم].

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إن هذه السورة موعظة تدعو إلى الحق وتبينه. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً موصلاً إلى جنته تعالى ورضوانه، وهو سبيل الشاكرين الذي ذكره سبحانه في أول السورة: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرُوا وَإِنَّمَا كَفُرُوا﴾ [الإنسان: ٣].

وأثبتت الآية لهم كسباً ومشيةً واختياراً، ولكنها مشيةٌ محدودةٌ مقيدةٌ غير مطلقة:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم.

أو: لستم تشاؤون إلا بمشيئة الله تعالى، فهو بيانٌ لكمال مشيئته تعالى، فلا يقدر أحد أن يهدي نفسه إلا بمشيئة الله تعالى، فدعوى استقلال العبد مكابرة، وكذلك دعوى الجبر مهاترة، والأمر بين الأمرين لإثبات المشيئتين^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له، ويقبضُ

له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله سبحانه الحكمة البالغة والحجة الدامغة، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ اِنَّ اِلٰهَ اِلٰهٍ يُّضِلُّ مَنْ يَّشَاءُ وَيَهْدِي اِلَيْهِ مَنْ اَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَّشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ اَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا﴾ (٣١).

﴿يُدْخِلُ مَنْ يَّشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعة.

﴿وَالظَّالِمِينَ اَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا﴾ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها.

وَنَصَبَ (الظالمين) بفعل مضمَر يفسره ما بعده، أي: أوعد الظالمين.



تفسير سورة المرسلات

الإغْدَارُ وَالْإِنْدَارُ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الوعيد الواقع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقْنَ عَصَا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَقْنَ فَرَاقًا ﴿٤﴾ فَأَلْمُقَيَّبَاتِ دَكْرًا ﴿٥﴾
عَدْرًا أَوْ نَدْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوْعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّحُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ
سُفِّتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنِتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ
﴿١٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ
بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

بدأ الله تعالى سورة المرسلات بالأقسام التالية:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾﴾ .

أي: والرياح المرسلّة يتبع بعضها بعضاً كعُرفِ الفرس .

أو: والرياح التي أرسلت تباعاً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] .

وقال أيضاً: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَادِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

ومرّ معنا أنه تعالى أقسم بالرياح في قوله في أول سورة الذاريات: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ ①.

﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا﴾ ②.

أي: فالرياح التي تعصف عصفاً، يعني: الرياح الشديدة الهبوب.

﴿وَالنَّشِيرَاتِ تَشِيرًا﴾ ③.

أي: والرياح التي تنشر السحاب وتأتي بالمطر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبِيرُ سَعَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مُمَيَّتٍ فَأُحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

﴿فَالْمُرْقَاتِ فَرَقًا﴾ ④.

أي: فالملائكة التي تنزل بآيات الله على الرسل فتفرّق بين الحق والباطل.

﴿فَالْمُفَيِّتِ ذِكْرًا﴾ ⑤.

أي: فالملائكة التي تلقي الوحي.

﴿عُدْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ ⑥.

أي: للإعذار والإنذار.

أقسم تعالى بالرياح والملائكة وجمع بينهما بسبب لطافتها وسرعة حركتهما، وقد يكون المراد بها كلها آيات القرآن الكريم، فالمرسلات عرفاً آيات القرآن المتتابعة في النزول، والتي تعصف في القلوب، والتي تنشر الهداية والمعرفة في قلوب المؤمنين، والتي تفرّق بين الحق والباطل، وتلقي الإيمان

والنورَ في القلوب، والمنزلة للإعذار والإنذار، ويقوي هذا المعنى قوله في السورة: ﴿وَلَيْلٌ يُومِدُ لِّلْمُكذِبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: بآيات القرآن الكريم، وقوله في آخرها أيضاً: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

وفي قراءة: (عذراً أو نذراً) بضم الذال فيهما .

وجواب هذه الأقسام:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفْعٍ ﴿٧﴾﴾ .

أي: إن ما توعدون من مجيء يوم القيامة كائن لا محالة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَوْفِعُ ﴿الذاريات﴾ .
ثم بين تعالى بعض أحداث الساعة عند وقوعها:

﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ .

أي: مَحِي نورها .

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾ .

أي: فتحت فكانت أبواباً، أو سُقَّت .

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفَّتْ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: قُلعت من أماكنها وأزيلت، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١﴾﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه﴾ .

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقْنَتْ ﴿١١﴾﴾ .

أي: جُمعت لميقات يوم معلوم ليشهدوا على الأمم، أو يُبَيِّن للرسول الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة .

وفي قراءة: (وقت) بتخفيف القاف وتشديدها، والمعنى واحد.

﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِلَّتْ﴾

أي: أخّرت وأمهلت؟.

وفي هذا الاستفهام تعظيم لهذا اليوم، وتعجيب من هوله.

﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾

الذي يفصل الرحمن فيه بين الخلائق.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾

أي: وما أعلمك ما يوم الفصل وهوله وشدته؟! فهو تعظيم وتهويل به مرة

بعد مرة.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُكْذِبِينَ﴾

أي: المكذبين بآيات القرآن أو بالتوحيد والبعث والجزاء.

(وَيْلٌ) مصدر منصوب بإضمار فعله، لكنّه عدل به إلى الرفع على الابتداء

للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمدعو عليهم.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾

أي: الأمم الخالية المكذبة.

﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾

أي: ثم نحن نتبعهم نظراءهم.

وهو وعيد للمشركين في عهد النبي ﷺ، أكدّه سبحانه بقوله:

﴿كَذَلِكَ نَفَعُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ .

أي: إنما نفعل بهم ذلك لكونهم مجرمين .

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: عندما نهلكهم، ونزل بهم العذاب، وهذا ليس بتكرار، لأنه أراد بكل قول منه غير الذي أراد بالآخر، فكلما ذكر شيئاً قال: ويل لمن يكذب بهذا .

* * *

الخلق والكفت

﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَخْلُقِ الْأَرْضَ كِهَاتَا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤْسَ سَلِيمَاتٍ ﴿٢٧﴾ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٨﴾ وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

ثم ذكروهم الله تعالى بضعفهم، وكمال قدرته جل وعلا ورحمته:

﴿أَلَمْ تَخْلُقْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: حقير ضعيف وهو ماء النطفة .

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: حريز حصين، وهو الرحم، فقد جعله سبحانه في أحسن مكان في جسم المرأة .

فالمكين: هو القوي الراسخ الذي يتحمل ما أُعِدَّ له من الحمل والولادة . ويتمتع الرحم بهذه المكنة أي القوة والشدة، بسبب بنائه الخاص، ومثانة

عضلاته، وطريقة تَوَزُّع أليافها، وبسبب عنق الرحم المغلق بفوهتين وقناة، والذي لا يفتح إلا حين الولادة^(١).

﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾

أي: إلى مقدار معلوم من الوقت الذي قدره الله تعالى للولادة.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: قدرنا ذلك تقديراً فنعم المقدرون نحن له.
وفي قراءة: (فقدَرنا) بالتشديد.

﴿وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

بنعمة الله ورحمته وحكمته.

﴿أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾

أي: ألم نجعل الأرض ضامّة تضمهم أحياء وأمواتاً، الأحياء على ظهرها، والأموات في بطنها.

فكافتة: اسم لما يُكفّت أي يضمُّ ويقبض، وفي الآية إشارة إلى الجاذبية الأرضية، كما أن فيها دليلاً على وجوب موارد الميت ودفنه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسَ شَمَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسَ شَمَخَاتٍ﴾ أي: جبلاً ثابتات عاليات.

﴿وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ عذباً.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، ثم بعد ذلك يستمر على تكذيبه وعناده.

* * *

دخان وشرر

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُعِي مِنْ
الْأَلْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ
لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدُّ لَهُمْ فِعْلَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾

ويقال لهؤلاء المكذبين يوم القيامة:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ .

أي: من العذاب.

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾ .

أي: إلى دخان جهنم الذي إذا ارتفع تشعب ثلاث شعب، كما هو شأن الدخان العظيم، فكونوا فيه حتى يُفْرَغَ من الحساب، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَوْمٍ وَمَجِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة].

ولعل المراد: ثلاث شعب تكون على رؤوسهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. وفي قراءة: (انطلقوا) بفتح اللام.

﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ (٣١)﴾ .

وهذا تهكم بهم، وردّ لما أوهم لفظ الظل، فهو لا يدفع عنهم حرّ جهنم.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢)﴾ .

أي: إنّ جهنم ترمي بشرر عظيم، كل شرارة كالبناء الكبير في عظمها.
وقيل: القصر: جمع قصرة؛ وهي الشجرة الغليظة.

﴿كَأَنَّهُ جُمِلَتِ صُفْرٌ (٣٣)﴾ .

أي: كأن الشرر حبال السفن الغليظة التي يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الجمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وَصُفْرٌ: جمع أصفر فلونها أصفر.

وفي قراءة: (جمالات صفر) بالجمع، و(جمالة) بضم الجيم.

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِبِينَ (٣٤)﴾ .

بأن هذه صفات شرر جهنم.

ويبدو أن رؤية شرر جهنم تذهلهم وتمنعهم عن النطق:

﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥)﴾ .

أي: لا ينطقون في هذا الموقف من مواقف يوم القيامة فهو يوم طويل، وفي موقف آخر يتكلمون ويختصمون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ (٣٦).

أي: لا يكون لهم إذن واعتذار، فقد تقدّم الإعذار والإنذار في الدنيا فلم يبق لهم عذر في الآخرة.

﴿وَبِلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ (٣٧).

بهذه الأحوال وهذه الأحداث في يوم القيامة.

* * *

الجمع والمصير

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَىٰ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ (٣٩) وَبِلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظُلُلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفُؤَادِهِ مِمَّا يَشْتَمُونَ (٤٢) كُلُّوْا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَبِلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُّوْا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُحْرَمُونَ (٤٦) وَبِلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ (٤٨) وَبِلِّ يَوْمِيذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يَوْمُونَ (٥٠)﴾.

ويقال للمكذبين بعد بعثهم وحشرهم:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأُولَىٰ (٣٨)﴾.

أي: هذا يوم الفصل بين المصدقين والمكذبين، جمعناكم يا مكذبي محمد والمكذبين قبلكم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ﴾ (٣٩).

أي: فإن كان لكم حيلة في دفع العذاب فاحتالوا على تخليص أنفسكم،

فلا حيلة لكم في ذلك ولا قدرة؛ كما قال تعالى: ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

فلا ينجو من عذاب الله جبار عنيد ولا شيطان مرید.

﴿وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤١)﴾

بأن هذا التحدي والتفريع كائن يوم القيامة.

وكما بينت الآيات مصير المكذبين في ظل من يحموم، بينت بالمقابل مصير المصدقين في ظلال وعيون:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ (٤١)﴾

أي: ظلال الجنة الممتدة وعيونها المتفجرة.

﴿وَفَوَكَهَهُمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)﴾

فهما طلبوا وجدوا كما في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إِذَا دُخِرَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ هُنَا لِيُتَذَكَّرُوا (٢٤)﴾ و﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣٦)﴾ و﴿فَنَكِهَهُمْ كَثِيرًا (٣٧)﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿[الواقعة].

ويقال لهم تكريماً وتفضلاً وإحساناً:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾

في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْحَسَنِينَ (٤٤)﴾

فأحسنوا تُجزوا بهذا الخير العظيم، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل كذبوا:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

ولهذا استأنفت الآيات خطاب المكذبين على وجه التهديد:

﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا﴾ فمتاع الدنيا قليل .

﴿إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ﴾ بما جنيتم على أنفسكم، فأثرتم المتاع القليل الزائل على

النعيم المقيم .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

بالجنة ونعيمها المقيم .

وسبب عنادهم استكبارهم عن الحق:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُرُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ .

أي: إذا قيل لهم: اخشعوا وتواضعوا لله بقبول وحيه واتباع رسوله ﷺ؛

لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك .

أو: إذا قيل لهم: صلُّوا؛ لا يصلُّون .

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ .

أي: بما أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم .

﴿فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

إذا لم يؤمنوا به، وهو معجزٌ في ذاته، مشتمل على الحجج البالغة،

والدلائل القاطعة، قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].
آمنتُ بالله تعالى وبما أنزل.



تفسير سورة النبأ

تَهْوِيلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ النَّبَأِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الخبير العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سِعَامُونَ ﴿٤﴾ تُو كَلَّا
سِعَامُونَ ﴿٥﴾ .

بدأ الله تعالى سورة النبأ بقوله:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) .

عن أي شيء يسأل هؤلاء القوم الرسول ﷺ والمؤمنين؟ أو عن أي شيء يتساءلون في ما بينهم؟ .

و(عمّ) أصله: عن ما، حرف جر دخل على (ما) الاستفهامية، وحُذفت الألفُ تخفيفاً، والضمير في (يتساءلون) لمشركي مكة، كانوا يتساءلون في ما بينهم عن البعث إنكاراً واستهزاء، وفي ترك ذكرهم إشعاراً بتحقييرهم وإهانتهم، والمراد من الاستفهام تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، وبينت الآيات شأنه المفخم:

﴿عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ﴾ (٦)

أي: الخبر العظيم الشأن.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ﴾ (٣)

أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمنهم من يقطع بإنكاره، ومنهم من يشك ويقول: ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً؟ وقد يكون الضمير للمسلمين والكافرين، واختلافهم فيه بالإقرار والإنكار.
وبعد أن عظمت الآيات أمر يوم القيامة، وأبهمت أمره لتوجه أنظار السامعين نحوه، زجرت منكريه، وتوعدتهم أشد الوعيد:

﴿كَلَّا سِعَّامُونَ﴾ (٤) ﴿كَلَّا سِعَّامُونَ﴾ (٥)

أي: سيعلمون عاقبة إنكارهم. أو سيعلمون عياناً أن ما ينكرونه حق. والتكرير للمبالغة في الوعيد والزجر، و(ثم) للإشعار بأن الوعيد الثاني أشد، وقد يكون المراد: سيعلمون ما يفعل بهم عند الموت أو في القبر، ثم ما يفعل بهم عند البعث.

إنعام وإحكام

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَرْسَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَّجْمًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا ﴿١٦﴾ .

ولما كان إنكار البعث والحساب والجزاء يؤدي إلى وصفه تعالى بصفات لا تليق بجلاله وكماله كالعجز والعبث، بين الله سبحانه بعض الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ .

أي: مهدة لكم ومسخرة.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ .

أي: وجعلنا الجبال أوتاداً للأرض تثبت قشرتها لئلا تميد وتضطرب، فيتعدّر عيشكم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ .

أي: أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ .

أي: راحة لأبدانكم، فإن النوم يقطع التعب ويزيله، وأصل السبت: القطع.

﴿وَجَعَلْنَا الْإِيلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾﴾ .

أي: غطاءً وغشاءً يستركم عن العيون في أحوالٍ تحتاجون فيها إلى الستر والاختفاء.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ .

أي: سبباً ووقتاً للمعاش، ولتتمكّنوا فيه من التصرف والاكتساب وقضاء المصالح.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ .

أي: سبع سماوات قوية محكمة.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾﴾ .

متلألئاً وقادماً، جامعاً للنور والحرارة الشديدة، والمراد: الشمس، فهي التي تمد الأرض بما تحتاج إليه من الحرارة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ .

أي: وأنزلنا من السحاب التي شارفت أن تمطر ماء منصّباً بكثرة. فالمعصرات: جمع معصرة؛ اسم مفعول من أعصر، ومنه: أعصرت الجارية، إذا دنت أن تحيض.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾﴾ .

أي: لنخرج بذلك الماء حبّاً كالحنطة والشعير، ونباتاً كالخشيش والتبن.

﴿وَجَنَّتِ الْفَأَقَا ١٦﴾ .

وبساتين ملتفة على بعضها لكثرة أشجارها .

* * *

يوم الفصل والحق

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١﴾ لِلطَّالِعِينَ مَنَاقِبًا ٢٢﴾ لِيُبَيِّنَ فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣﴾ لَا يَدْرُفُونَ فِيهَا نَرَدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾ إِلَّا حِيمًا وَعَسَاقًا ٢٥﴾ حَرَاءً وَفَأَقَا ٢٦﴾ لَهُمْ كَأْتُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ٢٩﴾ فَدَرُفُوا فَلَسْ نُرِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَعَارًا ٣١﴾ حَلَالًا وَأَعْنَابًا ٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَعْوًا وَلَا كِذَابًا ٣٥﴾ جَزَاءً مِمَّنْ زَكَ عَطَاءً حِسَابًا ٣٦﴾ .

ولابد لهذا الإنعام والإحكام من غاية ينتهي إليها :

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ١٧﴾ .

أي: إن يوم فصل الله تعالى بين الخلق كان في علمه ﷻ وقتاً محدوداً لا يتقدّم ولا يتأخّر، وعبر عن المستقبل بالماضي لتحقيق وقوعه .
وهكذا كشفت الآيات سرّ النبا العظيم، الذي كانوا يتساءلون عنه، ثم شرعت تفصّل كيفية وقوعه، وتبيّن بعض ما يحدث فيه :

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨﴾ .

أي: أمماً وجماعات وزمراً من القبور إلى المحشر .
وفي صحيح البخاري: باب (يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا) زمراً، ثم أخرج: [٤٩٣٥] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين

النفختين أربعون» قال: أربعون يوماً؟ قال: أبيت. قال: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: «ثم يُنزلُ اللهُ من السماء ماءً، فينبتون كما ينبتُ البقلُ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنْبِ، ومنه يركبُ الخلقُ يومَ القيامةِ».

﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾

أي: وشُقَّت السماء فصارت ذات أبواب. وفي قراءة: (وفتحت) بالتشديد.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

أي: أزيلت عن وجه الأرض، فصارت بعد ذلك مثل السراب، فترى كأنها جبالٌ، وليست بجبال، بل غبار غليظ متفرقٌ، قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿الواقعة﴾.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾

أي: موضع رصد وترقب، يرصد فيه خزنة النار الكفار. أو: إنها طريق عليه ممرُ الخلق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿مريم: ٧١﴾. أو: إنها مرصدة معدة.

﴿لِلطَّغْيَانِ مَثَابًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: مرجعاً ومصيراً ومأوى، وهم المتجاوزون الحد في الطغيان.

﴿لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾

أي: مقيمين في جهنم أزماناً متتابعة، والحُقب: هو الدهر، ولم يُردْ به عدد محصور، بل الأبد، كلما مضى حقب تبعه آخر إلى غير نهاية.

وفي قراءة: (البئين) بغير ألف على جعل اسم الفاعل فعلاً وهو أبلغ.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يذوقون في جهنم روحاً وراحة، ولا شراباً يدفع عنهم العطش، ولكن يذوقون ماء حاراً يقطع أمعاهم وماء يسيل من صديدهم. وقيل: البرد: النوم.

﴿جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: جُوزوا جزاءً موافقاً لأعمالهم. واستأنفت الآيات تبين أعمالهم وتعلل عذابهم:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: لم يؤمنوا بالبعث ليرجوا الحساب ويخافوا منه.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: كذبوا بأدلة التوحيد والنبوة والبعث تكذيباً مفرطاً. أو: كانوا مبالغين في الكذب مبالغة المغالين فيه. وفي قراءة: (كذاباً) بالتخفيف.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وكل شيء من الأعمال بيناه وأثبتناه في كتاب، وهو صحف الحفظة، قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ نَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

فالعذاب مسبب عن كفرهم بالحساب، وتكذيبهم بالآيات.

ودلّ أسلوب الالتفات إلى خطابهم على المبالغة، فهذه أشدُّ آية في القرآن على أهل النار، فهم في مزيدٍ من العذاب أبداً.
ثم بينت الآيات في المقابل بعض ما أعد الله للمتقين من النعيم:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١)﴾ .

أي: فوزاً، ويعني: نجاة من كل مكروه، وظفراً بكل محبوب، أو إن لهم موضع فوز.

﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾ .

أي: بساتين فيها أنواع الشجر المثمر، وأعناباً، ودل التنكير على عظم ذلك العنب.

﴿وَكَوَاعِبَ أُنْرَابًا (٣٣)﴾ .

أي: وجواري نواهد، قد تكعبت أنداؤهن، مستويات في السن.

﴿وَأَسَا دِهَاقًا (٣٤)﴾ .

مملوءة مترعة، أو متتابعة وصافية.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥)﴾ .

أي: لا يسمعون في الجنة أو في حال شربهم باطلاً من الكلام ولا تكديباً، فلا يكذب بعضهم بعضاً. وفي قراءة: (كِدَابًا) بتخفيف الذال مصدر كذب.

﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)﴾ .

أي: جازاهم جزاء بمقتضى وعده، تفضلاً منه، وأعطاهم عطاءً كافياً

وافياً، أو على حسب أعمالهم.

* * *

تعظيم وتهويل

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾

ومما يدل على عظمة هذا اليوم وهول ما يحدث فيه :

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾﴾

أي: لا يملك أهل السماوات والأرض في هذا اليوم خطابه تعالى والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب، أو لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته تعالى إلا بإذنه، فهو استثناءٌ مقرر لما أفادته الربوبية العامة من غاية العظمة. وفي قراءة: (ربُّ السماوات والأرض وما بينهما الرحمن) برفع باء (رب) ونون (الرحمن)، أي: هو رب وهو الرحمن.

ومما يدل على هول هذا اليوم:

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ أي: يوم يقوم جبريل والملائكة مصطفين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصفات: ١٦٥].

وخصَّ جبريل بالذكر تشريفاً له، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٦٦﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء].

وذكر بعض المفسرين في الروح أقوالاً أخرى غريبة لا يعول عليها.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ خوفاً من الله تعالى وإجلالاً له .

﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي: إلا مَنْ أذن له الرحمن في الكلام، وقال حقاً في الدنيا وعمل به، أو قال المأذون له قولاً صواباً؛ أي: قولاً حقاً في الشفاعة لمن ارتضى .

وتابعت الآيات تعظيمَ وتهويلَ هذا اليوم:

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ أي: الكائن الواقع لا محالة، فهو يوم الفصل والحق .
﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ أي: سبيلاً يرجع إليه، وهو طاعة الله تعالى وما يتقرب به إليه .

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ .

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ أي: خوِّفناكم في الدنيا عذاباً قريباً في الآخرة، وقربه لتحقيقه، فإن كل ما هو آتٍ قريب، ولأنَّ مبدأه بالموت .

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من خير أو شر مثبت في كتاب أعماله، كما سبق معنا في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبا: ٢٩] .

وتخصيص الأيدي لأنَّ أكثر الأعمال تقع بها .

﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ أي: في الدنيا، فلم أخلق ولم أكلف .

أو: يا ليتني كنتُ تراباً في هذا اليوم، فلم أبعث .

وحُصِّصَ هذا القول بالكافر دون المؤمن لدلالة قوله على غاية الخيبة وشدة الحسرة والندم .

أسأله تعالى الثبات على الإيمان وحُسن الخاتمة .



تفسير سورة النازعات

الطَّائِفَةُ الْكُبْرَى وَالطُّغْيَانُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
البعث والجزاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ﴾ (٦) ﴿تَتَّبِعُهَا الزَّادَةُ﴾ (٧) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ (٨) ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ (٩) ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا لَمْرَدُودُونَ فِي الْمَكَافِرَةِ﴾ (١٠) ﴿أَوِذَا كُنَّا عِظْمًا تَخِرَّةً﴾ (١١) ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ (١٢) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (١٤)

بدأ الله تعالى سورة النازعات بالأقسام التالية:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ (١) ﴿وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا﴾ (٢) ﴿وَالسَّيِّحَاتِ سَبْعًا﴾ (٣) ﴿فَالسَّيِّدَاتِ سَبَقًا﴾ (٤) ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ (٥).

اختلفت أقوال المفسرين في المراد من هذه الكلمات؛ هل هي صفاتٌ لشيءٍ واحد أم لأشياءٍ مختلفة؟ فأكثرهم أن المراد بها شيءٌ واحد؛ هم ملائكة الموت، فإنهم ينزعون أرواح الكفار من أبدانهم غَرْقًا، أي: إغراقًا بالنزع، إذ ينزعونها من أقصى الأبدان، وَيَنْشُطُونَ أرواح المؤمنين بلطفٍ ورفقٍ، فالنزعُ: جذبٌ بشدَّة، والنَّشِطُ: جَدْبٌ برفق، ويسبحون في الفضاء مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه يقال له: سابح، فيسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة

وبأرواح الكفار إلى النار، فيدبرون أمر ثوابها وعقابها.

أو: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، تطلع، ثم تغيب، وتنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب وتجري في أفلاكها سابحة، فيسبقُ بعضها بعضاً في السير، فتدبرُ أمراً نيط بها، كاختلاف الفصول، وتقدير الأزمنة.

أو: هي صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة، فإنها تنزع من الأبدان، فتنشط إلى عالم الملكوت، وتسبح فيه، فتسبق إلى حظائر القدس، فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات.

أو: هي النفوس حال سلوكها، فإنها تنزع عن الشهوات، وتنشط إلى عالم القدس، فتسبح في مراتب الارتقاء، فتسبق إلى الكمالات، فتصير من المكملات، وتصلح أن تكون من المدبرات، ويظهر لها بعد الموت أحوال وآثار، كأن يرى المرء بعد الموت شيخه في المنام، فيرشده إلى ما فيه خيره وصلاحه. وذكروا أن ابن عباس قال: الناشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج.

وقد يكون المراد بيان صفات أنفس المؤمنين أو خيل المجاهدين، والفاء في الأخيرين للدلالة على ترتبهما على ما قبلهما من غير مهلة. وجواب القسم محذوف دل عليه سياق الآيات، تقديره: لتبعن أو لتحاسبن يوم القيامة.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾

وهي النفخة الأولى التي تتزلزل بها الأرض، ويموت بها جميع الخلق.

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾

وهي النفخة الثانية لأنها تردف الأولى وتتبعها.

وكان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: «يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه» [رواه أحمد (٢١٢٤١ و٢١٢٤٢) والترمذي (٢٤٥٧) وحسنه].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ .

أي: شديدة الاضطراب من شدة الخوف والفرع.

﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾﴾ .

أي: أبصار أصحابها ذليلة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج].

﴿يَقُولُونَ أَءَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: أنزُدُّ إلى أول الحال وابتداء الأمر، فنرجع إلى الحياة بعد الموت.
فالحافرة: اسمٌ لأول الأمر، والعرب تقول: رجع فلانٌ في حافرته، أي: رجع من حيث جاء، فهي اسمٌ لابتداء الشيء وأوله، أو طريقه الذي جاء منه يحفره بمشيته، والاستفهام للإنكار والاستهزاء.
وقد يكون المراد من الحافرة: القبور، فهم يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة.

﴿أءَ ذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخْرَةً ﴿١١﴾﴾ .

أي: أنزُدُّ إلى الحياة بعد أن صرنا عظاماً بالية.
وفي قراءة: (ناخرة) بالألف.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: إن صحَّت فنحن خاسرون لتكذيبنا بها!
وهو استهزاء منهم، يدل على قسوة قلوبهم، وشدة استكبارهم وطغيانهم، ولهذا جاء الرد عليهم قوياً عنيفاً:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: فما هي إلا صيحة واحدة وهي النفخة الثانية، فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعدما كانوا أمواتاً في بطنها.

* * *

المعرفة والخشية

﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَحْنُ ﴿١٩﴾ فَارِنُهُ آيَةَ الْكُرْثَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْرَبْتَسَى ﴿٢٢﴾ فحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَحْذَرَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ أَلْسِنَةً بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَجْرَحَ صُغْنَهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ﴿٣٠﴾ أَجْرَحَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَّعْنَهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لِكُرْهِمْ وَلَا تَلْمِزُهُمْ ﴿٣٣﴾﴾ .

ثم وجهت الآيات خطابها إلى النبي ﷺ تواسيه وتسلييه عن ما يلقي من تكذيبهم وطغيانهم، وتذكّره بقصة موسى وفرعون، الذي كان أشد طغياناً واستكباراً من معارضي دعوته عليه الصلاة والسلام.

﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ .

أي: قد أتاك يا محمد حديث موسى، حين ناداه ربُّه بالوادي المبارك طوى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿١٦﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَالْخَلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّا بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه].

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾﴾ .

أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد.

﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَزَكَّى﴾.

أي: تتطهر من الشرك وذنس الكفر. وفي قراءة: (تَزَكَّى) بتشديد الزاي.

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَنَخَسْ﴾.

أي: وأرشدك إلى معرفة ربك فتخشاه وتعظمه، فالخشية لا تكون إلا بالمعرفة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

قال بعض الحكماء: اعرف الله، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طرفه عين، فهي ملاك الأمر، فمن خشي الله أتى بكل خير، ومن أمن اجترأ على كل شر^(١).
ومنه الحديث الشريف: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سَلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ» [رواه الترمذي (٢٤٥٠)].

وفي الاستفهام (هل لك) ما لا يخفى من التلطف في الدعوة، كما أمر الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام بقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [٤٣] فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَكَ بِهِ سُلْطَانٌ وَلَا يَكْفُرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه].

ودل تقديم التزكية على الهداية على أن التولية قبل التحلية، وعلى حاجة الإنسان إلى المرشد الذي يرشده إلى معرفة الله تعالى وطاعته.

﴿فَأَرِنُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾.

أي: المعجزة الكبرى، وهي معجزة العصا.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾.

أي: فكذب فرعون موسى، وعصى الله تعالى، بعد أن علم صدق موسى وصحة المعجزة.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ (٢٢)

أي: ثم تولى عن الطاعة يسعى في إبطال أمر موسى، ومعارضة المعجزة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ (٢٣) ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (٢٤)

أي: فجمع السحرة، فنادى بالناس لما اجتمعوا: أنا ربكم الأعلى.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ (٢٥)

أي: فعذبه الله بكلمته الأولى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٣٨]، وبالثانية: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (٢٦)

أي: إن في عقاب فرعون حين كذب وطغى لعظة لمن يخشى الله تعالى. ثم وجهت الآيات خطابها إلى منكري البعث توبيخهم على طغيانهم واستكبارهم، وتبين لهم كمال قدرته تعالى وباهر حكمته:

﴿إِنَّكُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧)

أي: أخلقكم بعد الموت أشد أم خلق السماء؟ بل السماء أشد خلقاً منكم. وفي عدم ذكر الفاعل في (بناها) وفي ما عطف عليه من الأفعال تفخيم لشأنه ﷻ.

﴿رَفَعَ سَعْتَكُمْ فَسَوَّهَا﴾ (٢٨)

أي: جعلها عالية البناء، ومستوية الأرجاء، فهي محكمة تامة، لا خلل فيها ولا نقص، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ (٢٩).

أي: وجعل ليلها مظلماً، ونهارها مضيئاً مشرقاً واضحاً، كما تبدو لعين الناظر إليها.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (٣٠).

أي: بسطها ومدّها ومهدّها لسكنى أهلها، وتقلبهم في أقطارها. ويبدو أن الله تعالى دحا الأرض بعد أن خلق السماء، فقد خلقها غير مدحوة كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].
وبيّن دحوها وفسّره بقوله:

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ (٣١).

أي: بتفجير العيون، وإنبات النبات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا﴾ (٣٢).

أي: أثبتها فيها، وجعلها أوتاداً لها.

﴿مِنَّا لَكُمْ وَلاَ تَعْمَلُونَ﴾ (٣٣).

فعل ذلك تمتيعاً لكم ولأنعامكم، فهو سبحانه المتفضل عليكم، فإنّ فائدة ما ذُكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم.

الطامة الكبرى

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَوُثِرَتْ الْحَجِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَتَلَوَّنَاكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِمَّنْ يَحْسَدُنَهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُورِهَا لَمْ يَلْتَمَوْا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ .

ثم عادت الآيات إلى موضوع السورة الأول، موضوع البعث والحشر للحساب والجزاء، وبيان أثره في تهذيب النفوس ومنعها من الطغيان، فلا يهذب النفوس إلا الإيمان بالطامة الكبرى.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ .

أي: الداهية التي تعلو على سائر الدواهي، سُميت بذلك، لأنها تطم على كل شيء فتعلو عليه، قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرٌ﴾ [القمر: ٤٦].
وكونها طامة، لأنها تغلب وتفوق كل ما عرفوه من دواهي الدنيا، وكونها كبرى، لأنها أعظم من جميع الدواهي مطلقاً، فصارت الطامة الكبرى كالعلم للقيامة.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ .

أي: يوم يتذكر الإنسان ما عمل من خير أو شر، فيشاهده مدوناً في صحيفته، وقد نسيه من فرط الغفلة وطول الأمد، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَوُثِرَتْ الْحَجِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ .

أي: وأظهرت جهنم لكل راءٍ بحيث لا تخفى على أحد.

وجواب (فإذا جاءت) محذوفٌ دل عليه ما بعده من التفصيل.

﴿وَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾﴾

جاوز الحد حتى كفر.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾

أي: وفضل الحياة الدنيا على الآخرة، فانهمك في الدنيا، ولم يستعد للآخرة.

﴿فَإِنَّ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾

لا مأوى له سواها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف مقامه بين يدي ربه يوم القيامة للحساب والجزاء، أو عند المعصية فانتهى عنها كما في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخافُ الله ربَّ العالمين» [رواه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١)].

﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: زجرها ومنعها عن المعاصي والآثام.

فالهوى: هو الميل إلى ما تهوى النفس من شهوات، وهو سبب الطغيان.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦].

فترك الهوى مفتاح الجنة، فطوبى لمن تركه وسلم منه.

ثم بين تعالى في ختام السورة أن وقت الطامة الكبرى لا يعلمه أحد سواه،

فهو مما أستاثر سبحانه بعلمه، فلم يُطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، وعلى الإنسان أن يكون دائماً مستعداً لها منتظراً وقوعها .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ﴾ (٤٢) .

أي: متى ظهورها وقيامها، ومرسى السفينة حيث تنتهي .

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ۖ﴾ (٤٣) .

أي: ما أنت من ذكراها وتبيين وقتها في شيء، أو أنت ذكر من ذكراها، أي: علامة من أشراتها، فهو عليه الصلاة والسلام من علامات الساعة .
وفي الحديث: عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» [رواه البخاري (٤٩٣٦)] .

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ۖ﴾ (٤٤) .

أي: إلى الله تعالى انتهاء علمها، ليس لأحد منه شيء، فلماذا يسألونك عنها؟! .

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ۖ﴾ (٤٥) .

أي: ما أنت إلا منذر من يخشاها، لا معلم بوقتها ومبين له، فلم تبعث لتعلمهم بوقتها، وإنما بعثت لتنذر من أهوالها من يخاف شدائدتها، ولا شك أن من نهى النفس عن الهوى فهو ممن يخشاها. وفي قراءة: (منذر) بالتنوين .

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ رَوَّنتَهَا لَوْ يَلْبَسُونَ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ۖ﴾ (٤٦) .

أي: كأن الكفار يوم يعاينون القيامة لم يلبسوا في الدنيا إلا عشيّة يوم أو ضحاه، استقلوا مدة لبثهم في الدنيا لما شاهدوا هول يوم القيامة .



تفسير سورة عَبَسَ الْكَفَرَةَ الْفَجْرَةَ فِي سُورَةِ عَبَسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
عتاب وموعظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَسَفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾ أَمَا مَنِ اسْتَعْتَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴿٧﴾ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ تَرْمُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة عبس بقوله :

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾

عبس : أي : كَلَحَ وَقَطَّبَ وَجْهَهُ وَأَعْرَضَ ، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ، لِأَنَّ الْأَعْمَى جَاءَهُ .
والأعمى : هو ابن أم مكتوم ، واسمه : عمرو ، وقيل : عبد الله بن شريح القرشي ، وأم مكتوم أم أبيه ، وأمه عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وهو ابنُ خالة السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين ، أسلمَ قديماً بمكة ، أتى النبي ﷺ وهو يدعو أشراف قريش إلى الإسلام ، فقال : يا رسول الله علّمني ممّا علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلمُ تشاغلَ النبي ﷺ بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطعه

لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت، فكان رسولُ الله ﷺ يكرِّمُه بعدها ويقول إذا رآه: «مَرْحَباً بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، واستخلفه على المدينة مرتين، وكان يؤدِّن لرسول الله ﷺ.

وروى أبو يعلى في مسنده [٣/٢٣] وابن جرير [٥٠/٣٠] وابن أبي حاتم: أن رسول الله ﷺ كان بعد ذلك يكرِّمُ ابنَ أم مكتوم ويسأله: «ما حاجتُك؟ هل تريد من شيء؟».

فالنبي ﷺ كان مشغولاً بالدعوة إلى الله، وهي وظيفته الأساس التي كلَّفه الله تعالى بها، وكان المسلمون في قَلَّةٍ، والدعوة ضعيفة ومطاردة، وكان يرجو إن أسلم هؤلاء خيراً كبيراً للإسلام في عُسرته ومحنته، فقد كانوا يقفون في طريق الدعوة، ويكيدون ضدها كيداً شديداً، ويصدُّون الناس عنها، فلو أسلموا لانزاحت العقبات من طريق الدعوة في مكة، وانتشرت بعد ذلك في ما حولها، ولهذا كره الرسول ﷺ قطعه لكلامه، وظهرت الكراهة في وجهه الشريف، فعبس وأعرض عنه، ويبدو أنه عليه الصلاة والسلام طمع في إسلام أحد كبار المشركين، واستشعر في كلامه شيئاً من اللين.

ففي الحديث: عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله ﷺ أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرضُ عنه، ويُقبلُ على الآخر، ويقول: «أترى بما أقول بأساً؟» فيقول: لا. ففي هذا أنزل. [رواه مالك (٢٠٣/١) والترمذي (٣٣٣١)].

قال القرطبي: قال علماؤنا: ما فعله ابنُ أم مكتوم كان من سوء الأدب، لو كان عالماً بأن النبي ﷺ مشغولٌ بغيره، وأنه يرجو إسلامهم، ولكن الله تبارك وتعالى عاتبه حتى لا تنكسر قلوب الفقراء من أصحابه، أو ليعلم أن المؤمن الفقير خيرٌ من الغني الكافر.. وقيل: إنَّما قصد النبي ﷺ تأليف الرجل ثقةً بما كان في قلب ابن أم مكتوم من الإيمان، كما قال رضي الله عنه: «إنِّي لأصلُ الرجلَ وغيره أحبُّ إليَّ منه مخافةً أن يكبَّهُ اللهُ في النارِ على وجهه».

وهذا الحديث في صحيح البخاري [٣١٤٥] ولفظه: أعطى رسول الله ﷺ قوماً، ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه فقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظلمهم وجزعهم، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب».

وفي وصف ابن أم مكتوم بالأعمى إشعاراً بعذره في الإقدام على قطع كلام النبي ﷺ، ودلالة على أنه أحق بالرافة والرفق. وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلالاً له، لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره، لأنه لا يصدر عنه ﷺ مثله. ثم وجهت الآيات الخطاب إلى النبي ﷺ.

﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾

أي: وأي شيء يجعلك دارياً بحال هذا الأعمى؟! لعله يتطهر من الذنوب بما يسمع منك.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾

أو يتعظ فتنتفعه الموعظة، فلو دريت ما صدر ذلك منك، فأعراضه عليه الصلاة والسلام عن الأعمى كان لتزكية غيره. وفي قراءة: (فتنتفعه) عطفاً على (يزكِّي، أو يذَّكَّر).

ولا شك أن الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فيه إيناس بعد الإيحاء، وإقبالاً بعد الإعراض والعتاب، فهو أسلوبٌ فريدٌ متميز دل على أنه سبحانه كره أن يواجه نبيه وحبيبه المصطفى ﷺ بهذا العتاب، ولكنه تعالى أراد أن يظهر حقيقة الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفع مبادئها، وأنها وحي من الله تعالى، ليس للنبي ﷺ فيها شيء إلا التلقي والتبليغ، ودلت أيضاً على أمانته عليه الصلاة والسلام، وأنه بلغ كل ما أوحى الله إليه، فما كتم منه شيئاً.

وارتفعت نبرة العتاب في الآيات، واشتدت لهجته حتى تحوّل إلى التعجيب:

﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَفْتَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾﴾

أي: أما من استغنى عن الإيمان وعمّا عندك من العلم، فأنت تتعرض له وتقبل عليه وتصغي إلى كلامه؟! وفي قراءة: (تصدّى) بتشديد الصاد.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُكِّيَ ﴿٧﴾﴾

أي: وما يضيرك أن يبقى في رجسه وكفره، فأنت لا تسأل عن ذنبه.

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾

أي: يسرع في طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾﴾

أي: يخشى الله تعالى.

﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾

أي: تتشاغل وتُعرض عنه.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: لا تفعل ذلك، ولا تعدّ لمثله.

ولقد انفعلت نفس الرسول ﷺ لهذا الإرشاد والعتاب حتّى كان يقول لابن أم مكتوم كلّما أتى إليه: «مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»، ويدينه منه، ويبسط له رداءه كما مرّ معنا.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنها موعظة، يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.

وقد ذكروا أنه ﷺ ما عبسَ في وجه فقيرٍ ولا تصدَّى لغني، وتأدَّبَ الناسَ بذلك أدباً حسناً، وقد رُوِيَ عن سفيان الثوري أنَّ الفقراء كانوا في مجلسه أمراء^(١).

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٢)

أي: اتعظ به. وذكر الضمير لأنَّ التذكرة في معنى الذكر والوعظ، وهي تذكرة عظيمة كريمة رفيعة عزيزة.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣)

عند الله تعالى.

﴿مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤)

أي: مرفوعة المنزلة والقدر، مطهرة، لا يمسُّها إلا الملائكة المطهرون.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ (١٥)

وهم الملائكة الذين يتسخونها من اللوح المحفوظ. وهذا يدل على أنَّ القرآن الكريم أنزلَ أولاً إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، ثم نزل على رسول الله ﷺ منجماً بواسطة جبريل عليه السلام أمين الوحي.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ (١٦)

أي: عن المعاصي، أو على الله تعالى، وبررة: جمع بار. وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «المَاهِرُ

بالقرآن مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، والذي يقرأ القرآنَ، ويتتَعَنُّ فيه، وهو عليه شاقٌّ له أجران» [رواه مسلم (٧٩٨)].

* * *

تكفير وتحقير

﴿قَالَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقْتَهُ فَقَدَرْتَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرْتَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَنَا صَبَبْتُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرْتَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرْتُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْتُ الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ سَقَفْنَا الْأَرْضَ سَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَسَا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَلَعَا لَكُمُ اللَّعِينُ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَغُزُّ الْمُتْرَبُ مِنْ أَجْدِ ﴿٣٤﴾ وَأُمَيْهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاْفِرُ الْغَافِرُ ﴿٤٢﴾﴾

ثم حملت الآيات حملةً شديدةً على الإنسان المعرض عن القرآن الكريم، والذي لا يتأثر بمواعظه، ولعلَّه الإنسان المشرك الذي تصدَّى النبي ﷺ لدعوته.

﴿قَالَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿١٧﴾﴾

أي: لُعِنَ وَطُرِدَ، ما أشدَّ كفره بالله تعالى وآياته! فهو تعجيبٌ من شدة كفره، ودعاءٌ عليه بأشنع الدعوات، وأردفت الدعاء بالتحقير:

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتَهُ فَقَدَرْتَهُ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: فقدَّره لما يصلح له ويليق به، أو فقدَّره أطواراً إلى أن أتت خلقه.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾﴾ .

ثم سهَّلَ خروجه من بطن أمه .

وهو أمر عجيبٌ محيرٌ، فقد حيرَ الأطباءَ، إذ كيف يمرُّ الجنينُ في ذلك الممر الضيق، وعنق الرحم لا يتسعُ في العادةِ لأكثر من إبرة لدخوله، فيتسع ذلك العنقُ، ويرتفعُ تدريجياً في مرحلة المخاض، حتى ليسع إصبعاً ثم إصبعين ثم ثلاثة فأربعة، فإذا وصل الاتساع إلى خمسة أصابع فالجنين على وشك الخروج^(١).

وقد يكونُ المرادُ: سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له في هبة العقل، وتمكينه من النظر، أو هو سبيل الهدى والضلال أي سهّل له الطريق الذي يريدُ سلوكه من طريق الخير والهدى وطريق الشر والضلال، بأن أقدره ﷻ على كلِّ، وممكنه منه، والإقذارُ على المراد نعمةٌ ظاهرةٌ بغض النظر عن خيريته وشرّيته^(٢).

﴿ثُمَّ أَمَّا لَهُ فَاقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾

أي: جعله ذا قبرٍ تُوارى فيه جثته وسوءته، ولم يجعله مطرحاً على الأرض، يستقذره من يراه، وتأكله السباع والطيور. ولم يقل: قَبَرَهُ، لأن القابِرَ هو الدافن، يقال: أقبره الله؛ أي صيره بحيث يُقبر، وجعل له قبراً.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴿٢٢﴾﴾

أي: بعثه بعد الموت، ويوم النشور هو يوم البعث.
ثم سجلت الآيات على الإنسان تقصيره في حق شكر ما أنعم الله عليه:

﴿كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾﴾

أي: حقاً لم يؤدِّ هذا الإنسان كل ما أمره الله به، فنعِمُ الله عليه عظيمة وكبيرة لا تحصى، ولا يستطيع أحد أن يؤدِّي حقَّ شكرها، فلا ينبغي لأحد أن

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ٤٦٠.

(٢) روح المعاني: ٥٦/٣٠.

يستكثر طاعته وعبادته، ومراً معنا أنه تعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا مَمْنُنَ تَسْتَكْبِرُ﴾ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿[المدثر].

وتأكيداً لهذا المعنى ذكّرت الآيات الإنسان ببعض نعم الله تعالى عليه، وأمرته أن ينظر فيها نظر المتفكر، ليعلم مدى تقصيره في حق شكرها، واختارت من هذه النعم نعمة الطعام:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤)

أي: فلينظر كيف خلق الله تعالى طعامه؟.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (٢٥)

بإنزاله من السحاب، وفي قراءة: (إنا صببنا) بكسر الهمزة على الاستئناف.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ (٢٦)

بالنبات.

﴿فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ (٢٧)

كالحنطة والشعير.

﴿وَعَبْنَا وَقَضْبًا﴾ (٢٨)

وثماراً كالعنب، وما يقضب من الخضار التي تقطع فينبت أصلها.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (٢٩) ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ (٣٠)

أي: ذات شجر كبير عظيم.

﴿وَفَكَهَأَ وَأَبَا (٣١)﴾ .

وهو ما تأكله البهائم من العشب .

﴿مَنْعَا لَكُمْ وَلَا تَعْمَلِكُمْ (٣٢)﴾ .

أي: هذه الأنواع المذكورة من النعم منفعة لكم ولأنعامكم، فاعرفوا فضل الله عليكم، واذكروا مسؤوليتكم الشخصية أمامه للحساب والجزاء .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (٣٣)﴾ .

أي: صيحة البعث من القبور، سُميت بذلك لأنها تصخ الأذان بشدتها .
أو: لأنَّ الأسماع تصيخ لها، من قولك: أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه .

﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤)﴾ .

لاشتغاله بنفسه، أو لعلمه أنهم لا ينفعون ولا يغنون عنه شيئاً .

﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥)﴾ .

أي: ومن أمه وأبيه .

﴿وَصَحْبِيهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾ .

ومن زوجته وأولاده .

﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ .

أي: يشغله شأن نفسه عن شأن غيره .

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم

يقول: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاءَ عُرَاءٍ غُرْلًا» قلت: يا رسول الله! النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة! الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» [رواه مسلم (٢٨٥٩)]. غرلاً: غير مختونين.

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ (٣٨)﴾

مضيئة مشرقة .

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۖ (٣٩)﴾

أصحابها ضاحكون مسرورون .

﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۖ (٤٠)﴾

أي: سواد وكآبة .

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۖ (٤١)﴾

أي: تعلقها ويغشاها سواد وكآبة .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ ۖ (٤٢)﴾

أي: أولئك الموصوفون بما ذكرهم، الذين جمعوا إلى الكفر الفجور؛ الكفر بحقوق الله تعالى، والفجور بحقوق العباد .
ولا شك أن المشرك الذي تصدّى النبي ﷺ له، ومع ذلك أصر على كفره هو من هؤلاء الكفرة الفجرة .



تفسير سورة التَّكْوِيرِ الْوَحْيِ وَالْإِسْتِقَامَةَ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اضطراب النظم الكونية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوَدَّةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْحَبِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾
وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْصَرْتَ ﴿١٤﴾ .

بدأ الله تعالى سورة التكوير بقوله:

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١) .

أي: لَفَّ ضوءها فذهب، وزال أثره وانتشاره في الآفاق.

وأصل التكوير: جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكويرُ العمامة، وجمع الثياب بعضها إلى بعض، وما يحدثُ للشمس يحدثُ للقمر، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾ [القيامة: ٩].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الشمس والقمر مكوران يوم القيامة» [رواه البخاري (٣٢٠٠)].

وهذا يدل على أنّ النظم الكونية تختلُّ وتضطربُ بين يدي الساعة إيداناً بتبديلها وتغييرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾

أي: أظلمت ومُحي نورها، أو: أزيلت من مواقعها وأفلاكها وتناثرت. والأول أوجه لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات]، فالانكدار من الكدر ضد الصفو.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾

عن أماكنها، ونسفت فصارت هباءً منبثاً.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾

أي: أهملت وتُركت، والعشار: جمع عشراء، وهي الناقة التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها، وهي أنفَسُ مالٍ عند العرب. والمراد بيان أن الناسَ في ذلك الوقت يهملون أموالهم ويتركونها من شدة الهول.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾

أي: جمعت ليقْتَصَ لبعضها من بعض، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُرَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال النبي ﷺ: «لتؤدَّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» [رواه مسلم (٢٥٨٢)].

وهذا تصريحٌ بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها كما يُعاد أهل التكليف من الآدميين، وكما يعادُ الأطفال والمجانين، ومن لم تبلغه دعوة، والقصاص من القرناء والجلحاء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف عليها، بل هو قصاصٌ مقابلةً، ثم تردُّ تراباً، فالوحوش النافرة إذا كانت هذه حالها في هذا اليوم فكيف ببني آدم؟! .

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

فاضت وملئت وصارت بحراً واحداً، لعلَّ سبب ذلك أنه يرسل عذبا على مالحها، ومالحها على عذبا، ويرفع الله الحاجز الذي جعله بينهما وأخبر عنه بقوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠].

وقد يكون المراد: أوقدت فصارت تضطرم.

وفي قراءة: (سُجِّرَتْ) بتخفيف الجيم.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾

أي: قرنت الأرواحُ بالأجسادِ، أو جُمِعَ الصالح مع الصالح، والفاجر مع الفاجر. وأصل الزوج: المقارن، كزوجي النعل، فأطلق على لازمه، وهو المماثل، قال تعالى: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصفات: ٢٢].

أو قرن بين الغاوي ومن أغواه من شيطان أو إنسان كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿وَلِيَّائِهِمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سَلَّتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنْتُ ﴿٩﴾﴾ .

وهي الأنثى التي دُفنت حيةً في التراب، وكان بعض العرب يثدون البناتِ مخافةَ الإملاقِ، أو لحوق العار، وسؤالها توبيخٌ لقاتلها كتوبيخ النصارى بقوله تعالى لعيسى يوم القيامة: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]. وفي قراءة: (قُنْتُ) بالتحديد.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ أطفالَ المشركين لا يعذبون، وعلى أنَّ التعذيب لا يكون بلا ذنب^(١).

ولا شك أنَّ المقصد الأساس لتذكيرهم بهذا الأمر في سياق الأحداث الهائلة التي تكون بين يدي الساعة وفيها، هو تربية نفوسهم، وتقويم اعوجاجهم، وتخليصهم من أدناس الجاهلية وضلالاتها.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: صحف الأعمال تُطوى عند الموت وتُنشر لوقت الحساب. وفي قراءة: (نُشِرَتْ) بالتحديد على معنى الكثير.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾ .

أي: أزيلت، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: أوقدت إيقاداً شديداً للكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَعُوا لَهَا تَعْطُطًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

(١) تفسير النسفي: ٤٦٣/٦؛ وتفسير القرطبي: ٢٣٤/١٩.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: قُرْبَتِ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإُرْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١] ،
وَفِي ذَلِكَ تَكْرِيمٌ عَظِيمٌ لِلْمُتَّقِينَ .

وَجَوَابُ (إِذَا) الشَّرْطِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ :

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: عَلِمَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

فكُلُّ هَذِهِ الْمَقْدِمَاتِ وَالْأَحْدَاثِ الْكَبِيرَةِ تَمْهِيدٌ وَتَوَطُّئَةٌ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ،
فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَر_اقِبَ نَفْسَهُ ، وَيَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ ، لِيَسْتَكْثِرَ مِنَ الْخَيْرَاتِ
وَالطَّاعَاتِ ، وَيُن_أَى عَنِ الشُّرُورِ وَالْمَعَاصِي وَالْآثَامِ .

* * *

طريق الاستقامة

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْغُنْصِ ﴿١٥﴾ الْخَوَارِ الْكُنْصِ ﴿١٦﴾ وَالْيَلِيلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ
رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ دَى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ
رَأَاهُ بِالْأَفْئِ الْيُسْبِيءِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِصِيبٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَنْبَنَ تَذَهُونَ ﴿٢٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا دِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

وهذه الوقائع والأحداث المستقبلية غيب عن الناس ، لا يعلمها أحد غير الله
جلَّ جلاله ، ولا سبيلَ إلى العلم بها إلا بواسطة الوحي ، فالإنسان مخلوقٌ محدودٌ في

قوته وملكاته، وحتى في كسبه ومشيتته، وتصديقه بهذه الوقائع المستقبلية منوطٌ بتصديقه بظاهرة الوحي، ولهذا اتَّجهت الآيات إلى تأكيدها بالقسم، وتقرير نزول الوحي على النبي ﷺ:

﴿فَلَا أَقِيمُ بِالْخُنُسِ (١٥)﴾ .

أي: أقسم بالخنس، وهي النجوم التي تظهر في الليل، وتخس في النهار، فتختفي بنور الشمس.

﴿الْجَوَارِ الْكُنُسِ (١٦)﴾ .

أي: النجوم السيارة في الفضاء، والتي تظهر ليلاً في أماكنها ومواقعها. والكناس: الموضع الذي يأوي إليه الوحش، ولهذا قيل: هي بقر الوحش والظباء، والقول الأول أوجه، فلقد أقسم الله تعالى بالنجوم في عدد من الآيات، كما أنه أكثر انسجاماً مع سياق الآيات.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧)﴾ .

أي: إذا أقبل بظلامه.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ (١٨)﴾ .

أقبل بنوره وأضاء.

ويمكن أن يكون معنى (عسس): أدبر، فهو من أفاض الأضداد، لكنَّ الإقبال هاهنا أنسب، وفي إقبال الصبح روحٌ وحياءٌ بعد الهمود والسكون في الليل. ويأتي جوابُ القسمِ متناسباً مع المعاني الشعورية الحية للصبح المتفسس بالنور والحياء:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: إن القرآن الكريم وحي من الله، نزل به رسول ملكي كريم عند الله تعالى هو جبريل عليه السلام.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ .

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أي: ذي قدرة على ما كلف به، فلا يعجز عنه، ولا يضعف، كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].
﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة عند الله تعالى ومنزلة رفيعة.

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: مطاع في السماوات، تطيعه الملائكة، فهو من سادة الملائكة وأشرفهم، اصطفاه الله تعالى من بينهم لهذه الرسالة العظيمة، قال عليه السلام:
﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِبْرَاهِيمَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].
﴿أَمِينٍ﴾ أي: على وحي الله تعالى إلى أنبيائه، فصدق الوحي منوط بأمانة الرسول.

وكما أثنت الآيات على أمين الوحي الملكي جبريل عليه السلام أثنت أيضاً على أمين الوحي البشري محمد عليه السلام، فعطفت على جواب القسم الأول قوله تعالى:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهو تكذيبٌ لافتراء المشركين، وفي التعرُّض لعنوان الصحبة مضافة إلى ضميرهم تكذيبٌ لهم بأبلغ وجه، فقد نشأ رسول الله عليه السلام بين أظهرهم، فهم أعرَفُ الناس به، وأنه أتمُّ الخلق عقلاً، وأرجحهم قِيلاً، وأكملهم وصفاً، وأصفاهم ذهنًا، فلا يُسندُ إليه الجنون إلا مَنْ هو مرگَّبٌ من الحمق والجنون.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (٢٣)

أي: وبالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل على صورته التي خلقه الله عليها بالأفق الواضح.

فقد ثبت: أن النبي ﷺ رأى جبريلَ على صورته الملكية مرتين: الأولى: في الأرض، والثانية: ليلة الإسراء والمعراج في السماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (٢٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٢٤﴾ [النجم].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي إذ سمعتُ صوتاً في السماء، فرفعتُ بصري، فإذا الملكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فرعبتُ منه، فرجعتُ فقلت: زملوني» [رواه البخاري (٤)].

وهذا تأكيد آخر لظاهرة الوحي، فاللقاء بين الأمينين الملكي والبشري قد تحقق فعلاً دون لبس أو خفاء.

وكما أدى أمينُ الوحي الملكي الرسالة وبلغها، أداها أيضاً الأمينُ البشري وبلغها، ولم يبخل بها:

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ (٢٤)

أي: وما رسولُ الله ﷺ على ما يخبر به من الوحي ببخيل.
فالضنين: من الضنَّ بكسر الصاد وفتحها بمعنى البخل، فما قصر النبي ﷺ في التبليغ والتعليم، وأخبر ما أوحى الله إليه حتى المغيبات من الأخبار.
وفي قراءة: (بِظُنِين) أي: بمتهم من الظنة بالكسر، بمعنى التهمة، فالله تعالى بهذا المعنى ينفي اتهام الكفرة له عليه الصلاة والسلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٥)

أي: ما هو بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع التي تُرجم وتُرمى

بالشهب، وهو نفي لقولهم عن النبي ﷺ: إِنَّهُ كَاهِنٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾ [الشعراء].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: فأين تعدلون عن القرآن، وفيه الهدى والرشاد؟!
أو: أي طريق تسلكون أوضح من هذا الطريق؟! فهو استضلال لهم في إعراضهم عن دعوته عليه الصلاة والسلام، كما يقال لتارك الجادة، الضارب في الأرض على غير هدى وبصيرة: أين تذهب؟!.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: وما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، فرسالته عليه الصلاة والسلام عامة شاملة، تدل على أنه أكمل الناس عقلاً وأرجحهم رأياً.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾

أي: لمن شاء منكم أن يسير على طريق الحق والهدى، فيقوم نفسه ويهذبها، ويخلصها من دنس الجاهلية وآثامها.
ومع أن طريق الاستقامة واضح فلا غنى لكم عن هدايته تعالى وتوفيقه:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أسأله تعالى الهداية والثبات على الصراط المستقيم.



تفسير سورة الانفطار الْعُرُوزُ وَالْفُجُورُ فِي سُورَةِ الْانْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾
 عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ بِنَائِبِهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ أَلَيْدِي حَلَقَكَ فَسَوْنَكَ
 مَعْدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا لَلْ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ
 كِرَامًا كُنُوبِينَ ﴿١٠﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٣﴾
 يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٤﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِعَائِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ
 الَّذِينَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٨﴾﴾

بدأ الله تعالى سورة الانفطار كما بدأ سورة التكوير فقال:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾

أي: انشقت، فهو كقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُجِرَتْ﴾ [المرسلات: ٩].

فالله تعالى يشقها بقدرته ويزيلها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾﴾ .

أي: انقضت وتساقطت متناثرة، وزالت عن أفلاكها.
وهذا يدلُّ على حدوث خلل واضطراب في النظم الكونية الدنيوية.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾﴾ .

أي: فتح بعضها على بعض، فصارت بحراً واحداً، واختلط العذب بالمالح.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾﴾ .

أي: قلب ترابها، وبعث موتاها. وجواب (إذا) الشرطية:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ .

أي: علمت كل نفس ما قدمت من عمل عملته، وما أخرت منه ولم تعمله،
كما في قوله تعالى: ﴿يَبْئُؤُا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [الواقعة: ١٣].
وبعد أن قررت الآيات بعض ما يقع في يوم الحساب، وجهت خطابها إلى
الإنسان المكذِّب به بأسلوب الاستفهام على الإنكار والتعجب:

﴿يَتَأْتِيَ الْإِنْسَانَ مَا عَرَاكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ .

أي: أي شيء خدعك وجرأك على إنكار وتكذيب ما أخبر عنه ربك
الكريم، فكرمه يستوجب شكره وطاعته، لا كفره وتكذيبه.

والغرور: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وسببه الانهماك في شهوات
الدنيا، والاستجابة لوساوس الشيطان، وهو ما حذرنا الله منه بقوله: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ
إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرَتَكُمْ أَلْحِيوَةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذِبٌ فَاتَّخِذُوهُ
عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

ومن إنعامه تعالى وإحسانه وكرمه:

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾

أي: الذي أخرجك من العدم إلى الوجود، فجعلك سوياً كامل الأعضاء، وصرّفك عن الهيئة والخلقة المكروهة.

فالتسوية: جعل الأعضاء سوية سليمة معدة لمنافعها.

وفي قراءة: (فعدلك) بالتحديد، أي: فجعلك معتدل القامة منتصباً.

﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

أي: إن شاء صورك في صورة قبيحة كصورة قرد أو خنزير، فهو سبحانه قادر على تصوير الإنسان في أي صورة، فهو الفاعل لما يريد.

فما أعظم فضله على الإنسان! وما أعظم جحود المكذّبين بيوم الحساب والجزاء! وهو السبب الأصلي لغرورهم، ولهذا أكدّه تعالى بأسلوب الإضراب والانتقال فقال:

﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾﴾

والمراد من التكذيب بالدين التكذيب بيوم الحساب والجزاء، فإنّ انسلاخ الإنسان عن الشعور بالمسؤولية والجزاء يوقعه بالغرور، ويدفعه إلى الفجور.

وفي قراءة: (يكذبون) بالياء.

وهذا الغرور والفجور مسجل عليهم:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾

أي: رقباء من الملائكة يحفظون عليكم أعمالكم ويكتبونها.

﴿كِرَامًا كَنِينٍ﴾ (١١)

أي: كراماً على الله تعالى يكتبون جميع أقوالكم وأفعالكم.

﴿يَعْمُونَ مَا نَعْمُونَ﴾ (١٢)

فلا يخفى عليهم شيء من أعمالكم.

ولا شك أن في تعظيم الكُتَّاب والشناء عليهم تعظيماً لأمر الحساب والجزاء، فهو يربِّي نفس الإنسان ويهذبها، ويجعلها تستشعر الرقابة الدائمة عليها، فضلاً عن رقابته تعالى، فَثَمَّة مخلوقات كريمة عليه تلازم الإنسان، وتحصي أقواله وأفعاله، وتسجلها عليه، وتظهر نتيجة ذلك يوم الدين.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣)

في الجنة.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (١٤)

في جهنم. وفي تنكير النعيم والجحيم ما لا يخفى من التفخيم والتهويل.

﴿يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ (١٥)

أي: يقاسون حرَّها يوم الجزاء الذي كذبوا به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ (١٦)

أي: وما هم بخارجين منها، فهم ماكثون فيها أبداً.

ثم عَظُمَت الآيات يوم الدين:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾﴾ .

وهو تفخيم بعد تفخيم ، وتعظيم بعد تعظيم ، فأمره أمر عظيم هائل .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَيِّئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ .

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَيِّئًا﴾ أي : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ أي : والأمر في هذا اليوم لله وحده ، لا ينازعه فيه أحد ، فلا سلطان لأحد على أحد في يوم الدين كما كان الحال في الدنيا ، فالسلطان كله لله تعالى ، كما في قوله : ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُنٌ لَا يُنْفَعُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .



تفسير سورة المطففين

دِيْوَانُ السَّرِّ وَالْحَيْرِ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
القيام لرب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾ .

﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ .

الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن، مأخوذ من الطفيف وهو القليل، فلا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾﴾ .

أي: الذين إذا أخذوا بالكيل من الناس يأخذون حقوقهم وافية تامة.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ .

أي: وإذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون الكيل والوزن.

ويبدو أنَّ المططفين كانوا لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل، لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة، لأنَّهم يدَّعون ويحتالون في الملاء، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس في النوعين.

وهذا الوعيد يلحق من يأخذ لنفسه زائداً، ويدفع إلى غيره ناقصاً، ويتناول الوعيد القليل والكثير، وهذا إذا لم يتب منه، فإن تاب منه وردَّ الحقوق إلى أهلها قُبِلت توبته، ومن فعل ذلك، وأصرَّ عليه كان مصرّاً على كبيرة من الكبائر^(١). ولهذا أنكرت الآيات عليهم، وعَجَبت من اجترائهم على التطفيف:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾

هو يوم القيامة، فإنَّ مَنْ ظَنَّ ذلك لم يتجاسر على هذه الكبائر، فكيف بمن يتيقنه. وقد اهتَمَّت الآياتُ بأمر الكيل والوزن، لأنَّ عامة الخلق محتاجون إليه، وأمر تعالى بالوفاء فيهما في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمَسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥]. وقوله أيضاً: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]. وأهلك الله تعالى أمة هم أمة شُعَيْب بسبب كفرهم وتلاعبهم بالكيل والوزن.

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

أي: يوم يقوم الناس من قبورهم لأمره تعالى وجزائه وحسابه، حُفَاة عُرَاة. وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ [رواه البخاري (٤٩٣٨)]. وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تُذْنَى الشَّمْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى

قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حفيوه، ومنهم من يلجمه العرق إجماماً، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه. [رواه مسلم (٢٨٦٤)].

* * *

الفجار في سجين

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَمِ سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلِ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنَادَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَمِ سَجِينٍ ﴿٧﴾﴾ .

أي: حقاً إن مصير الفجار ومأواهم لفي سجين، وهو المكان الضيق من السجن، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].
 أو: إن صحائف أعمالهم لفي سجين، وهو كتاب جامع، هو ديوان الشر، دون الله فيه أعمال الشياطين والكفرة من الجن والإنس^(١).
 وعظم سبحانه أمر هذا الكتاب وهوله بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ .

أي: مكتوب فيه أعمالهم كالرقم في الثوب، فلا ينسى ولا يمحي.
 أو: مكتوب عليهم أن مصيرهم إلى سجين.

﴿وَيْلٌ لِّيَوْمِئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾

إذا صاروا يوم القيامة إلى السجن والعذاب الأليم.

﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾

أي: لا يصدّقون بوقوعه، ويكذبون بالحساب والجزاء.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾

أي: إلا كل متجاوز عن نهج الحق، مبالغ في الآثام والمعاصي.

﴿إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءِابْنُنَا قَالَ أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: أكاذيب الأولين.

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ وهو زجر وردع عن هذا القول.

﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بل غلب على قلوبهم وغطاها ما كانوا

يكسبون من المعاصي والآثام.

فللمعاصي آثار سلبية قبيحة على النفس والقلب، فالذنوب تسود القلب وتقسيه، قال تعالى: ﴿الْمُ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وفي الحديث: عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تُعْرَضُ

الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أَشْرَبَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكَتَةُ سَوْدَاءٍ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نَكَتَ فِيهِ نَكَتَةُ بِيضَاءٍ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخرة أسود

مِرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا (منكوساً) لا يعرفُ معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا، إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [رواه مسلم (١٤٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْتَةً سَوْدَاءً، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلَوْ عَلَى قَلْبِهِ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾» [رواه الترمذي (٣٣٣٤) وقال: حسن صحيح].
وفي قراءة: (بل ران) بكسر الراء وإمالتها.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾

أي: حقاً إن هؤلاء المكذبين بيوم القيامة عن ربهم لمحجوبون.
ففي الآية دليلٌ على ثبوت رؤية الله يوم القيامة، قال مالك بن أنس في هذه الآية: لَمَّا حَجَبَ أَعْدَاءَهُ فَلَمْ يَرَوْهُ تَجَلَّى لِأَوْلِيَائِهِ حَتَّى رَأَوْهُ.
وقال الشافعي: لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرُونَهُ بِالرِّضَا^(١).
وقيل: إِنَّهُمْ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ لِمَحْجُوبُونَ وَمَمْنُوعُونَ، وَالأَوَّلُ أَصْحَحُ، لِأَنَّ الرُّؤْيَةَ أَقْوَى الكَرَامَاتِ، وَالْحَجْبُ عَنْهَا دَلِيلُ الْحَجْبِ عَنْ غَيْرِهَا^(٢).

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾

أي: داخلون فيها، ويقاسون حرَّها.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: ثم يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذا الذي كنتم به تكذبون في الدنيا.

(١) تفسير القرطبي: ٢٦١/١٩.

(٢) تفسير النسفي: ٤٦٤/٦.

الأبرار في عليين

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْتَفْوَنَ مِنْ حَيْثُ مَخْرُومٍ ﴿٢٥﴾ خِشْمُهُمْ مَسَكٌ ﴿٢٦﴾ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِرَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُصْرَبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُوِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ ﴿١٨﴾﴾

أي: حقاً إن مصير الأبرار ومأواهم لفي عليين، وهي مراتب عالية محفوظة بالجلالة والشرف.

أو: إن صحائف أعمالهم لفي عليين، وهو علمٌ لديوان الخير، الذي تدوّن فيه أعمال الصالحين، عظمه الله وأثنى عليه بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٢٠﴾﴾

أي: مكتوبٌ فيه أعمالهم، أو مكتوب عليهم أن مصيرهم إلى هذه المراتب العالية الشريفة.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: تحضره الملائكة المقربون أو يحفظونه ويشهدون على ما فيه يوم القيامة، وإذا كان هذا حال كتابهم، فكيف تكون أحوالهم في النعيم؟!.

﴿إِنَّ الْأَثْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

أي: ينظرون إلى ما أعد الله لهم من نعيم الجنة، أو ينظرون إلى ربهم سبحانه.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ .

أي: بهجة التمتع وحسنه وطراوته.

وفي قراءة: (تُعْرِفُ) بضم التاء وفتح الراء، (نضرة) بالرفع نائب فاعل.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي: يسقون من شراب خالص مختوم لم تمسه الأيدي.

﴿خِتَمُهُمْ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿خِتَمُهُمْ مَسْكٌ﴾ أي: مختومة أوانيه بالمسك، أو عاقبة شربه مسك.

وفي قراءة: (خاتمه).

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله

واستباق الخيرات، والانتهاز عن السيئات، فالتنافس في الطاعات أمرٌ محمود، بينما هو مذمومٌ في جمع حطام الدنيا.

﴿وَمَزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: ومزاجُ الرحيق من تسنيم، مصدر سنمه إذا رفعه، فهي أرفع شراب في

الجنة.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: يشرب منها المقربون صرفاً، وتمزج لغيرهم.

وانتصاب (عيناً) على المدح، أو الحال من (تسليم).
ثم ذكرت الآيات بعض قبائح المشركين كتعليل لوعيدهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: يستهزئون بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: وإذا مرَّ المؤمنون بالذين أجمروا يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم استهزاءً بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾﴾

وإذا رجعوا إلى أهلهم رجعوا ملتذين باستخفافهم بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: إنَّ المؤمنين لضالون، وهذا يدل على وقاحتهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾

موكِّلين بهم يحفظون عليهم أعمالهم، ويشهدون برشدتهم وضلالهم.

﴿قَالِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

حين يرونهم أذلاء مهانين معذيين.

﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: والمؤمنون في الجنة يتنعمون، وينظرون إلى الكفار وهم يعذبون.

وتساءلت الآيات في آخر السورة بأسلوب الاستفهام التقريري:

﴿هَلْ تُؤَبَّ الكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: هل جُوزي الكُفَّار بسخريتهم من المؤمنين في الدنيا؟! .
لا شك أنهم جُوزوا أوفر الجزاء وأعدله بميزان العدل الإلهي الذي
لا يبخس أحداً شيئاً، والذي لا تطفيف فيه .



تفسير سورة الانشقاق

انقياد واستسلام في سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿٢﴾ وَأَذتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٤﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٥﴾ وَأَذتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٦﴾ يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلِّقِهِ ﴿٧﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِمِيزَانِهِ ﴿٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَعِيرًا ﴿٩﴾ وَيَقْلُبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿١٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٢﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٥﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ صَبِيرًا ﴿١٦﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالسَّفْقِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ ﴿١٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٩﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقِ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الانشقاق بقوله :

﴿١﴾ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ .

لهول يوم القيامة .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ .

أي: سمعت لربها وانقادت لأمره، وهي حقيقة وجديرة بالانقياد، فقدرته تعالى لا يستعصي عليها أمرٌ من الأمور، فهو العظيم الذي قهر كل شيء، وذلَّ له كلُّ شيء، حجلاً، فالاستماع هنا مجاز عن الانقياد والطاعة والاستسلام.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ .

أي: بسطت فأزيلت جبالها، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه].

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ .

أي: وألقت ما فيها من الأموات حتى صارت خالية غاية الخلو، فلم يبق فيها شيء.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾ .

أي: وسمعت لربها وخضعت لأمره، وهي جديرة بهذا الخضوع والاستسلام. وجوابُ (إذا) محذوف دل عليه سياق الآيات. ثم وجهت الآيات الخطاب للإنسان تبين له حقيقة الحياة وطبيعتها وشدة الأحوال التي يتقلب فيها وأنه ما خُلِقَ فيها عبثاً:

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَئِيهِ ﴿٦﴾﴾ .

أي: يا ابن آدم إنك عامل ناصب تلقى ربك بعملك، وهو أمرٌ حتم لا مناص منه، وما دام الأمر كذلك فاجعل عملك في عبادته تعالى وطاعته، فإنك مسؤول عنه ومحاسب عليه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ .

أي: لا مناقشة فيه، فإن من نوقش الحساب عُذِّبَ كما في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحدٌ يحاسب يوم القيامة إلا هلك» فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وليس أحدٌ يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذِّبَ» [رواه البخاري (٦٥٣٧)].

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ .

أي: ويرجع إلى أهله في الجنة مسروراً.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: من وراء ظهره.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا بُرُورًا ﴿١١﴾﴾ .

أي: فسوف يتمنى الهلاك.

﴿وَيُصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ .

ويقاسي حرَّ جهنم. وفي قراءة: (ويُصَلِّي) بضم الياء. ثم بينت الآيات بأسلوب الاستئناف سبب هذا الهلاك والعذاب:

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ .

أي: إنه كان في الدنيا مع أهله بطراً فَرِحاً لا يفكر في أمر الآخرة.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ (١٤).

أي: ظنَّ أنه لن يرجع إلى الله تعالى، ولن يُسأل ويُحاسب، يقال: حار يحور إذا رجع، ومنه الحديث: «اللهم إني أعودُ بك من الحورِ بعدَ الكورِ» [رواه مسلم (١٣٤٣)] أي: من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ (١٥).

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما ظنَّ، بل يحورُ إلينا ويرجع.
﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ عالماً به وبأعماله، فلا بدَّ أن يُرجعه ويجازيه عليها.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ (١٦).

أي: أقسم بالشفق، وهو الحمرة التي تُرى بالأفق بعد الغروب، أو البياض الذي يليها، وبغياب الشفق يخرج وقتُ صلاةِ المغرب، ويدخلُ وقتُ العشاء.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ (١٧).

أي: وما جمع وضمَّ، فالليل يجمع ويضم ما كان منتشرًا في النهار، فهو قَسَمٌ بجميع المخلوقات لاشتمال الليل عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا بُصُرُونَ﴾ (٣٨) وما لا تبصرون [الحاقة].

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ (١٨).

أي: إذا اجتمع وتمَّ بدرًا. وجواب القسم:

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ (١٩).

أي: لتركبنَّ أيها الناس حالاً بعد حال، كما في الحديث الشريف: عن ابن

عباس رضي الله عنه: «الترْكِبُنَّ طبقاً عن طبق حالاً بعد حال» قال هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم. [رواه البخاري (٤٩٤٠)].

فكل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول.

وفي قراءة: (لترْكِبُنَّ) بفتح الباء.

ويجوزُ أن يكون جمع طبقة، وهي المرتبة، من قولهم: هو على طبقات؛ أي: لتركبن أحوالاً بعد أحوال، هي طبقات في الشدة بعضها أرفع من بعض، وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فهو يكابد شدائد بعضها أرفع من بعض، وهي الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها، وقد يكون المراد أحوال الدنيا والآخرة من النطفة إلى الموت ومنه إلى البعث والحساب والجزاء.

وإذا كانت أحوالهم في تغير دائم مستمر:

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠)

بقدرته على بعثهم وحسابهم. فالذي جعلهم يركبون طبقاً عن طبق قادرٌ على بعثهم للحساب والجزاء.

وهو استفهام إنكارٍ وتعجيبٍ من عنادهم وإعراضهم، فالمخلوقات كلها تُدْعِنُ لله تعالى، وتستسلمُ لأمره الشرعي إلا الإنسان الكافر الجاحد المعاند.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (١١)

أي: لا يخضعون لله ولا يذعنون لأحكام دينه وشرعه.

وهي من آيات سجود التلاوة، واحتج بها أبو حنيفة رضي الله عنه على وجوبه، فمثل هذا الوعيد لا يكون إلا على ترك واجب.

وفي الحديث: عن أبي سلمة قال: رأيتُ أبا هريرة رضي الله عنه قرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ

أَنْشَقَّتْ ﴿ فَسَجَدَ بِهَا ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَمْ أُرْكَ تَسْجُدًا ؟ قَالَ : لَوْ لَمْ أَرَ النَّبِيَّ ﷺ يَسْجُدُ لَمْ أَسْجُدْ . [رواه البخاري (١٠٧٤)] .
ثم بينت الآياتُ سبب عنادهم وجحودهم :

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

أي : يكذبون النبي ﷺ حسداً واستكباراً .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

أي : بما يُضمرون في صدورهم من الحقد والحسد .

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ .

على عنادهم واستكبارهم .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾ .

أي : غير مقطوع أو غير منقوص .



تفسير سورة البروج

تَأْنِيسٌ وَتَنْبِيْهُ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْوَعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُجُوْدِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنُوا لَهُمْ فَلَاحٌ قَلِيلٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبَعِيدٌ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجَنَّاتِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَقَمُودَ ﴿١٨﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ .

بدأ الله تعالى سورة البروج بقوله:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ .

وهو قَسَمَ بالسماء ذات النجوم العظام المرتفعة، سُمِّيت بروجاً لارتفاعها وظهورها، قال تعالى: ﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أو هي منازلُ الشمسِ والقمرِ الاثنا عشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍ لِّلنَّظِيرِينَ﴾ [الحجر].

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾

هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

وهما: يوم الجمعة، ويوم عرفة.

أقسم الله بهذه الأيام تنويهاً بفضلها، وإظهاراً لشرفها على سائر الأيام. وجوابُ القسم:

﴿قُلِّلَ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ﴾

أي: لقد لُعِنَ أصحاب الأخدود، وهو الشق المستطيل في الأرض، جَمَعَهُ أْحَادِيد.

وقد فَصَّلَ النبي ﷺ خبرهم، ففي الحديث الشريف: عن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبُرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبُرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غَلَامًا أَعْلَمَهُ السَّحْرَ.

فَبِعَثَ إِلَيْهِ غَلَامًا يَعْلَمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ، وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرًّا بِالرَّاهِبِ، وَقَعَدَ إِلَيْهِ، إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرْبَهُ، فَشَكَى ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبْسِنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبْسِنِي السَّاحِرَ.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابةٍ عظيمةٍ قد حبستِ الناسَ، فقال: اليوم أعلم السَّاحِرَ أفضلُ أم الرَّاهِبُ أفضلُ؟! فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمرُ

الراهبِ أحبَّ إليك مِنْ أمرِ الساحرِ فاقتلْ هذه الدابةَ، حتى يمضيَ الناسُ، فرماها فقتلها، ومضى الناسُ. فأتى الراهبَ فأخبره، فقال له الراهبُ: أي بني أنتَ اليومَ أفضلُ مني، قد بلغَ من أمرِكَ ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدلَّ عليَّ.

وكان الغلامُ يُبرئُ الأكمَةَ والأبرصَ، ويداوي الناسَ من سائرِ الأدواءِ، فسمعَ جليسٌ للملكِ كان قد عمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك إن أنتَ شفيتني، فقال: إنني لا أشفي أحداً، إنَّما يشفي اللهُ، فإن أنتَ آمنتَ باللهِ دعوت الله فشفاك، فأمنَ باللهِ فشفاه الله.

فأتى المَلِكُ، فجلسَ إليه كما كان يجلسُ، فقال له الملك: مَنْ رَدَّ عليكِ بصركَ؟ قال: ربِّي، قال: ولكَ ربٌّ غيري؟! قال: ربِّي وربُّك الله. فأخذه، فلم يزل يعذبه حتَّى دلَّ على الغلام، فجيءَ بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرِكَ ما تبرئُ الأكمَةَ والأبرصَ وتفعلُ وتفعلُ؟ فقال: إنني لا أشفي أحداً، إنَّما يشفي اللهُ. فأخذه، فلم يزل يعذِّبه حتَّى دلَّ على الراهب، فجيءَ بالراهبِ، فقيلَ له: ارجعْ عن دينك، فأبى. فدعا بالمنشارِ، فوضَعَ المنشارُ في مفرقِ رأسِهِ، فشَقَّهُ، حتى وقعَ شِقَّاهُ. ثم جيءَ بجليسِ الملكِ، فقيلَ له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضَعَ المنشارُ في مفرقِ رأسِهِ فشَقَّهُ به حتى وقعَ شقاه.

ثم جيءَ بالغلام، فقيلَ له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبلَ، فإذا بلغتُم ذروتَهُ، فإن رجعَ عن دينه، وإلا فاطرحوه. فذهبوا به، فصعدوا به الجبلَ، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجفَ بهم الجبلُ فسقطوا، وجاءَ يمشي إلى الملك، فقال له الملكُ: ما فعلَ أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم اللهُ.

فدفعه إلى نفرٍ من أصحابِهِ فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور (سفينة صغيرة) فتوسَّطوا به البحر، فإن رجعَ عن دينه وإلا فاقدفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأتُ بهم السفينةَ، فغرقوا، وجاءَ يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعلَ أصحابُكَ؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إِنَّكَ لست بقاتلي حتى تفعلَ ما أمركَ به، قال: وما هو؟ قال: تجمعُ الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتصلبُني على جِدْعٍ، ثم خُذْ سهماً من كنانتي، ثم ضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قل: بسمِ اللهِ ربِّ الغلامِ. ثم ارمني، فإنَّكَ إذا فعلتَ ذلكَ قتلتنِي.

فجمع الناسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جِدْعٍ، ثم أخذَ سهماً من كنانته، ثم وضعِ السهمَ في كبدِ القوسِ، ثم قال: بسمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثم رماه، فوقع السهمُ في صدغِهِ، فوضَعَ يده في صدغه في موضعِ السهمِ، فمات. فقال الناسُ: آمناً برَبِّ الغلامِ، آمناً برَبِّ الغلامِ، آمناً برَبِّ الغلامِ، فأتي الملكُ فقيل له: أرايتَ ما كنتَ تحذِرُ؟ قد والله نزلَ بك حذرُكَ، قد آمنَ الناسُ.

فأمر بالأخدودِ في أفواهِ السِّكِّكِ فُحِّدَتْ، وأضرَمَ النيرانَ، وقال: مَنْ لِم يرجعُ عن دينه فاحموه فيها (أي: أقمحوه فيها) ففعلوا! حتى جاءتِ امرأةٌ ومعها صبيٌّ لها فتعاستُ أن تقعَ فيها، فقال لها الغلامُ: يا أماه! اصبري، فإنَّكَ على الحقِّ [رواه مسلم (٣٠٠٥)].

وعظمت الآياتُ أمرَ تلكِ النارِ:

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾

أي: ذاتِ الوقودِ من الحطبِ وأبدانِ الناسِ، وهي بدلِ اشتمالِ من الأخدودِ.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾

أي: إذ هم قاعدونَ حولها حينَ أحرَقوا المؤمنينَ بها.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

أي: وهم شاهدونَ لما يفعلونَ بالمؤمنينَ، وهذا يدل على غِلظتهم وقسوتهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾

أي: وما أنكروا منهم، وما عابوا عليهم إلا أن يؤمنوا بالله الغالب الذي يخشى عذابه، المحمود في كل حال، الذي يُرجى ثوابه، فالاستثناء يدل على براءتهم عما يُعاب وينكر بالكُليَّة.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾

فهو الذي يستحق أن يُرجى ثوابه، ويُخشى عذابه.
فيه وعيدٌ عظيم للكافرين ووعد للمؤمنين.

قال علماؤنا: أعلم الله ﷻ المؤمنين من هذه الأمة في هذه الآية ما كان يلقاه مَنْ وَحَدَّ اللهُ قَلْبَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ، يُؤْنَسُهُمْ بِذَلِكَ، وذكر لهم النبي ﷺ قصة الغلام، ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها، ليتأسَّوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق، وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته. وكذلك الراهبُ صبر على التمسك بالحق حتى نُشر بالمنشار^(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: إن الذين عذبوا وأحرقوا المؤمنين والمؤمنات، ثم لم يرجعوا عن كفرهم وإجرامهم.
﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي: فلهم عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق بما أحرقوا المؤمنين، فالجزاء من جنس العمل.
وكان الحسن البصري ﷺ يقول: انظروا إلى هذا الكرم والجود؛ قتلوا أوليائه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة.

وفي مقابل ما أعدَّ الله تعالى لأعدائه من الحريق بيِّن ما أعد لأوليائه من النعيم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾

وهو النجاة من الشر والظفر بالخير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: إن بطشه وانتقامه من الظلمة والجبابة لشديد قوي كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].
خوَّطب النبي ﷺ بهذا الوعيد إيذاناً بأن لكفار قومه نصيباً كبيراً من بطشه وانتقامه، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].
وممَّا يدل على شدة بطشه وانتقامه:

﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾

أي: يُبدئ الخلق ثم يعيده بلا مُمانع ولا مُدافع.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾

أي: وهو الساترُ للعيوب، الغفارُ للذنوب، المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾

أي: العظيم في ذاته ﷻ وصفاته وأفعاله، فمالك العرش وخالقه، وهو أعظم المخلوقات، عظيم في ذاته وصفاته وأفعاله ﷻ.
وفي قراءة: (المجيد) بالكسر صفة للعرش.
وكيف لا يكون عظيماً في ذاته وصفاته وأفعاله وهو:

﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (١٦)

لا يمتنع عليه شيء يريد، ويؤكد ذلك ما فعله في طواغيت الأمم السالفة.

﴿هَلْ أُنثِيَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ (١٧)

أي: خبر الجموع الكافرة الذين كذبوا الأنبياء، وعارضوا دعوتهم، وما أنزل الله بهم من العذاب الذي لم يرده عنهم أحد.

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ (١٨)

وأمثالهم من الطواغيت والظلمة.
ومع ذلك لا يزال الذين كفروا من قومك في تكذيب:

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ (١٩)

أي: بل هم أشد منهم في الكفر والطغيان، فإنهم مغمورون في تكذيب القرآن الكريم، وهم أولى منهم في استحقاق العذاب، فقد سمعوا قصتهم ورأوا آثار هلاكهم.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (٢٠)

فهو عالم بهم، وقادر عليهم، فهم لا يفوتونه، ولا يعجزونه سبحانه.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ (٢١)

وهو رد لكفرهم، وإبطال لتكذيبهم، فالقرآن كتاب شريف فريد في نظمه ومعانيه، لا يحق تكذيبه والكفر به.

﴿ فِي لَوْجٍ مَّحْفُوظٍ ﴾

لا تصل إليه الشياطين، أو محفوظ في الملاء الأعلى، فلا تلحقه زيادة أو نقصان، ولا تحريف ولا تبديل. وفي قراءة: (محموظ) بالرفع نعتاً للقرآن.



تفسير سورة الطارق

الْقَوْلُ الْفَضْلُ فِي سُورَةِ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ اتَّجِمْتُمُ النَّاقُثُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَأَّا عَلَيْهَا حَاطِطٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ
الْإِنْسَانُ سِمَ خَلْقٍ ﴿٥﴾ خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ
﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّانِعِ
﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَزَّلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدٌ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ
أَمْهَلَهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الطارق بقوله:

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ (١) .

أقسم الله تعالى بالسماء وبالطارق، وهو نجم بيته بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ (٢) اتَّجِمْتُمُ النَّاقُثُ ﴿٣﴾ .

أي: المضيء الذي يثقب الظلام بضوئه، سُمِّي طارقاً لأنه يظهر ليلاً.

وجواب القسم:

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ (٤).

أي: ما كل نفس إلا عليها حافظ يحفظ عملها، ويُحصي ما تكسب من خير أو شر، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ (٦) ﴿كِرَامًا كَنِينًا﴾ [الانفطار].
أو: يحفظها من الآفات، وفي قراءة: (لَمَّا) بالتخفيف، فتكون (إن) مخففة من الثقيلة، أي: إن كل نفس لعلها حافظ يحفظها.

ولما بين سبحانه للإنسان أنَّ عليه رقيباً من الله حثه على النظر والتدبر، لكي يعرف أنه مسؤول عن عمله، وأنه تعالى ما خلقه عبثاً ولا سدى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (٥)

أي: فلينظر الإنسان نظرَ تفكر واعتبار من أي شيء خلقه ربه.

﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ (٦)

أي: مدفوق مصبوب في الرحم.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (٧)

أي: يخرج من بين صُلب الرجل وترائبه، ومن بين صُلب المرأة وترائبها.
والصلب: العمود الفقري في الظهر، والترائب: أضلاع الصدر.
ومن الثابت علمياً: أنَّ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة يتكونان عند التخلُّق في هذه المنطقة، ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تستقرَّ في كيس الصفن خارجَ الجسم في أواخر الشهر السابع من الحمل، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة. ومع هذا فإنَّ تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب تبقى من حيث أصلها من بين الصلب والترائب^(١).

(١) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، ص ١١٦.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ .

أي: إن الله الذي قَدِرَ على خلق الإنسان ابتداءً قَادِرٌ على بعثه بعد الموت .
أو: إن الله قادر على رد الماء إلى مقره الذي خرج منه من بين الصلب والترائب .
والمعنى الأول أظهر؛ لقوله بعد ذلك:

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ .

أي: يوم تكشف وتظهر خفايا القلوب والضمائر وأسرارها، وهو يوم
القيامة، وأصل الابتلاء: الاختبار.

﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: فما للإنسان في ذلك اليوم من قوة في نفسه ولا ناصر من غيره .
ثم أقسم الله مرة ثانية:

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ .

أي: ذات المطر، سُمِّيَ به لأنه يجيء ويرجع ويتكرر .
وفيها إشارة إلى ما يسمَّى بدورة المياه في الطبيعة، فمياه الأمطار تعود بواسطة
التبخر والرياح إلى السماء لتتزل مرة ثانية على الأرض بمشيئته تعالى وقدرته .

﴿وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّعْصَعِ ﴿١٢﴾﴾ .

أي: تتصدع وتنشق عن النبات والشجر . وجواب القسم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾﴾ .

أي: إن القرآن فاصل بين الحق والباطل فهو الفرقان بينهما .

﴿وَمَا هُوَ بِأَهْرَاقٍ﴾ (١٤).

أي: باللعب والباطل، فكله جد محض، فمن حقه أن يُهتدى به، وأن يكون مهيباً في الصدور، معظماً في القلوب، وإن كل محاولة لإطفاء نوره وإبطاله فاشلة خاسرة.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَاللَّهُ مَتِّمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

أي: إن الكافرين يحتالون ويعملون المكائد لإبطال أمره وإطفاء نوره، كما في قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِمَ وَاللَّهُ مَتِّمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦).

أي: وأبطل كيدهم، وأجازيهم عليه، فلن يستطيع أعداء الإسلام مهما بلغ كيدهم ومكرهم أن يبطلوا رسالة الإسلام.

﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْمُهُمْ ذُرِّيًّا﴾ (١٧).

أي: فمهل الكافرين المستهزئين، لا تشتغل بالانتقام منهم، ولا تستعجل هلاكهم، أمهلم إمهالاً يسيراً.

ويُلحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول ﷺ، كأنه هو صاحب الأمر وصاحب الإذن، وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم... فهو الود العطوف والإيناس اللطيف يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيدي^(١).



تفسير سورة الأعلى

التَّسْبِيحُ وَالتَّذْكِيرُ فِي سُورَةِ الْأَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سُنُقِرْتِكَ فَلَا تَسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَيَسِّرْكَ لِلْيَسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِذْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيِّدَكَ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَنْجِنَهَا مِنَ الْأَشْفَى (١١) الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الأعلى مخاطباً النبي ﷺ بقوله :

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) .

أي : نزهة ربك عما لا يليق بكماله وجلاله وعظمته .

أو : نزهة اسمه تعالى ، وُضِنُهُ عن الابتذال والتلفظ به في محل لا يليق به ، واذكره على وجه الخشوع والتعظيم ، فكما يجب تنزيه ذاته تعالى وصفاته عن النقائص ، يجب تنزيه الألفاظ الموضوععة لذلك عن النقائص أيضاً ، قال تعالى :

﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[الأعراف: ١٨٠].

ولهذا سَنَّ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمَصَلِّيِّ وَهُوَ فِي أَعْلَىٰ حَالَاتِ الْخُشُوعِ وَالْتِعْظِيمِ، فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ، أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَىٰ.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (٢)

أي: الذي خلق كل شيء فأحكمه وأتقنه وبلغه غاية كماله المناسب له.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (٣)

أي: والذي جعل الأشياء على مقاديرٍ مخصوصةٍ في أجناسها وأنواعها وأفرادها وصفاتها، فوجه كل واحد منها إلى ما يناسبه في حياته ومعاشه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿[طه]. وفي قراءة: (قَدَّرَ) بالتخفيف من القدرة على جميع الأشياء.

وأقرب مثال على كمال قدرته وحكمته:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ (٤)

أي: أنبت ما ترعاه الدواب غضاً رطباً.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ (٥)

فجعله بعد ذلك يابساً ضارباً إلى السواد، ومع ذلك فهو لا يزال كما خلقه تعالى مرعئاً، فهو مرعئاً عندما كان غضاً طرياً ندياً، ومرعئاً بعد أن أصبح غثاءً أحوى. وبعد أن أمرت الآيات النبي ﷺ بالتسبيح، حملت له بشارتين عظيمتين من الله، تدلان على عنايته تعالى به، ومكانته العالية الرفيعة عنده:

البشارة الأولى:

﴿سُنْقِرْتُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ (٦)

أي: سنقرأ عليك آيات القرآن الكريم على لسان جبريل فلا تنسى. وهذا بشارة من الله لنبيه ﷺ أن يحفظ عليه الوحي حتى لا ينفلت منه شيء^(١)، وهو كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرِكْ يَدَيْكَ يَدَا لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَارْتَعِبْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ﴿[الْقِيَامَةُ]﴾.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (٧)

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي: إلا ما شاء الله نسيانه بأن تُنسخ تلاوته. ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن جملة ما يعلم سبحانه حرصك على حفظ ما يُوحى إليك. والبشارة الثانية:

﴿وَنُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ (٨)

أي: ونشرع لك شريعةً سمحةً ميسرة لا حرج فيها ولا عسر، فالإسلام دين يسر، وشريعته شريعة سمحة لا عسر فيها، وكان ﷺ يقول: «أحبُّ الدِّينِ إلى اللهِ الحنيفيَّةُ السمحةُ» [رواه أحمد (٢١٠٧) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) وإسناده صحيح لغيره، كما قال في الفتح (٩٤/١)].

أو: نوفقك توفيقاً حسناً مستمراً للطريقة اليسرى في كلِّ باب من أبواب الدين، ويندرج فيه تيسير تلقي الوحي وتبليغه. أو: نوفقك للأمر الحسن في الدنيا والآخرة من النصر وعلو المنزلة في الدنيا، والرفعة في الجنة.

وما دام الأمر كذلك:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ (٩)

أي: فذكر حيث تنفع التذكرة.

قال ابن كثير في تفسير الآية: ومن هاهنا يؤخذ الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله.

ففي الآية توجية لطيف للنبي ﷺ حتى لا يبالغ في تذكير المعاندين المبالغين في الكفر، الذين لا يُرجى منهم خير، فلا يتعب نفسه في دعوتهم، ولا يعرضها للتلف أسفاً عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله أيضاً: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقوله أيضاً: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ﴾ (١٠)

أي: سيتعظ ويقبل التذكرة من يخشى الله تعالى، فخشيته تهذب النفس، وترقق القلب.

وقد يتذكر مَنْ يرجوه إلا أن تذكر الخاشي أبلغ من تذكر الراجي، فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء، وإن تعلقت بالخشية والرجاء^(١).

﴿وَيَنْجِنَهَا الْأَشَقَىٰ﴾ (١١)

أي: أشقى الكفرة لشدة عداوته رسول الله ﷺ كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

﴿الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ (١٢).

وهي نار جهنم، أما الصغرى فهي نار الدنيا.
ففي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزءاً من سبعين جزءاً من حر جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها» [رواه مسلم (٢٨٤٣)].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (١٣).

أي: ثم لا يموت فيها فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة تنفعه.
(ثم) للتراخي الرتبي، فالموت متراخ عن صلي النار في مراتب الشدة.

﴿فَدَأَفَلَحَ مِنْ زَكَاةٍ﴾ (١٤).

أي: من طهر نفسه من دنس الكفر والمعاصي.
أو: من كان عمله زاكياً خالصاً لله تعالى.
أو: من أدى زكاة الفطر.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ (١٥).

أي: صلى صلاة العيد أو الصلوات الخمس، فذكر الله عند الصلاة أمرٌ محمودٌ مشروع، وهي حجة على وجوب تكبيرة الافتتاح، وأنها من شروط الصلاة لا من أركانها، لأن الصلاة عطفت عليها.
ولا يفعل أكثرهم ما يؤدي إلى الفلاح في الآخرة:

﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦).

وهي فانية زائلة كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (١٠) ﴿وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة]. وفي قراءة: (يؤثرون) بالياء.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٧)

والآخرة خيرٌ في نفسها وأدومٌ من الدنيا.

﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ (١٨)

أي: إن مضمون هذا الكلام لفي الكتب المتقدمة التي أنزلت قبل القرآن.

﴿صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (١٩)

كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنَّا بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿﴾ (٣٧) أَلَّا نَزَّلُ الْوَيْهَانَةَ مِن سَمَاءٍ آخَرٍ ﴿﴾ [النجم].





تفسير سورة الغاشية مَوْعِظَةٌ وَتَذِكْرَةٌ فِي سُورَةِ الْغَاسِيَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ حَشِيَّةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾
تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَدِّ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَئِيَّةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا
سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَكَرَاتُ غُنَّةٍ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ
كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فَعَدِيدُهُ اللَّهُ الْعَدَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ .

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَشِيَةِ ﴿١﴾﴾ .

أي: قد أتاك حديث يوم القيامة التي تغشى الناس وتعمهم بأهوالها وأفزاعها،
فأخباراً يوم القيامة من الغيب الذي لم يعلمه النبي ﷺ حتى أعلمه الله به .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ حَشِيَّةٌ ﴿٢﴾﴾ .

أي: ذليلة، والمراد أصحاب الوجوه الذين كذبوا بيوم القيامة .

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ .

أي: قد عملتُ عملاً كثيراً تعبت فيه، وصلت يوم القيامة ناراً حامية، فعملها في الدنيا لم يدفع عنها عذاب يوم القيامة، لأنه كان لغير الله تعالى أو غير موافق لأحكام دينه، مثل: عمل الرهبان وأصحاب الصوامع من أهل الكتاب.

روي عن الحسن قال: لَمَّا قَدِمَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه الشَّامَ أَتَاهُ رَاهِبٌ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَتَقَهْلٌ (مَتَشَعَّثٌ) عَلَيْهِ سَوَادٌ، فَلَمَّا رَأَاهُ عَمْرٌ بِكَيْ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَبْكِيكَ؟ قَالَ: هَذَا الْمَسْكِينُ طَلَبَ أَمْرًا فَلَمْ يَصِبْهُ، وَرَجَا رَجَاءً فَأَخْطَأَهُ، وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٤﴾﴾ (١).

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» [رواه البخاري (٢٦٦٧)].

قال ابن حجر: «وهذا الحديث معدودٌ من أصول الإسلام وقاعدةٌ من قواعده، فإنَّ معناه: مَنْ اختَرَعَ في الدين ما لا يشهدُ له أصلٌ من أصوله، فلا يلتفتُ إليه، فقلوه: «ردٌّ» أي: باطل غير معتد به» (٢).

وينسحبُ قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ على الذين وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف الذي رواه أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: بينما نحنُ عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسمُ قسماً إذ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجلٌ من بني تميم، فقال: يا رسولَ الله اعدل. فقال: «ويلك ومن يعدلُ إذا لمْ أعدلْ، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكنْ أعدلُ» فقال عمر: يا رسولَ الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: «دعه فإنَّ له أصحاباً يحقِّرُ أحدكمْ صلواته مع صلواتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوزُ تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرقُ السهمُ من الرميَّة» [رواه البخاري (٣٦١٠)].

(١) تفسير القرطبي: ٢٧/٢٠.

(٢) فتح الباري: ٣٠٣/٥.

وقد يكون المعنى المراد: أنها تعمل في النار عملاً تتعب فيه كجرّ السلاسل وحمل الأغلال والخوض في النار. وفي قراءة: (تُضَلَّى) بضم التاء.

﴿سُقِّى مِن عَيْنٍ أَنبَىٰ ﴿٥﴾﴾ .

أي: متناهية في الحرارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. فهذا شرايبهم، وأما طعامهم:

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾﴾ .

وهو نبتٌ وشوكٌ لاطئٌ بالأرض، وهو أخبث طعام وأبشعه، وهو سم قاتل إذا يبس لا تقربه دابة.

والعذاب ألوان، والمعدَّبون طبقات، فمنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة الغسلين، ومنهم أكلة الضريع، فلا تناقض بين الآيات.

﴿لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ ﴿٧﴾﴾ .

فلا نفع فيه، إذ المقصود من الطعام أحد الأمرين؛ وهما: دفع الجوع، وإفادة السمن، وهما متفتيان عن الضريع.

وانتقلت الآيات في المقابل إلى وصف أحوال المُنعَمين يوم القيامة:

﴿وَجُوهٌ يُّومِئِدٍ تَأَمُّمَةٌ ﴿٨﴾﴾ .

أي: متنعمة ذات بهجة وحُسن.

﴿لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ .

أي: لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة، لَمَّا رأت ثوابه، فهي تستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع، شعور الرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها.

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ (١٠)

أي: عالية المحل والقدر.

﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴾ (١١)

أي: لغواً أو كلمة ذات لغو، كما في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ﴾ (٢٥) إِلَّا قِيلاً سَلَامًا ﴿ [الواقعة].

وفي قراءة: (لا يُسمع) بياء مضمومة على التذكير، و(لا تُسمع) بالتاء المضمومة على التأنيث.

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ (١٢)

أي: عيون كثيرة يجري ماؤها ولا ينقطع، والتنكير للتعظيم.

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١٣)

أي: مرفوعة المكان ليشرف المؤمن الجالس عليها على ما حوله من النعيم.

﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (١٤)

أي: وأقداح موضوعة بين أيديهم.

﴿ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴾ (١٥)

أي: ووسائد ومرافق مصفوفة بعضها إلى بعض.

﴿ وَزُرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (١٦)

أي: وبسط فاخرة مبسوطة ومفرقة في المجالس.

هكذا هيأت الآيات بهذه الموعظة وما فيها من ترهيب وترغيب النفوس والقلوب لقبول الحق والإذعان له، فعادت بها من عالم الآخرة إلى عالم الدنيا المحسوسة المحيطة بها تذكُّرها بكمال قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ .

أي: أفلا ينظرون نظر التفكير والاعتبار إلى الإبل كيف خلقت خلقاً دالاً على كمال قدرة خالقها وحكمته وحسن تدبيره.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾ .

رفعاً بعيد المدى دالاً أيضاً على كمال قدرة مبدعها ورافعها، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: وإلى الجبال الشامخة العالية كيف نُصبت على الأرض وأُرسيت.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: بسطت ومُهِّدت.

فَمَنْ غَيْرُ اللَّهِ يَخْلُقُ مِثْلَ الْإِبِلِ، وَيَرْفَعُ مِثْلَ السَّمَاءِ، وَيُنْصِبُ مِثْلَ الْجِبَالِ، وَيَمْهَدُ مِثْلَ الْأَرْضِ؟! .

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ .

أي: فذكرهم بالأدلة الدالة على كمال قدرة الخالق ليتفكروا فيها، إنما أنت مذكر، ليس عليك إلا التبليغ، ولا مسؤولية عليك إن لم يتذكروا ويتعظوا.

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (٢٢)

أي: بِمُسَلِّطٍ فَتُكْرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (٢٣)

ولكن من تولى منهم وكفر بعد التذكير فَإِنَّ اللَّهَ الْوَلَايَةَ عَلَيْهِ وَالْقَهْرُ.

﴿فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ﴾ (٢٤)

فَاللَّهُ يَعَذِّبُهُ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، وَإِنَّمَا قَالَ: (الأكبر) لِأَنَّهُمْ عَذِبُوا فِي الدُّنْيَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ، مِثْلُ: الْجُوعِ وَالْقَحْطِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَكَانَتِ النَّارُ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥)

أي: رَجُوعُهُمْ. وَأَفَادَ تَقْدِيمَ الظَّرْفِ التَّشْدِيدَ بِالْوَعِيدِ، فَإِنَّ إِيَابَهُمْ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْجَبَّارِ الْقَهَّارِ الْمُقْتَدِرِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ. وَفِي قِرَاءَةِ: (إِيَابَهُمْ) بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (٢٦)

فَنَحَاسِبُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَنَجَازِيهِمْ بِهَا جَزَاءَ أَمْثَالِهِمْ. وَ(عَلَى) لِتَأْكِيدِ الْوَعِيدِ لَا لِلْوَجُوبِ، إِذْ لَا يَجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ. وَالْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ بِـ (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)، وَ(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) فِي الْعِيدِينَ وَفِي الْجُمُعَةِ. [رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨٧٨)]. وَلَعَلَّ سِرَّ ذَلِكَ مَا فِيهِمَا مِنْ تَسْبِيحٍ وَمَوْعِظَةٍ وَتَذَكُّرَةٍ.



تفسير سورة الفجر

إِهْلَاكَ الطُّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ فِي سُورَةِ الْفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥﴾
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ وَتَمُودَ الَّذِينَ
 جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢﴾
 فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ
 وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦﴾ كَلَّا بَلْ
 لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا
 لَمًّا ١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ
 صَفًّا صَفًّا ٢٢﴾ وَجِئَءَ يَوْمِيذٍ يَجْمَعُهُ يَوْمِيذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٣﴾ يَقُولُ
 يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ فَيَوْمِيذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ٢٥﴾ وَلَا يُوقِنُ وِاقَفَهُ أَحَدٌ ٢٦﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ
 الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ .

بدأ الله تعالى سورة الفجر بالأقسام التالية:

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ .

وهو انفجارُ النور في الصباح كقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ [التكوير: ١٨].
 والمراد: جنسُ الفجرِ أو فجر يوم مخصوص هو أولُ ذي الحجة أو يوم

عرفة أو يوم النحر أو الجمعة، وقد يكون المراد صلاة الفجر.

﴿وَالْيَالِ عَشْرٍ﴾

أي: عشر ذي الحجة، وقد ورد في فضلها: ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما العملُ في أيام العشر أفضلَ منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خرجَ يخاطرُ بنفسِه وماله فلم يرجع بشيءٍ» [رواه البخاري (٩٦٩)].

أو العشر الأواخر من رمضان، فقد وردَ في فضلها: ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ إذا دخلَ العشرُ شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله. [رواه البخاري (٢٠٢٤)].

﴿وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ﴾

هو في الأصل العدد، منه شفع، ومنه وتر، وفي المعنى المراد أقوالاً: الأشياء كلها شفعتها ووترها، أو الخلق، لقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رَجُلَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

والخالق لأنه فرد، أو شفع الليالي العشر ووترها، أو شفع الصلاة ووترها، أو عشر ذي الحجة وأيام منى الثلاثة، وفي الحديث الشريف: عن عمران بن الحصين رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سُئِلَ عن الشفع والوتر، فقال: «هي الصلاة بعضها شفعٌ، وبعضها وتر» [رواه أحمد (٤٣٧/٤) والترمذي (٣٣٤٢) وفي إسناده راو مبهم].

وأخرج النسائي في الكبرى [١١٦٠٨]: من حديث جابر - رفعه - قال: «العشرُ عشرُ الأضحى، والشفعُ يومُ الأضحى، والوترُ يومُ عرفة». وفي قراءة: (والوتر) بكسر الواو.

﴿وَالْيَلِ إِذَا يَسَّرَ﴾

أي: إذا يمضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْيَلِ إِذَا أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣].

أو: يُسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، ونهار صائم، وهو قسم بالليل على العموم، أو قسم بليلة معينة هي ليلة مزدلفة التي يُسرى فيها من عرفات. ثم قررت الآيات فخامة الأشياء المقسم بها، وكونها مستحقة لأن تُعظم بالإقسام بها، للدلالة على تعظيم المقسم عليه وتأكيده، بقوله تعالى:

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ .

أي: هل فيما أقسمتُ به مقلع لذي عقل، سُمِّي بذلك لأنه يحجر صاحبه عن ما لا ينبغي، كما سمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن القبائح. وجوابُ القسم محذوفٌ لكي يذهب الخيالُ في تقديره كل مذهب، وتقديره: ليهلكنَّ الله الطغاة والجبابرة، دلَّ عليه قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ .

وهم قوم هود الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية. زاد في تعريفهم فقال:

﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾ .

أي: قبيلة إرم ذات البناء الرفيع، أو ذات الخيام والعمد، أو ذات الأجسام الطوال، أو ذات القوة والثبات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ .

أي: مثل عاد في قوتهم وشدتهم.

﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾ .

أي: وتمود الذين قطعوا الصخر بوادي القرى، وجعلوا منه بيوتاً لأنفسهم.

فجابوا: قطعوا، ومنه: فلان يجربُ البلاد أي يقطعها، قال تعالى:
﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ .

أي: ذي الجنود والجيوش التي تشدُّ ملكه .
أو: الذي كان يعذب الناس بالأوتاد تجبراً منه وطغياناً.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ .

أي: تجاوزوا الحد بكفرهم وظلمهم .

﴿فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ .

أي: فنشروا فيها الفساد، فالطغيان يؤدي إلى فساد البلاد والعباد، فهو
يفسدُ الضمائر والنفوس، ويجعلها مرتعاً خبيثاً لتحقيق رغبات الطغاة والجبابرة،
فلا بدَّ من تطهير الأرض منهم .

ففي الحديث الشريف: «إِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُ لِلظَّالِمِ، إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم
قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].
[رواه مسلم (٢٥٨٣)].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ .

أي: أوقع بهم العذاب على أبلغ الوجوه، إذ الصبُّ يشعرُ بالدوام،
والسوط يدل على زيادة الإيلام .

وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآية يقول: إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَسْوَاطًا كَثِيرَةً
فَأَخَذَهُمْ بِسَوْطِ مِنْهَا^(١) .

﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: إنه تعالى يرصد أعمال بني آدم، وهو عالم بما يصدر منهم، فيجازيهم عليها؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

ثم بيّن تعالى أن كثرة المال والجاه الذي يعطيه الله للطغاة والجبابرة ليست دليلاً على كرامتهم، فإن الكافر الذي لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء هو الذي يرى الكرامة بكثرة المال، والإهانة بقلته:

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ .

أي: فأما الإنسان الكافر إذا اختبره ربه بالغنى فأكرمه ونعمه بالجاه والمال، فيقول: ربي فضلني بما أعطاني .

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ أي: ضيق عليه، وقتر رزقه .
وفي قراءة: (فقدّر) بالتشديد .

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ﴾ أي: أذلني بالفقر .

ونفى الله كلا الأمرين من بسط الرزق وتقديره، لأن كل واحد منهما اختبار للعبد، أشكر أم يكفر، ويصبر أم يجزع؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

فالإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقلته، فهما بتقدير الله وحكمته، فقد يوسّع على الكافر لا لكرامته، ويضيّق على المؤمن لا لهوانه، فالله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لهوانها وحقارتها، قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّهُ هُوْلَاءَ وَهَمَّؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولا يُعطي الآخرة إلا من يحب .

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ (١٧).

﴿كَلَّا﴾: أي: ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ أي: بل هناك شرٌّ من هذا القول، وهو أن الله يوسّع عليهم فلا يؤدون ما يلزمهم فيه من إكرام اليتيم، وهذا دليل على سقوطهم في الابتلاء.

﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ (١٨).

أي: ولا يحض بعضكم بعضاً على طعام المسكين.

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ (١٩).

أي: وتأكلون الميراث أكلاً شديداً، والمراد: أنهم يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم.

﴿وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (٢٠).

كثيراً شديداً مع حرص وشهوة.

وفي قراءة: (يكرمون، يحاضون، يأكلون، يحبون) بالياء.

وفي يوم القيامة تظهر نتيجة الابتلاء، ويندم الساقطون فيه ندماً شديداً:

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (٢١).

أي: حقاً إذا زلزلت الأرض وحركت تحريكاً شديداً، ودُقَّتْ وكُسرت مرة بعد مرة.

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٢٢).

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء على الوجه اللائق بجلاله وكماله، من غير

تكيف ولا تشبيه. أو: جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء.
﴿وَالْمَلَكُ صَقًّا صَقًّا﴾ أي: والملائكة يصطفون صقاً بعد صف.

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُهُ لهُ الذِّكْرُ﴾ (٢٣).

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ لعرض ما فيها من أنواع العذاب.
وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» [رواه مسلم (٢٨٤٢)].
﴿يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُهُ لهُ الذِّكْرُ﴾ أي: يومئذ يتعظ الإنسان، ومن أين له منفعة الموعدة، فهي توبة وموعظة غير مقبولة في غير وقتها، أو يتذكر أعماله فيندم عليها.

﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٢٤).

أي: قدمت الخير والعمل الصالح لحياتي في الآخرة التي لا موت فيها، فهي الحياة الحقيقية.

﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ (٢٥).

أي: ليس أحد أشدَّ عذاباً من تعذيب الله من عصاه وكفر به.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا﴾ (٢٦).

أي: ليس أحد أشدَّ قبضاً ووثقاً من قبض الله ووثقه للمجرمين.
وفي قراءة: (لا يُعَذِّبُ، ولا يوثق) بالفتح على البناء للمفعول، والمعنى: لا يعذب عذاب هذا الكافر أحد ولا يوثق وثاقه أحد.
هذا مصير الجبابرة والطغاة، وأما مصير المؤمنين الصالحين فدلّت عليه الآيات بقوله تعالى لما يقال لكل واحد منهم:

﴿يَأَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ .

أي: المطمئنة بذكر الله، والمصدقة بوعدده ووعيده، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].
 أو: التي تؤمن بقاء الله، وترضى بقضائه، وتقنع بعبائه، فقد أخرج الطبراني وابن عساكر: عن أبي أمامة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ علمه أن يقول: «اللهم إني أسألك نفساً مطمئنةً، تؤمن ببقائك، وترضى بقضائك، وتقنع بعبائك».
 أو: الخاضعة لأمره تعالى والمصدقة برسالة نبيه، فلا يخالجه فيها شك.

﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾﴾ .

أي: ارجعي إلى جواره وثوابه، وما أعدَّ لعباده في جنته، راضية عن الله، ورضي الله عنها وأرضاها. يقال لها هذا عند الاحتضار أو في يوم القيامة.
 وقد يكون المراد: ارجعي إلى صاحبك وجسدك، فهو أمرٌ للأرواح أن ترجع إلى الأجساد عندما يبعثها الله يوم القيامة من القبور.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ .

أي: ادخلي مع عبادي وفي جملتهم، وادخلي جنتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].
 أسأله تعالى أن يجعلنا منهم.



تفسير سورة البلد

اَفْتَحَامُ الْعَقَبَةِ فِي سُورَةِ الْبَلَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٣﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٥﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٦﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٧﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٩﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿١٠﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١١﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُ رَبِّبَةٌ ﴿١٤﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبٍ ﴿١٥﴾ بَلِيغًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَيْمَنِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيْنَانَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢١﴾

أقسم الله تعالى في أول سورة البلد فقال:

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ .

وهي مكة المكرمة .

﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ .

أي: وأنت يا محمد مقيمٌ به، نازلٌ فيه، فكأنه عظم حرمته مكة من أجل أنه مقيمٌ بها، ففيه إظهارٌ لمزيد فضله، وإشعارٌ بأن شرف المكان بشرف أهله^(١).

أو: مثلك على عظم حرمتك يستحلُّ بهذا البلد، يعني مكة، كما يستحل الصيد في غير الحَرَم؟! فقد كان رسول الله ﷺ في مكة يكابد من أذى المشركين، ففي الآية تثبت لرسول الله ﷺ وبعث له على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة، وتعجيبٌ من حالهم في عدوانهم^(١).

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

أو: وأنتَ حلٌّ مما صنعت في هذا البلد من قتل أو غيره.

أو: أنت حلٌّ بهذا البلد غير محرم في دخوله؛ يعني عام فتح مكة.

قال ابن كثير في تفسيرها: وأنت يا محمدٌ يحلُّ لك أن تقَاتِلَ به، وقال مجاهد: ما أصبت فيه فهو حلال لك. وقال الحسن: أحلَّها الله له ساعة من نهار.

وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا، فإنَّ هذا بلدٌ حَرَمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وهو حرامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إلى يومِ الْقِيَامَةِ، وإنَّه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي، ولم يحلَّ لي إلا ساعة من نهارٍ، فهو حرامٌ بِحَرَمَةِ اللهِ إلى يومِ الْقِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شوْكُهُ، ولا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، ولا يلتقطُ لقطته، إلا مَنْ عَرَفَهَا، ولا يُخْتَلَى خِلاها» قال العباس: يا رسولَ اللهِ إلا الإذخر، فإنه لقينهم وليوتهم. قال: «إلا الإذخر» [رواه البخاري (١٨٣٤)].

واعترضَ على هذا القول بأنَّ السورة مكيةٌ، وأنَّ هذا كان عند فتح مكة في السنة الثامنة بعد الهجرة.

وأجابوا عن هذا الاعتراض بأنَّ المراد من قوله: ﴿وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾^(٢) في المستقبل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾^(٣) [الزمر] ومثله واسعٌ في كلام العرب، تقول لمن تعده الإكرامَ والحبَاء: أنت مكرَّمٌ محبوبٌ، لأنَّ الأحوال المستقبلية عنده كالحاضرة المشاهدة^(٢).

(١) تفسير النسفي: ٥١٣/٦.

(٢) تفسير القرطبي: ٦٠/٢٠.

ففي هذا المعنى إشارة إلى أن عاقبة الاحتمال والمكابدة إلى الظفر والفتح، فالغرض تسليته ﷺ عمّا يكابد من أذى قريش وتبشيريه بالفتح والنصر.

﴿وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ (٣)

أي: وأقسم بوالد وما ولد، والمراد: كل والد وما ولد، أو آدم وذريته، أو إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فهم الذين أقاموا في مكة المكرمة، والله تعالى أقسم بالبلد الحرام وبمن سكن فيه من الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام. وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (٤)

أي: في تعب ومشقة، وأصل الكبد: الشدة، ومنه تكبّد اللبن: غلظ وخشرا واشتد، ومنه الكبد لأنه دم تغلّظ واشتد، ويقال: كابدتُ هذا الأمر، أي: قاسيتُ شدته^(١).

فالإنسان يكابد منذ بداية حياته شدائد الدنيا، ثم يكابد ما بعدها من شدائد الآخرة، فحياته سلسلة متواصلة من الشدائد، فهو يعاني من المشقة ألواناً وضروباً كثيرة منذ استهلاله صارخاً إلى أن يكبر ويصير رجلاً، ثم هو بعد ذلك كله يمرضُ ويموتُ، ويلقى في قبره، وفي آخرته ما يلقي من المصاعب والمتاعب، ولو كان الأمرُ له لما اختار هذه الشدائد. ودلّ ذلك على أن له خالقاً خلقه، وقدر عليه هذه الأحوال الشديدة، فكيف يُظنُّ أنه خُلِقَ سدىً، وأن الله تعالى لن يسأله عن عمله، ولن يجازيه عليه.

ولهذا قال تعالى منكرأ على أمثال هذا الإنسان ومعجباً من حاله:

(١) تفسير القرطبي: ٦٢/٢٠.

﴿يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾

أي: أيحسب أن الله تعالى لن يقدر على بعثه بعد موته ومحاسبته .
وهو يستكبر بماله ويستطيل بكثرة نفقاته :

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَأُبَدَأُ ﴿٦﴾﴾

أي: كثيراً، من تلبّد الشيء إذا اجتمع . وفي قراءة: (لُبْدًا) بتشديد الباء .
ولا شك أن كثرة إنفاقه تبين سبب تكذيبه وطغيانه، فالترف من أكبر أسباب الضلال والطغيان .

وقد يكون مراد الآية تهديد أحد رؤساء المشركين من قريش الذين كان النبي ﷺ يكابد من أذاهم ما يكابد، وكانوا ينفقون أموالهم في عداوته عليه الصلاة والسلام .

﴿يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾﴾

حين ينفق ما ينفق رياءً وافتخاراً أو عدواناً على النبي ﷺ .
ولا بد لهذا المستطيل بماله أن يُدْكَرَ بضعفه وشدة حاجته، وافتقاره إلى ربه، وذلك بتعريفه ببعض نعم الله تعالى عليه :

﴿الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْتَهُ النُّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾

أي: وبيننا له طريقي الخير والشر، والحق والباطل، فالنجد: العلو، وجمعه نجد، ومنه سُمِّيَتْ نجد لارتفاعها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] . وقيل: هديناه الثديين ليتغذى بلبنهما .
وعليه في مقابل هذه النعم أن يشكر الله عليها، ويستعملها في طاعته وعبادته .

﴿فَلَا أَقْنَمِ الْعَقْبَةَ﴾ (١١)

أي: أفلا اقتحم العقبة. والاقترحام: الدخول في الأمر الشديد، والمراد من العقبة: سبيل النجاة والفوز يوم القيامة. والمعنى: أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير؟.

وقد يكون المراد من العقبة مجاهدة نفسه، وحملها على السير في نجد الخير وطريقه.

وهي عقبة كأداء، صعبة شديدة، ولهذا عظمها، وبَيَّن أهم الأسباب المساعدة على اقتحامها وتجاوزها فقال:

﴿وَمَا أَدْرَنكَ مَا الْعَقْبَةُ﴾ (١٢) ﴿فَكَ رَقَبَةٍ﴾ (١٣)

أي: عتق رقبة بتحريرها، وتخليصها من الرق والعبودية، فالإسلام دين الحرية، وإعتاق المملوك من أعمال البر، ضربه الله تعالى مثلاً لمجاهدة النفس، وحملها على السير في طريق الفلاح.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً أَعْتَقَ اللَّهُ بِكُلِّ عَضْوٍ مِنْهَا عَضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ، حَتَّى فَرَجَهُ بِفَرَجِهِ» [رواه مسلم (١٥٠٩)].

وفي قراءة: (فَكَ رَقَبَةً) فعل ماضٍ ومفعول به.

﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (١٤)

أي: ذي مجاعة وشدة. والمسغب: الجوع.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (١٥)

أي: ذا قرابة، فالصدقة على القريب المحتاج أفضل منها على غير القريب، وفيها أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة.

وفي الحديث الشريف: أَنَّ امْرَأَةً عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ سَأَلَتْ النَّبِيَّ ﷺ: أَيْجِزِي عَنِّي أَنْ أَنْفَقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامَ لِي فِي حِجْرِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «نَعَمْ، وَلَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ» [رواه البخاري (١٤٦٦)].

وَبَيَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَضْلَ مَنْ يَعُولُ يَتِيمًا وَيُطْعِمُهُ فَقَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِأَصْبَعِيهِ السَّبَابَةَ وَالْوَسْطَى. [رواه البخاري (٦٠٠٥)].

وفي قراءة: (أَوْ أَطْعَمَ) بِغَيْرِ أَلْفٍ وَبِفَتْحِ الْمِيمِ.

﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

أي: بَلَغَ الغَايَةَ فِي الجُوعِ، حَتَّى كَأَنَّهُ وَقَعَ عَلَى التُّرَابِ وَلصَقَ بِهِ. وَلَا تَنْفَعُهُ هَذِهِ القُرْبُ وَتَسَاعِدُهُ عَلَى اقْتِحَامِ العُقْبَةِ وَالْوَصُولِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، إِلَّا إِذَا فَعَلَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ تَعَالَى:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: وَأَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَنِ المَعَاصِي، وَعَلَى الطَّاعَاتِ وَالمَحَنِ الَّتِي يُبْتَلَى بِهَا المُؤْمِنُ.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أي: بِرَحْمَةِ النَّاسِ وَالشَّفِيقَةِ عَلَى الضَّعْفَاءِ.

فَالِإِسْلَامُ دِينُ الإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ، وَجَاءَ بِحَرْفِ العَطْفِ (ثم) لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَهْمِيَةِ الإِيمَانِ، وَتَبَاعَدِهِ فِي الرِّبَّةِ وَالفِضِيلَةِ، لَا فِي الوَقْتِ، إِذْ هُوَ السَّابِقُ عَلَى غَيْرِهِ، وَلَا يُبْتَدَأُ عَمَلٌ صَالِحٌ إِلَّا بِهِ^(١).

﴿أُولَئِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾

أي: أُولَئِكَ المَتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَصْحَابُ الِيمِينِ الَّذِينَ يُؤْتُونَ كِتَابَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ، أَوْ أَصْحَابُ الِئْمَنِ وَالخَيْرِ.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾ .

أي: هم أصحاب الشمال أو الشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

أي: مطبقة عليهم أبوابها، من أوصدتُ الباب: إذا أظبقتَه وأغلقته. فلا يخرجون منها، ولا يأتيهم من خارجها رُوْحٌ ونسيمٌ.
وفي قراءة: (موصدة) بغير همز.



تفسير سورة الشمس تَرْكِيَةُ النَّفْسِ فِي سُورَةِ الشَّمْسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَعْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ حَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ .

بين الله تعالى في سورة الشمس ضرورة تركية النفس، وخطورة إهمال ذلك بالأقسام التالية:

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ .

أي: وضوئها، والضحى: حين ترتفع الشمس ويصفو ضوءها.

﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾﴾ .

أي: تبعها، ففي أول الشهر يظهر القمر بعد غروب الشمس.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾﴾

أي: جلا ظلمة الليل بضياؤه، وكشفها بنوره. وهو كناية عن غير مذكور لكونه معروفاً.

أو: جلى الشمس وأظهرها، فإنَّ الشمسَ تتجلى في النهار وتظهر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾﴾

أي: يغشى الشمس ويسترها وينشر الظلام.
فحاصل هذه الأقسام الأربعة يرجع إلى الشمس في الحقيقة.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾

أي: ومن بناها، وإنما أوثرت (ما) على (من) لإرادة معنى الوصفية، كأنه قال: والسماء والقادر العظيم الذي بناها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾﴾

أي: بسطها وسطحها ليمكنَّ الناس من العيش عليها.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾

أي: وما خلق فيها وجعل فيها من الملكات والمواهب.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾

أي: فجعل فيها نوازع للشر وللخير، ففي طبيعة الإنسان استعداداً مزدوجاً للخير والشر، وجعله تعالى قادراً على سلوك سبيل الخير أو الشر كما مرَّ معنا في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقوله أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

والإلهام ما يحصل في النفس من دون اكتساب، فنوازع الفجور والتقوى كامنة في نفس الإنسان، وهي من أسباب ابتلائه واختباره، وعليه أن ينمي جانب الخير، ويقمع جانب الشر، وذلك بمجاهدة نفسه، وهو الجهاد الأكبر الذي يلزم الإنسان طول حياته.

فتكوين النفس البشرية وما جعل الله فيها من أسرار من الأدلة الظاهرة على كمال قدرته تعالى وحكمته، كالأدلة الظاهرة في خلق الشمس والقمر والأرض والليل والنهار. وجواب هذه الأقسام:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٩)

أي: لقد أفلح من زكى نفسه وطهرها من الشرور والآثام.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (١٠)

أي: أخفاها بالشرور والآثام، والمراد: أنه أهمل تزكيتها حتى غلبت عليها نوازع الشر وغمرتها.

فتزكية النفس أمرٌ ضروري وهام في حياة الإنسان، دلت على أهميته وضرورته كثرة الأقسام المؤكدة له في صدر السورة، وأهم وسائله المحققة له: أداء العبادات على وجهها الصحيح المشروع كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

ومنها: الإكثار من ذكره تعالى، واللجوء إليه بالدعاء والضراعة:

ففي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهزم وعذاب القبر، اللهم أت نفسي تقواها، وزكّاها أنت خير من زكّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك

من علم لا ينفَعُ، ومن قلب لا يحشَعُ، ومن نفس لا تشبَعُ، ومن دعوة لا يُستجاب لها» [رواه مسلم (٢٧٢٢)].

ويؤدي إهمال تركية النفس إلى الطغيان والكفر والفجور:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَانَهَا ﴿١١﴾﴾ .

أي: بطغيانها، فالحامل لهم على تكذيب نبيهم صالح طغيان الشر على نفوسهم، حتى دساها وغمرها وغلّب عليها.

﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ .

أي: حين قتل الناقة المعجزة أشقى رجل في ثمود، وأكثرها طغياناً وإجراماً وشرّاً.

وفي الحديث الشريف: أن عبد الله بن زمعة سمع النبي ﷺ يخطبُ وذكر الناقة والذي عقرها فقال: «إذ انبعث أشقاها؛ انبعث لها رجلٌ عزيزٌ، عارمٌ، منيعٌ في رهطه مثل أبي زمعة» [رواه البخاري (٤٩٤٢)]. قوله (عارم): كثير الشر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾ .

أي: اتركوا ناقة الله، واتركوا شربها، لا تتعرضوا لها بسوء، ولا تمنعوها عن الماء يوم شربها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾ .

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ أي: فكذبوا رسول الله صالحاً ﷺ فيما جاءهم به، فقتلوا الناقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّهُ لَهُمْ فَارْتَبِقَهُمْ وَأَصْطَرِبَ ﴿١٧﴾ وَنَبَّهْتُمْ أَنَّ الْمَاءَ فِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلِّ شَرِبٍ مُحْضَرٌ ﴿١٨﴾ فَادَّوْا صَاحِبِهِمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿١٩﴾﴾ [القمرا].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ أي: أهلكتهم ربهم هلاك استئصال

بسبب ذنبهم، فسوى الدمدمة عليهم جميعاً، أو أطبق عليهم العذاب حتى لم ينفلت منه أحد.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (١٥)

أي: لا يخاف الله تبعه من أحد في هلاكهم، فهو القوي القاهر جَلِيلٌ. وفي قراءة: (فلا) بفاء العطف.



تفسير سورة الليل

تَوْفِيقٌ وَحَذَلَانٌ فِي سُورَةِ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ١ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ٢ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ ٣ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ ٤ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ ٥ ﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ ٦ ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِيُسْرَىٰ﴾ ٧ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَعَلَ وَالْحَسَنَىٰ﴾ ٨ ﴿وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَىٰ﴾ ٩ ﴿فَسَنِّيئَرُهُ﴾ ١٠ ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ ١١ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ١٢ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ ١٣ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ١٤ ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ ١٥ ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ ١٦ ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ١٧ ﴿وَسَيَحْنَبْهَا إِلَّا أَنْفَىٰ﴾ ١٨ ﴿الَّذِي يُوَفِّي مَالَهُ يَرْكَبُ﴾ ١٩ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ ٢٠ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ ٢١ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ٢٢ .

أدى وجود نوازع الخير والشر في نفوس الناس إلى اختلاف أعمالهم ، وهو ما أكده تعالى بالقسم في أول سورة الليل .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ١ .

أي : يغطي بظلامه المكونات ويسترها ، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾

[النبا: ١٠] .

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ٢ .

أي : ظهر ووضح .

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣)

أي: والقادر العظيم الذي خلق الذكر والأنثى. أو: وخلق الذكر والأنثى.
وجواب القسم:

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (٤)

أي: إن أعمالكم لمختلفة ومتباعدة، فمن فاعل خير، ومن فاعل شر.
ثم فصلت الآيات الاختلاف بين الأعمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٦)

أي: فأما من أنفق ماله في سبيل الله، واتقى المعاصي، وصدق بالكلمة الطيبة الحسنى، وهي: لا إله إلا الله، أو صدق بالجنة كما في قوله تعالى:
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

﴿فَسَيَسِّرُهُ اللَّهُ لِلْيَسْرَىٰ﴾ (٧)

أي: فسوف يسهل له العمل الخير والصلاح أو للجنة، وهما متلازمان؛ لأن عمل الخير يؤدي إلى الجنة، أو فسهيئه للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ (٨)

أي: وأما من بخل في النفقة في طاعة الله، واستغنى بشهوات الدنيا عن ثواب الله تعالى، فلم يرغب فيه. أو: واستغنى بماله فطغى وتجبر.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ (٩) ﴿فَسَيَسِّرُهُ اللَّهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (١٠)

أي: فسيسره للشر والعمل الذي يؤدي إلى العسر والعذاب.

فالله سبحانه يجازي مَنْ قصدَ الخيرَ بالتوفيق له، وَمَنْ قصدَ الشرَّ بالخذلان، وكل ذلك مقدرٌ بقدر وعلم سابق.

ففي الحديث الشريف: عن علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة، فأخذ شيئاً، فجعلَ ينكتُ به الأرضَ فقال: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وقد كُتِبَ مقعدهُ مِنَ النارِ ومقعدهُ مِنَ الجنةِ» قالوا: يا رسول الله أفلا نتكلُّ على كتابنا، ونَدْعُ العملَ؟ قال: «اعملوا فكلُّ ميسرٍ لِمَا خُلِقَ له، أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السعادةِ فَيُسِّرُ لعملِ أهلِ السعادةِ، وأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشقاءِ فَيُسِّرُ لعملِ أهلِ الشقاءِ» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَكَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾﴾ الآية. [رواه البخاري (٤٩٤٩)].

فمصير الإنسان محجوب عنه، وعليه أن يجتهدَ في عمل ما أمر به، واجتناب ما نُهي عنه، فقد منعهم النبي صلى الله عليه وسلم من ترك العمل، وأمرهم بما يجبُ على العبد من العبادة والطاعة، ونظير ذلك الرزق المقدر مع الأمر بالكسب، والأجل مع الإذن بالتداوي.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾﴾ .

أي: وما يغني عنه ماله الذي بخل به وطغى بسببه وتجبر، إذا هلك وسقط في القبر أو في جهنم، فتردَّى: من الردى وهو الهلاك. ولا عذر له حينئذٍ، لأنَّ الله تعالى بيّن له طريق الخير والرشاد، وميزه عن طرق الضلال.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٧﴾﴾ .

أي: إن علينا أن نبين طريق الهدى، ونقيم بذلك الحجة على الناس.

واكتفى بذكر طريق الهدى، لأنَّ كل طريق آخر يخالفه لا بدَّ أن يكون من طُرُق الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٣)

أي: وإن لنا كمال السلطان والملك في الحياة الآخرة والأولى، فلا يضرنا ضلال الضالين، ولا ينفعنا اهتداء المهتمدين.

أو: إن لنا ثواب الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤].

ثم أوردت الآيات موازنةً بين حالتين متضادتين تأكيداً لما سبق في قوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]:

الأولى: لرجل من أغنياء المشركين استغنى بماله وتجبّر وتكبر:

﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلَطَّىٰ﴾ (١٤)

أي: تتلهّب.

﴿لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْآسَقَىٰ﴾ (١٥)

أي: إلا الشقي المصرُّ على تكذيبه وكفره.

﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (١٦)

أي: الذي كذب رسلي، وأعرض عن طاعتي.

وهذه نار موصوفةٌ بعينها، ولأهل النار منازلٌ ودركاتٌ، فليس في الآية حجةٌ لمن زعم من أهل الإرجاء أنه لا يدخل النار إلا كافر، فلو كان كل من لا يشرك لا يُعذَّب لم يكن في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فائدة.

والثانية: لرجل من أغنياء المسلمين استعمل ماله في طاعة الله والتقرب إليه:

﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْآلَفَىٰ﴾ (١٧)

أي: التقي الحريص على تقوى الله وطاعته.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ (١٨)

أي: الذي يطلبُ عندَ الله أن يكونَ زاكياً طاهراً، لا رياء في عمله ولا سمعة.

أو: الذي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ (١٩)

أي: وما لأحدٍ عنده من يد يكافئه عليها.

﴿إِلَّا ابْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠)

أي: لكنَّ فعله طلباً لرضوان ربه. فهي شهادة رفيعة من الله تعالى بإخلاص هذا الرجل في ما أنفق من مال، وأنه ما أنفقه إلا في سبيل الله تعالى.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١)

أي: وسوف يعطيه الله العطاء الذي يرضيه، وتقر به عينه، كما قال سبحانه لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع المفسرين، أنفق ماله لتخليص المستضعفين من المسلمين، أعتق قبل أن يهاجرَ إلى المدينة ست رقاب، بلال سابعهم؛ وهم: عامرُ بن فُهيرة، والنهدية وابنتها، وجاريةُ بني مؤمل، وأم عيسى، وزنيرة. حتى قال له أبوه: يا بني إني أراك تُعتقُ رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا ما فعلتَ أعتقت رجلاً جُلداً يَمنعونك، ويقومون دونك! فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبتِ إني إنما أريدُ اللهَ تعالى. فنزلت هذه الآيات ^(١).

قال ابن كثير رضي الله عنه في ختام تفسيره للسورة: أي ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ (٢١) من

(١) سيرة ابن هشام، باختصار.

اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أنَّ هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ حتى إنَّ بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخلٌ فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، ولكنه مقدم الأمة، وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحدٍ من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيدٌ ثقيفٍ - يوم صلح الحديبية: أما والله لو لا يدُ لك عندي لم أجزكُ بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظَ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ .



تفسير سورة الضحى

إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الضُّحَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَشَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)﴾

أظهر الله تعالى في سورة الضحى المكانة الرفيعة التي أكرم بها النبي ﷺ، وأكد ذلك بالقسم فقال:

﴿وَالضُّحَىٰ (١)﴾ .

أي: وهو وقت الضحى في صدر النهار حين ترتفع الشمس.

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾ .

أي: إذا سكن، ففيه تسكنُ الأصوات، وتهدأ الحركات.

أو: أقبل ظلامه واشتدَّ.

أو: غطى النهار مثلما يُسجى الرجل بالشوب.

وجواب القسم:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾

أي: ما تركك ربك وما أبغضك.

وفي قوله: (ما ودعك) من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب، ومن تعزُّ مفارقته.

وفي حذف المفعول في قوله: (وما قلى) لطف أيضاً به ﷺ، وشفقة عليه، حتى لا يواجهه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى^(١).

وورد في سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلتين أو ثلاثة، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣)﴾. [رواه البخاري (٤٩٥٠)].

وبعد أن أخبره تعالى بأنه لا يزال يواصله ويكرمه في الدنيا، بشره بأن ما سيعطيه في الآخرة أجلُّ وأعظم من ذلك، فقال:

﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾

أي: وما أعدَّ الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود خيرٌ لك وأعظم من الذي أعطاك في الدنيا، فلا يزال رسول الله ﷺ يترقى بفضل الله تعالى عليه في الرفعة والكمال في الدنيا والآخرة.

(١) روح المعاني: ٣٠/١٩٩.

قال ابن عباس: أَرِي النَّبِيَّ ﷺ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِهِ بَعْدَهُ فَسُرَّ بِذَلِكَ، فَنَزَلَ جَبْرِيْلُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (١).

فالدار الآخرة خيرٌ للنبيِّ ﷺ من هذه الدار، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام أزهَدَ الناسِ في الدنيا، وأعظَمَهم لها أطراحاً، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته، ولَمَّا خَيْرَ ﷺ في آخر عمره بين الخُلْدِ في الدنيا وبين صيرورته إلى الله ﷻ اختار الرفيق الأعلى، وفضله على هذه الدنيا الدنية كما قال ابن كثير رَضِيَ اللهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وجاءت بعد البشارة العدة الكريمة:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾

أي: ولأنَّتِ سوف يُعْطِيكَ رَبُّكَ فتَرْضَى بما تُعْطَى.

فالعطاءُ كائنٌ لا محالة وإن تأخَّرَ لحكمةٍ، وهو شاملٌ لما أعطاه الله في الدنيا من كمالِ الخَلْقِ والخُلُقِ، وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولَمَّا ادخرَ جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من المواهب والمقامات الرفيعة، التي لا يحيطُ بها إلا اللهُ ﷻ. وعن علي والحسن: هو الشفاعةُ في أُمَّتِهِ حَتَّى يَرْضَى. وفي الحديث الشريف: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا» [رواه مسلم (١٩٩)].

وكان جعفر بن محمد بن علي يقول: إنكم يا معشرَ أهلِ العراق تقولون: أَرَجَى آيَةَ فِي الْقُرْآنِ: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وَإِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ نَقُولُ: أَرَجَى آيَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٢).

(١) تفسير القرطبي: ٩٥/٢٠.

(٢) تفسير الخازن: ٥٢٧/٦.

ثم بيّن تعالى أن نعمه على النبي ﷺ دائمة لا تنقطع، فكما أحسن إليه فيما مضى يحسنُ إليه فيما يُستقبل، فقال:

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾

أي: ألم يعلمك الله يتيمًا حين مات أبوك ولم يخلف لك مالاً ولا مأوى، فجعل لك مأوىً تأوي إليه، فأواك إلى جدك عبد المطلب، ثم إلى عمك أبي طالب وكفاك المؤونة.

ف (يجدك) من الوجود الذي هو بمعنى العلم، وقيل: هو من قولهم: درة يتيمة، والمعنى: ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فأواك إليه وأيدك وشرفك بنبوته، واصطفاك لرسالته^(١).

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾

أي: ووجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، فهداك إليها كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

أو: وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك، وهداك إلى الإيمان، وعرفك طريق الخير والرشاد. ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في غي، فقد كان رسول الله ﷺ من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان^(٢).

وقد يكون المعنى: وجدك غافلاً عمّا يراد بك من النبوة فهداك، أي

(١) تفسير الخازن: ٥٢٨/٦.

(٢) تفسير النسفي: ٥٢٨/٦.

أرشدك، والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ (٨)

أي: ووجدك فقيراً ذا عيال فأغناك بمال خديجة، أو بغنى النفس.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» [رواه البخاري (٦٤٤٦)].

وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب، بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره، فيتحقق أنه المعطي المانع، فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى^(١).

وبعد أن ذكّر ربه بفضل العظيم عليه، وجهه إلى هذه الآداب العالية الرفيعة، ووجه المسلمين من ورائه صلى الله عليه وسلم:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ﴾ (٩)

أي: لا تحقر اليتيم ولا تدله، ولا تعبس في وجهه، ولا تغلبه على ماله وحقه لضعفه، ولكن أحسن إليه وتلطّف به.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ (١٠)

أي: لا تزجره، ولا تغلظ له القول، وردّه برفق ولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرُضِّنَ عَنْهُمْ أُنْعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨].

أو: لا تنهر السائل والمسترشد في العلم.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ .

أي: بلِّغ ما أرسلتَ به، وحدِّث بالنبوة، وادعُ إليها، وهي أجلُّ النعمِ.
 أو: هي جميع الخيرات، والتحدُّثُ بها شكرُها، وكان علماء المسلمين
 يرون أنَّ من شكرِ النعمة أن يحدثَ بها ولا يكتمها.



تفسير سورة الشرح إِنْعَامٌ وَإِكْرَامٌ فِي سُورَةِ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ ﴿٨﴾ .

ثم ذكّرت الآيات النبي ﷺ في سورة الشرح بالأسلوب نفسه بنعمة خفية خصّه الله تعالى بها كان لها أثر كبير في حياته :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ .

أي: قد شرحنا لك صدرك، فهو استفهامٌ أريد به التقرير، أي: نورنا، وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً بما أودعنا فيه من الحكم، وما أزلنا عنه من الضيق والحر، حتى وسع مناواة الحق، ودعوة الخلق كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أو: نورنا بالإيمان كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلْفَنسِيَّةِ قَلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَتْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

أو: يسرنا لك تلقّي الوحي بعد أن كان يشقُّ عليك .

والمراد من كل ذلك الشرح المعنوي، وثبت أيضاً الشرح الحسي لصدره الشريف عليه الصلاة والسلام؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قُتِلَ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره. [رواه مسلم (١٦٢)].

كما ثبت أيضاً ليلة الإسراء والمعراج؛ ففي حديث المعراج: عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدثه عن ليلة أسري به قال: «بينما أنا في الحطيم مضطجماً إذ أتاني آت، فقد (فشق) ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعريته، «فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً، فغسل قلبي، ثم حُشِي، ثم أتيت بدابة...» [رواه البخاري (٣٨٨٧)].

قال ابن حجر رحمته الله: «وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به، وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل»، ولكل منها حكمة»^(١).

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾

أي: حططنا عنك ذنبك الذي تراه ذنباً، وهو شعوره عليه الصلاة والسلام أنه مقصر في حق شكره تعالى على فضله العظيم عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

أو: خففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها.

﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾

أي: أثقله، فقد أنزل الله تعالى عليه قولاً ثقیلاً، كان تلقّيه يثقل عليه في ابتداء أمره جدّاً، فیسره الله عليه، وعوده على تلقّيه، وقواه على تحمله وتبليغه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾

بالنبوة وغيرها، مثل: قرّن اسمه عليه الصلاة والسلام باسمه ﷺ في كلمتي الشهادة، وجعل طاعته طاعته، وصلى عليه في الملائ الأعلى، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، وخاطبه بالألقاب، ك: يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، ويا أيها المدثر، وذكره في كتب الأولين، وأخذ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يؤمنوا به إن أدركوا زمانه.

وقد أشار حسان بن ثابت رضي الله عنه إلى عظيم قدره بقوله:

أغرّ عليه للنبوّة خاتمٌ من الله مشهودٌ يلوخُ وَيَشْهَدُ
وضمّ الإله اسمَ النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمسِ المؤذنُ: أشهدُ

وبعد كل هذا الإكرام والإنعام بشره تعالى باليسر بعد العسر:

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾﴾

أي: فإنّ مع العسر الذي أنت فيه يُسرًا عظيمًا، فلا تيأس من فضل الله تعالى. وجيء بلفظ (مع) لغاية مقارنة اليسر العسر.

ثم استأنفت الآياتِ وعَدها:

﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾

أي: يُسرًا آخر، هو يسر الفتوح والتمكين في الأرض أو يسر الآخرة.

ولا شكَّ أنَّ النكرة المعادة (يُسْرًا) ظاهرها التغيرات، بينما المعرفة (العسر) إذا أعيدت كانت الثانية عين الأولى، فصار المعنى: إنَّ مع العسر يسرين، قال الحسن: لما نزلت هذه الآية قال رسولُ الله ﷺ: «أبشروا فقد جاءكم اليسرُ، لن يغلبَ عسرُ يسرين» [رواه الطبري (٢٣٦/٣٠)].

وقال ابن مسعود: لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ لطلبه اليُسْرُ حتَّى يدخلَ عليه ويُخرِجه، إنَّه لن يغلبَ عسرُ يسرين^(١). [رواه الحاكم (٢٥٥/٢) والبيهقي في الشُّعَب (٢٠٦/٧)].

ويروى عن الشافعي أنه قال:

صبراً جميلاً ما أقربَ الفَرْجَا مَنْ راقبَ الله في الأمورِ نَجَا
مَنْ صدقَ الله لَمْ يَنْلُهْ أَدَى وَمَنْ رجاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا
وعودَه على تلقيه، وقوَاه على تحمله وتبليغه، وعليك وأنت تتنظر فرجَ الله
وتيسيره أن تستمرَّ على عبادته وطاعته:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

أي: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الحق، أو إذا فرغت من صلاتك فتوجه إلى الله بالدعاء والاستغفار والتسبيح، واجعل رغبتك إلى الله وحده، أو إذا فرغت من الفرائض فاشرع في النوافل.

ومهما قيل في معنى الآية فكلُّها تبعث النبي ﷺ على الاجتهاد في العبادة، وألا يخلي وقتاً من أوقاته منها؛ فكلَّمَا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى، وهو توجيه أيضاً للمؤمنين من وراء النبي ﷺ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سهلاً (عاطلاً عن أي عمل) لا في عمل دنياه، ولا في عمل آخرته^(٢).



(١) تفسير الخازن: ٥٣٢/٦.

(٢) المرجع السابق: ٥٣٤/٦.

تفسير سورة التين تَقْوِيمٌ وَتَنْكِيسٌ فِي سُورَةِ التَّيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿١﴾ وَهَذَا النَّكَدِ الْأَمِيرِ ﴿٢﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٣﴾
ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ
بَعْدَ بِالذِّكْرِ ﴿٦﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٧﴾

بدأ الله تعالى سورة التين بالأقسام التالية:

﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿١﴾

أقسم الله بالتين، وهو الثمرة المعروفة التي تؤكل، وبالزيتون وهو ثمرة شجرة مباركة، قال الله فيها: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِأَلْبَانِ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

أقسم الله بهما لما فيهما من المنافع والمصالح الدالة على قدرة خالقهما.

أو: هما جبلان مشهوران بكثرة أشجار التين والزيتون في بلاد الشام، بُعث فيهما كثيرٌ من الأنبياء والمرسلين، ويقوِّيه قوله تعالى بعده:

﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ (٢)

وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﷺ، سمي سينين لحسنه وبركته.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣)

أي: الآمن، وهو مكة المكرمة.

قال ابن كثير رحمته الله: «هذه محالُّ ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار، فالأول: محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس، التي بعث فيها عيسى ابن مريم عليه السلام. والثاني: طور سينين، وهو طور سيناء، الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث: مكة، وهو البلد الأمين، الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمد صلى الله عليه وسلم. وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة: جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير (يعني: بيت المقدس)، واستعلن من جبال فاران (يعني: جبال مكة)».

وجواب القسم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (٤)

أي: في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه، فخصَّ بانتصاب القامة، وحسن الصورة، وجودة العقل، وغير ذلك من الخصائص والصفات الظاهرة والخفية.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (٥)

أي: ثم رددناه إلى النار، لأنَّه لم يشكر ربه، ولم يستعمل هذه النعمة في طاعته وعبادته.

ومن المعلوم: أنَّ النار دركات بعضها أسفل من بعض، فبعد هذا الحسن والنضارة يكون مصيره إلى النار، لأنه جحد نعمة الله تعالى، وأعرض عن طاعته

وشكره، فالشكر يؤدي إلى دوام النعمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيَكُمُ لَيْنَ شَكَرْتُمْ لِأَرْبِدِنَاكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

بينما يؤدي الجحود والكفران إلى الحرمان منها، ولهذا قال بعضهم في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [٥]: أي: رددناه إلى أرذل العمر، فيضعف بدنه، وينقص عقله كالضعفاء والمرضى والزمنى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨].

وقد كان رسول الله ﷺ يأمر بالاستعاذة من أرذل العمر، ففي الحديث الشريف: عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان يأمر بهؤلاء الخمس، ويحدثهن عن النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرذِلَ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر» [رواه البخاري (٦٣٧٠)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهزم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات» [رواه مسلم (٢٧٠٦)].

ولا شك أن الاستعاذة من الهرم استعاذة من الرد إلى أرذل العمر، لما يطرأ على الإنسان فيه من الخرف، واختلال العقل، وتشويه بعض المنظر، والعجز عن كثير من الطاعات.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [١].

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنهم لا يردون إلى النار أو إلى أسفل سافلين، ولا تقبح صورهم، بل يزدادون بهجة إلى بهجتهم وحسناً إلى حسنهم. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: فلهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة، ومعاناة ما فيها من المشقات.

فالله تعالى يكتُبُ للذين استمروا على العمل الصالح حتى بلغوا سن

الضعف والشيخوخة مثل الثواب الذي كانوا يعملونه قبل ذلك، كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: مَنْ قرأ القرآن لم يردَّ إلى أرذلِ العُمُرِ^(١).
ثم التفتت الآياتُ إلى الإنسان المكذِبِ بيوم الحساب والجزاء تسأله موبِّخَةً:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾ (٧)

أي: فما الذي يحملك على هذا الكذب؟! أو فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع بيوم الدين؟! إِنَّ خَلْقَكَ مِنْ نَظْفَةٍ، وتقويمك، ثم تنكيسك إلى أن تبلغ أرذل العمر أوضح دليل على قدرة الخالق وحكمته، فما الذي يحملك على إنكار قدرته تعالى على بعثك للحساب والجزاء؟!
وقد يكون الخطاب موجَّهًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويكون المعنى: فمن ينسبُكَ إلى الكذب بعد هذا الدليل؟! ف (ما) بمعنى (من).
أو: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، ويحكم بينك وبين مكذبيك، ويتصف للمظلوم في الدنيا ممَّن ظلمه؟!.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨)

أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد بأحكام الحاكمين صنعاً وتدبيراً، ومَنْ كان كذلك كان قادراً على البعث والجزاء، والحكم بينك وبين مكذبيك، والانتصاف للمظلوم ممَّن ظلمه.
وفي سنن الترمذي [٣٣٤٧]، وأبي داود [٨٨٧]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قرأ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾، فقرأ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».



تفسير سورة العلق

سُجُودٌ وَطُعْيَانٌ فِي سُورَةِ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ ﴿٦﴾ إِنَّ زَاوَاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ حَاتِلَةٍ ﴿١٦﴾ فَلَئِنْ سَأَدْتَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدَعُ الْزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نَطَعُهُ وَأَسْجُدْ وَقْتَرِ ﴿١٩﴾ .

جمع الله للإنسان الكمال المادي والمعنوي، فكما خلقه في أحسن تقويم خلق فيه قابلية التعليم، فقال مخاطباً أفضل الناس وأكملهم خلقاً وخلقاً:

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) .

أي: اقرأ مفتتحاً باسم ربك الذي خلق كل شيء.

أو: اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على حمل أعباء النبوة والرسالة.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢) .

أي: جُمع علقه، وجمعها لأنَّ الإنسان في معنى الجمع، قال تعالى: ﴿أَلَمْ

يَكُنْ نُطْقَةً مِنْ مِثْلِي يَمِينِي﴾ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿[القيامة].

﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾

أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه تعالى ينعم بلا عوض، فهو الكريم وحده على الحقيقة، ويحلم عن عباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه.

وكرر الأمر بالقراءة للتبليغ، فلا يكفي أن يقرأ القرآن لنفسه، بل عليه أن يقوم بتبليغه.

ومما يدل على كمال كرمه تعالى وإحسانه:

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾

أي: الذي علّم الكتابة بالقلم، فالكتابة نعمة عظيمة، استقام بها أمر الإنسان في دينه وديناه، فالقلم كان ولا يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان.

وإبراز هذه الحقيقة بالرسول الأُمِّي ﷺ الذي لم يكن كاتباً يؤكد أن القرآن وحي من الله تعالى ليس للنبي عليه الصلاة والسلام فيه إلا التلقي والتبليغ.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾

فدل على كمال كرمه وفضله، فعلم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

هكذا بين ﷺ بهذه الكلمات مبدأ أمر الإنسان ومنتهاها، فنقله من أحس المراتب إلى أعلاها، تقريراً لربوبيته، وتحقيقاً لأكرميته، فأول الواجبات التي أوجبها عليه معرفة الله تعالى، وهذه الآيات الكريمات المباركات أول شيء نزل من القرآن الكريم.

ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت

مثلَ فَلَقِ الصَّحْحِ، ثم حُبَّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فكان يلحقُ بغارِ حراءٍ، فيتحنَّثُ فيه (والتحنُّثُ: التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، ويتزودُ لذلك، ثم يرجعُ إلى خديجةَ، فيتزودُ لمثلها، حتى فجئه الحَقُّ، وهو في غارِ حراءٍ، فجاءه الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما أنا بقارئ» قال: «أأخذني فغطني حتى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ، قلتُ: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانيةَ حتى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال: اقْرَأْ، قلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثةَ، حتى بلغَ مني الجهدَ، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾» فرجع بها رسولُ الله ﷺ ترجفُ بوادره، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهبَ عنه الروحُ، فقال لخديجةَ: «أي خديجةَ، ما لي؟ لقد خشيتُ على نفسي» فأخبرها الخبر، قالت لخديجةَ: كلا، أبشر؛ فوالله لا يخزيك اللهُ أبداً، إِنَّكَ لتصلُّ الرحمَ، وتصدقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتكسِبُ المعدومَ، وتقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحقِّ... [رواه البخاري (٤٩٥٣)].

ولا شك أن نزول الوحي من أعظم النعم التي تفضّل بها تعالى على عباده، ولهذا زجرت الآيات ورددت من كفر بهذه النعمة وطغى:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾﴾

أي: حقاً إنَّ الإنسان ليتجاوز الحدَّ ويستكبر عن عبادة ربه وطاعته.

﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَبَ ﴿٧﴾﴾

أي: أن رأى نفسه غنياً.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾﴾

أي: إنَّ إلى ربك المرجع والمصير في الآخرة.

ففيها تهديد وتحذير لهذا الإنسان ولأمثاله من عاقبة الطغيان .
وذكرت الآيات بأسلوب التعجيب صورة من صور طغيانه :

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾﴾ .

وهو رسول الله ﷺ، وفائدة التنكير في قوله: (عبدًا) تدل على أنه كامل العبودية لله ﷻ .

وقد نزلت هذه الآيات في أبي جهل، أشد أعداء النبي ﷺ، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «لو فعله لأخذه الملائكة» [رواه البخاري (٤٩٥٨)].

وأخرج النسائي في الكبرى [١١٠٦١]: من طريق أبي حازم، عن أبي هريرة نحو حديث ابن عباس، وزاد في آخره: فلم يفجأهم منه إلا وهو - أي: أبو جهل - ينكص على عقبيه، ويتقي يديه .

وعظه الله تعالى بهذه الآيات أولاً موعظة لطيفة فقال:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾﴾ .

أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الهدى والحق .

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾﴾ .

أي: ودعا إلى تقوى الله، وأنت تزجره وتتوعده على صلته .

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾﴾ .

أي: أرايت إن كان ذلك الناهي مكذِّباً بالحق، ومعرضاً عنه .

وتقدير نظم الآيات: أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو على الهدى أمراً بالتقوى، بينما الناهي مكذِّبٌ معرضٌ عن الإيمان، فما أعجب هذا؟! .

وقد يكون المعنى أيضاً: أخبرني عمّن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدًى فيما ينهى عنه، أو أمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان، أو إنه كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب؟.

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤).

أي: بأن الله يرى ذلك الفعل ويجازيه عليه.
ثم زجره تعالى زجراً شديداً وتوعده وعيداً بليغاً فقال:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥).

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن نهيهِ عن عبادة الله، وأمره بعبادة الأصنام.
﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لئن لم ينته عن ما هو فيه لناخذنَّ بناصيته، فنطويها مع قدميه، ونطرحه في النار، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ سِيْمَتَهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والسفع: القبض الشديد، والجذب. والناصية: مُقَدِّمُ الرَّأْسِ، وخصَّها بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانتة أخذوا بناصيته.

﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ (١٦).

أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، والمراد أنَّ صاحبها كاذب خاطئ.
وذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى أنَّ المراد الناصية نفسها، وهي أعلى الجبهة حيث يستتر الفصُّ الجبهي الأمامي من المخ المسؤول عن شخصية الفرد، والمتحكم في تصرفاته وأفعاله، فالقشرة الأمامية الجبهية هي الموجهة لبعض تصرفات الإنسان التي تدل على شخصيته مثل الصدق والكذب والصواب والخطأ وتحثُّ الإنسان على فعل الخير أو الشر.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧)

أي: فليستنصر بأهل مجلسه وعشيرته.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ﴾ (١٨)

أي: سندعو ملائكة العذاب الغلاظ الشداد الذين قال تعالى فيهم: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿كَلَّا لَا نُطَعُّهُ وَأَسْجُدْ وَأَقْرَب﴾ (١٩)

﴿كَلَّا﴾ وهو ردع آخر للناهي.

﴿لَا نُطَعُّهُ وَأَسْجُدْ وَأَقْرَب﴾ أي: لا تطعه في ترك الصلاة، واسجد لله تعالى،

وتقرب منه.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا مِنَ الدَّعَاءِ» [رواه مسلم (٤٨٢)]. وهذه الآية من آيات سجود التلاوة، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾. [رواه مسلم (٥٧٨)].

ولا شك أن في السجود غاية العبودية والتذلل لله جل جلاله.



تفسير سورة القدر

لَيْلَةُ السَّرَفِ وَالسَّلَامِ فِي سُورَةِ الْقَدْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾ .

عَظَّمَ اللهُ الْوَقْتَ الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، فَقَالَ:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ .

أي: في ليلة تقدير الأمور وقضائها، كما في قوله تعالى: ﴿حَمَّ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان].

سُمِّيَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ لِمَا تَكْتَبُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْأَقْدَارِ.

أو: لعظم خطرها، وشرفها على غيرها من الليالي.

أو: لأنَّ العمل الصالح يكون فيها ذا قدر عظيم.

ومرَّ معنا: أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مَفْرَقًا عَلَى مَدَى عَمْرٍ

الدَّعْوَةَ مِنْ حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَظَّمَ اللهُ الْقُرْآنَ، فَاسْتَدَّ أَنْزَالَهُ إِلَيْهِ، كَمَا عَظَّمَ الْوَقْتَ

الَّذِي أَنْزَلَهُ فِيهِ، وَهُوَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

وشوق النبي ﷺ إليها فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾

أي: لم تبلغ درايته غاية فضلها.
ثم بين ذلك بقوله:

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾

خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية: إنزال القرآن العظيم فيها، فهي ليلة عظيمة شريفة، يشرف من أتى فيها بالطاعات، ويعظم قدره عند الله تعالى، ولا يعلم مقدار فضلها إلا الله ﷻ، وله سبحانه أن يخص ما شاء بما شاء باعتبار الزمان والمكان وكيفية الأداء، فالصلاة في جماعة تفضل صلاة المنفرد بسبع وعشرين ضعفاً، فلا حرج على فضله تعالى، ولا اعتراض عليه، فهو الحكيم العليم.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» [٣٠٦/٤]: عن مجاهد: أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله تعالى ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، وتفاصرت إليهم أعمالهم، فأنزل الله تعالى السورة.

وذكر الإمام مالك في «الموطأ» [١٥/٢٦٣/١]: أن النبي ﷺ أرى أعمار الأمم كافة، فاستقصر أعمار أمته، وخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاها الله تعالى ليلة القدر.

واستأنفت الآيات تبين ما ينزل فيها من الرحمات والبركات والخيرات:

﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾

﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ وهو جبريل ﷺ، خص بالذكر لزيادة شرفه،

وقيل: ملك عظيم، وقيل: طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة، يتنزلون فيها بالسلام على المؤمنين، وذكروا أن جبريل لا يدع أحداً من المؤمنين إلا سلّم عليه وصافحه، وعلامة ذلك رقة القلب، ودمع العين.

﴿يَاذِنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يتنزلون بإذن ربهم، فأمر تنزلهم أمر عظيم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرِ﴾ أي: من أجل كل أمر تعلق به التقدير في تلك الليلة، أو من كل أمر من أمور الخير والبركة والسلام.

﴿سَلِّمْ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾.

أي: ما هي إلا سلام إلى وقت طلوع الفجر، فهي ليلة السلام، لا يقدر الله فيها إلا السلام، أنزل الله فيها القرآن الكريم لينشر السلام بين شعوب الأرض، وفي أطراف المعمورة، بينما يقدر في غيرها السلام والبلاء.

وفي قراءة: (مطلع) بكسر اللام.

وقد ورد لليلة القدر علامات أكثرها لا تظهر إلا بعد أن تمضي:

منها: ما في «صحيح مسلم» [٧٦٢]: عن زر بن حبيش قال: سألت أبي بن كعب رضي الله عنه فقلت: إن أخاك ابن مسعود يقول: مَنْ يَثْمِ الحَوْلَ يَصُبُّ لَيْلَةَ القَدْرِ، فقال: رحمه الله، أراد ألا يتكل الناس، أما إنه قد علم أنها في رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين. ثم حلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين. فقلت: بأي شيء تقول ذلك يا أبا المنذر؟ قال: بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها.

ولابن خزيمة [٢١٩٠]: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «ليلة طلقة لا حارة ولا باردة، تصبغ الشمس يومها حمراء ضعيفة».

ولأحمد [٣١٨/٥]: من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «إن الشمس في صبيحتها تخرج مستوية ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر».

وهي في رمضان، وتُلتمس في العَشْرِ الأَواخرِ في الوتر منه، وفي الحديث الشريف: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قامَ ليلةَ القدرِ إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» [رواه مسلم (٧٦٠)].



تفسير سورة البينة

دِينُ الْقِيَمَةِ فِي سُورَةِ الْبَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ① رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ حَزَّوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ حَتَّىٰ عَدِنَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ .

بين الله تعالى في أول سورة البينة عنادَ وجود الكفار، وإصرارهم على الكفر بعد نزول القرآن الكريم، فقال:

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ ① .

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: من اليهود والنصارى .

﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ومن المشركين، وهم عبدة الأصنام والأوثان .

﴿مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ أي: منتهين عن كفرهم ومنفصلين عنه وإن أتتهم البيينة. فقوله: ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ﴾ لفظه لفظ المستقبل ومعناه الماضي.

والبيينة: رسول الله محمد ﷺ الذي بين لهم الحق وميزه عن الباطل.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾.

أي: يتلو القرآن المطهر من الباطل والكذب والزور، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (١) لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وقوله أيضاً: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (١٧) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ﴾ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ (١٤) [عبس].

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾.

أي: في تلك الصحف مكتوباتٌ مستقيمة ناطقة بالحق، قائمة بالحجة، ومع ذلك فإن أكثرهم لم ينتفع بها، وأعرض عنها.

﴿وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾.

أي: وما تفرقوا عن الحق، إلا من بعد ما جاءهم الحق وقامت عليهم الحجة، وبلغتهم الدعوة ببعثة النبي ﷺ. فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فقد كان أهل الكتاب قبل بعثة النبي ﷺ ينتظرونها ويقولون: لا ننفك عمّا نحن عليه من ديننا، ولا نتركه حتى يُبعثَ النبيُّ الموعود، الذي كتب عندهم في التوراة والإنجيل. فلما بُعث، كفر أكثرهم به، وأعرض عن دعوته، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فكفر الكافرين من أهل الكتاب بدعوة النبي ﷺ أقبح وأشنع من كفر المشركين من عبّاد الأوثان، ولهذا أفردهم سبحانه بالذكر بعد أن جمع بينهم

وبين المشركين، للدلالة على شناعة حالهم، وقُبِحَ كفرهم، فما أمرُوا في كتبهم إلا بعبادة الله وحده:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينٌ الْقِيَمَةِ ۝﴾

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير رياء ولا نفاق.
 ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي: مائلين عن العقائد الباطلة إلى عقيدة التوحيد.
 ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المفروضة عليهم.
 ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ للمستحقين لها.

﴿وَذَلِكَ دِينٌ الْقِيَمَةِ﴾ أي: دين الملة المستقيمة التي شرعها الله تعالى؛ وهي الشريعة الإسلامية، فهي صراطُ الله المستقيم، وحبلُه الممتين، ودينُه القويم، فالتزموا بها، وتمسكوا بأحكامها، فإنَّ الإعراضَ عنها يؤدي إلى الهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝﴾

أي: شر الخليقة التي برأها الله تعالى وذراها، لأنهم أعرضوا عن الشريعة القيِّمة.

وأما الذين تمسكوا بأحكامها وساروا على منهجها:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝﴾

وفي قراءة في الموضوعين: (البريئة) بالهمزة على الأصل، من برأ الله الخلق؛ أي: خلقهم.

﴿جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَزَاءُ جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿جَزَأُوهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فقبل أعمالهم .

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما تفضلَ عليهم ، وأنعم عليهم .

أو: ورضوا عنه فيما شرع لهم وقضى، فهو التسليم والإذعان لأمره الشرعي والقدري .

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: ذلك الرضا لمن خاف ربه وعظمه، والتزم أحكام دينه القويم، فإنَّ الخشيَّةَ ملاكُ الأمرِ، والباعث على كل خير .

ولا شك أنَّ منهم أبي بن كعب رضي الله عنه، ففي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله لأبي: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾» قال: وسَمَّاني؟ قال: «نعم» فبكى . [رواه البخاري (٣٨٠٩)] .

وبكاؤه صلى الله عليه وآله إما فرحاً وسروراً بذلك، وإما خشوعاً وخوفاً من التقصير في شكر تلك النعمة .



تفسير سورة الزلزلة إِحْبَارٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

يُنطِقُ اللهُ الأَرْضَ يومَ القيامة فتشهد بما عَمِلَ عليها من خير أو شر:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ .

أي: إذا حُرِّكت الأرض تحريكاً عنيفاً متداركاً، وهو الزلزال الشديد العجيب المخصوص بها الذي ليس بعده زلزال.

ويبدو أن هذا الزلزال يحدث عند النفخة الثانية لقوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾ .

أي: أخرجت الأرض موتاها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾

[الانشقاق: ٤].

ويمكن أن يكون هذا الزلزال في الدنيا، ويكون المراد من أثقالها: كنوزها

المدفونة فيها؛ لما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئاً» [رواه مسلم (١٠١٣)].

ويستنكر الإنسان أمرها فبعد أن كانت قارة ساكنة ثابتة تغيرت حالها واضطربت:

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ (٣).

أي: ما لها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة وأخرجت ما في بطنها؟!.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (٤).

أي: في هذا اليوم ينطقها الله تعالى، فتخبر بما عمل عليها من خير أو شر.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (٥).

أي: وإخبارها بسبب إحياء ربك إليها، وأمره إياها بالتحديث.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦).

أي: يصدرون عن قبورهم إلى أرض المحشر متفرقين، ليروا جزاء أعمالهم. أو يصدرون عن موقف الحساب متفرقين ذات اليمين إلى الجنة، وذات الشمال إلى النار، ليروا جزاء أعمالهم.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٨).

والذرة: أصغر الأشياء، فليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه يوم القيامة.

وهذا يدل على دِقَّةِ الحساب وشموله واستقصائه كل الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فأما المؤمن فيريه حسناته وسيئاته، فيغفر له من سيئاته، ويشبهه بحسناته، كما قال تعالى: ﴿إِن يَجْتَبِئُوا كِبَارًا مَا نُتْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته، فيرد حسناته، ويعذبه بسيئاته، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وهذه الآية من جوامع الدين الحاوية لفوائده أصلاً وفرعاً، ففي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْحُمْرِ ^(١) فَقَالَ: «لَمْ يَنْزَلْ فِيهَا شَيْءٌ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَائِذَةُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» ^(٨) [رواه البخاري (٤٩٦٣)].

فالآية ترعَّبُ في الخير مهما كان قليلاً، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ» [رواه مسلم (١٠١٦)].

فإنه جل وعلا لا يظلم أحداً شيئاً وهو القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].



(١) الحُمْر: جمع حمار، وهي الدابة التي تُركب وتحمل الأثقال.



تفسير سورة العاديات صِرَاعٌ وَحِسَابٌ فِي سُورَةِ الْعَادِيَاتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُعِيرَاتِ حُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَتَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فوسطنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر أمر واقع مؤكد،
أكده تعالى بقوله في سورة العاديات:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾﴾

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً، وهو صوت أنفاسها عند العدو.

﴿فَالْمُورِبَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾﴾

أي: فالتي توري النار بحوافرها، وتقده قدهاً.

﴿فَالْمُعِيرَاتِ حُبْحًا ﴿٣﴾﴾

أي: فالتي تغير على العدو في وقت الصبح.

﴿فَأَتَرْنَ بِهِ نَعَمًا﴾ .

أي: فهيجن بذلك الوقت غباراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ .

أي: فتوسطن بذلك الوقت جمعاً من جموع العدو، وهذا يدل على شدة الصراع في نفس الإنسان بين نوازع الخير ونوازع الشر. وجواب القسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ .

أي: إنه لنعمة ربه لكفور أو لبخيل.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ .

أي: وإن الله شاهدٌ على كونه كنوداً، أو إن الإنسان شاهد على نفسه بما صنع.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ .

أي: وإنه لحب المال لقوي مبالغ فيه، فهو قوي شديد في حب المال وإيثار الدنيا، كما في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب» [رواه البخاري (٦٤٣٦)].
وإن الإيمان بالحساب والجزاء يقوِّي في نفس الإنسان نوازع الخير، ويقمع نوازع الشر:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ﴾ .

أي: إذا بُعث الموتى من القبور.

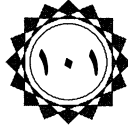
﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ .

أي: وميِّز ما في الصدور من خير وشر كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُم لَعَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ .

أي: إنَّ ربهم لعليمٌ بما أعلنوا وما أسروا، ومجازيهم على أعمالهم من خير أو شر.





تفسير سورة القارعة مَوَازِينِ الْأَعْمَالِ فِي سُورَةِ الْقَارِعَةِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ
الْمَبْثُوثِ ٤ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ٥ ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ ﴿ فَهُوَ
فِي عِشْقِ رَاضِيَةٍ ٧ ﴿ وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا
هِيَ ١٠ ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ١١ ﴿ .

عَظَّمَ اللهُ أَمْرَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ شَأْنُهَا فَقَالَ:

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ ﴿ .

وأصل القرع الصوت الشديد، ومنه قوارع الدهر، وسُميت القيامة بذلك لأنها تفرع القلوب بأحوالها وشدائدها.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾ .

أي: لا علم لك بكنهها، فكيفما قدرت هولها وشدتها فهي أعظم من ذلك.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ ﴾ .

أي: المتفرق، وشبه الناس بالفراش لكثرتهم واضطرابهم وضعفهم واختلافهم.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْمِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (٥).

أي: كالصوف المندوف المتفرق، وذلك لأنها تتفرق أجزاءها، وتسف في ذلك اليوم حتى تصير كالصوف المتطاير عند الندف كما في قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿[الواقعة].

وبعد أن عظم تعالى أمر القيامة، وهول شأنها بين أحوال الناس فيها:

﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٦) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧).

أي: فأما من رجحت حسناته على سيئاته فهو في عيشة ذات رضا، يرضاها صاحبها لأنها في الجنة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٨).

أي: وأما من رجحت سيئاته على حسناته.

﴿فَأَمَّهُ هَكَاوِيَةٌ﴾ (٩).

أي: فمسكنه النار، سُمِّي المسكن أمًّا على التشبيه، لأن الأم مأوى الولد ومفزعُه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ (١٠).

أي: الهاوية، والهاء للسكت.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١١).

أي: حارة بلغت النهاية في الحرارة.



تفسير سورة التكاثر تَنْبِيهِ الْعَاقِلِينَ فِي سُورَةِ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ① حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ
لَتَسْتَلْنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧

بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّكَاثُرِ أَنَّ حُبَّ الْمَالِ وَالرَّغْبَةَ فِي كَثْرَتِهِ أَهْمُ أَسْبَابِ
الْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ، فَقَالَ:

﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ .

أَي: شَغَلَكُمْ التَّبَاهِي بِكثرة المال، والتباهي به عن طاعة الله، قال تعالى:
﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفي الحديث الشريف: عن مُطَرَف، عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ:
﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابنُ آدمَ: مالي مالي، وهل لك يا ابنَ آدمَ منْ مالِكَ
إلا ما أكلت فأفنيته، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت» [رواه مسلم (٢٩٥٨)].

﴿حَقَّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرِ﴾

أي: وتمادى بكم ذلك حتى حضركم الموت، وزرتم المقابر، ودفنتم فيها. والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وأشارت الآية إلى البعث من القبور، فكأنه تعالى قال: حضرتم في المقابر زواراً ترجعون منها بعد البعث والحساب إلى منازلكم من الجنة أو النار كرجوع الزائر إلى منزله.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ دخل على رجلٍ يعودُهُ فقال: «لا بأسَ طهورٌ إن شاء الله» فقال: كلا، بل هي حُمى تفورُ على شيخٍ كبيرٍ حتى تُزِيرُهُ القبورَ. قال النبي ﷺ: «فَنَعَمْ إِذَا» [رواه البخاري (٥٦٦٢)].

وفي تفسير ابن كثير: عن ميمون بن مهران قال: كنتُ جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقراً: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿حَقَّ زُرْتُمُ الْمَقَابِرِ﴾ ﴿فَلَبِثْتُ هُنَيْهَةً﴾ ثم قال: يا ميمونُ؛ ما أرى المقابر إلا زيارةً، وما للزائرِ بدٌّ من أن يرجعَ إلى منزله.

قال القرطبي رحمه الله: «لم يأت في التنزيل ذكرُ المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكُرُ بالموتِ والآخرة، وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النبي ﷺ قبرَ أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: «أستأذنتُ ربِّي في أن أستغفرَ لها فلم يُؤذَنَ لي، وأستأذنتُه في أن أزورَ قبرَها فأذِنَ لي، فزوروا القبورَ فإنها تذكركم الموتَ» [رواه مسلم (٩٧٦)].

وأخرج ابن ماجه [١٥٧١] بإسناد صحيح: عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبورِ فزوروها، فإنها تزهدُ في الدنيا، وتذكُرُ الآخرة».

وبعد أن واجهتهم الآيات بهذه الحقيقة توعدتهم وأنذرتهم ليتنبهوا من غفلتهم:

(١) تفسير القرطبي: ١٧٠/٢٠.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبية، معناه: لا ينبغي أن يكون جميع سعيكم وهمكم للدنيا فقط، وتغفلون عن أمر الآخرة.
 ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت، وصدق من قال: الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

وهو إنذار بعد إنذار ليخافوا ويتنبهوا من غفلتهم.
 أو: كلا سوف تعلمون ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ثم كلا سوف تعلمون ما ينزل من العذاب في الآخرة، فتضمنت السورة القول في عذاب القبر. والإيمان به واجب، والتصديق به لازم، كما قال القرطبي رحمته، كما تضمنه قوله تعالى أيضاً: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].
 وقوله أيضاً في فرعون وآله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وذكرنا عند تفسيرها أن الإمام البخاري في صحيحه، بؤب كتاب الجنائز فقال: باب ما جاء في عذاب القبر. وذكر هذه الآية وعدداً من الأحاديث الشريفة.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾

أي: حقاً لو تعلمون ما ينتظركم بعد الموت كعلمكم ما تستيقنونه الآن في حياتكم الدنيا لشغلكم ذلك عن التفاخر والتكاثر، ونبهكم من غفلتكم.
 وجواب (لو) محذوف، حُذِفَ للتفخيم والتهويل.
 ثم بين سبحانه ما أُنذِرهم به وأكده بالقسم فقال:

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ (٦)

أي: لترون الجحيم يوم القيامة. كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].
وفي قراءة: (لترون) بضم التاء.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧)

أي: رؤية عين ومشاهدة محسوسة وواقعة، فلعل الأولى لرؤيتها من بعيد، والثانية عند ورودها أو المرور على الصراط فوقها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِيَن مِّنْكُمْ إِلَّا وَاْرِدَهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (٧) ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (٧٧) [مريم].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٨)

أي: لتسألن عن النعيم الذي ألهاكم، وجعلكم من الغافلين، أو عن شكر ما أنعم الله به عليكم.

وللمفسرين في المراد بالنعيم أقوال كثيرة، أصحها أنه عام في كل نعيم، لقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنَّهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا».

فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم

قال: الحمد لله، ما أحدُ اليومَ أكرمَ أضيافاً مِنِّي، فانطلقَ، فجاءهم بِعِدْقٍ فيه بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ. فقال: كلوا من هذا. وأخذَ المُدِّيَةَ فقالَ له رسولُ اللهِ ﷺ: «يَاكَ والحلوبَ» فذبحَ لهم.

فأكلوا من الشاةِ وَمِنْ ذلك العِدْقِ، وشَرِبُوا، فلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ وعمرَ: «والذي نفسي بيده لَتُسألَنَّ عَنْ هذا النعيمِ يومَ القيامةِ، أخرجكم مِنْ بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتَّى أصابكم هذا النعيم» [رواه مسلم (٢٠٣٨)].

والمرادُ من السؤالِ السؤالُ عن القيامِ بحقِ شكره.

وفي جامع الترمذي [٢٤١٧]: عن أبي بَرزَةَ الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يسألَ عَنْ أربعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فيمَ أفناه، وَعَنْ جَسَدِهِ فيمَ أبلاه، وَعَنْ مالِهِ من أين اكتسبه، و فيمَ أنفقَه، وَعَنْ عِلْمِهِ ما عملَ فيه».





تفسير سورة العَصْرِ الْإِنْسَانُ وَالزَّمَانُ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَسِرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

العمر أهم ما يُسأل عنه الإنسان، فالوقت في الإسلام هو الحياة، وما عرف الحياة حقَّ المعرفة إلا المؤمنون الصالحون، وهو ما أكدّه تعالى بقوله:

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ .

وهو قَسَمٌ بالزمان مطلقاً، تنبيهاً على أهميته، فهو خزانة أعمال العباد، ورأس مال حياتهم، وأكثرُ الناس يضيعونه كما جاء في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ» [رواه البخاري (٦٤١٢)].

فالحياة تجارة، فمن استعملها في طاعة الله فهو الرابع، ومن استعملها في غير ذلك فهو الخاسر المغبون، ورحم الله القائل: مَنْ فاته مزيدٌ ربح وهو قادرٌ على دَرَكِهِ فهو مغبونٌ، فاملاً خزائن أوقاتك بكنوز أعمالك، ولا تدعها فارغةً عن كنوزك التي هي أسباب نجاتك.

قال النبي ﷺ: «اغتنم خمساً قبلَ خمسٍ: شبابَكَ قبلَ هرمِكَ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ، وغناكَ قبلَ فقركَ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ» [رواه الحاكم في «المستدرک» (٤/٣٠٦) وابن المبارك في «الزهد» بسندٍ صحيح] (١).

وقد يكونُ قوله: ﴿وَالْعَصْرُ﴾ قسماً بعصرٍ معيّن، قالوا: هو عصر الرسول ﷺ، فهو أنصرُ العصورِ وأفضلُها وأشرفُها، أقسم الله تعالى بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله: ﴿لَا أَقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۖ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد].

أو هو زمانه و زمان أمته إلى يوم القيامة، ففي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتي أهل التوراة التوراة فعملوا، حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن، فعملنا إلى غروب الشمس، فأعطينا قيراطين قيراطين، فقال أهل الكتابين: أي ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين، وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً؟ قال الله ﷻ: هل ظلمتكم من أجركم من شيء؟ قالوا: لا. قال: فهو فضلي أوتيته من أشاء» [رواه البخاري (٥٥٧)].

ويمكن أن يكون المراد: وقت العصر من النهار، فكما أقسم الله بالضحى من النهار أقسم بعصره.

أو: المراد صلاة العصر، التي هي الصلاة الوسطى التي نوه الله تعالى بها في قوله: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].
وجواب القسم:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ﴾ (٢).

أي: إن الإنسان لفي خسران ونقصان، والمراد جنس الإنسان، فهو في خسران مستمر، وهو تضييع عمره، فكل لحظة تنقص من عمره.

(١) انظر: قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى (ن).

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فهم ليسوا في خسران، فكل ما مرَّ من عمر الإنسان في طاعة الله وعبادته فهو في خير وصلاح، أولئك الذين اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وفازوا وأفلحوا، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وأوصى بعضهم بعضاً بالتمسك بالحق والثبات عليه والاستقامة.

والمراد به: الحق في جميع أمور الحياة المقابل للضلال، فهو يشمل الحق في الاعتقاد والعبادة والمعاملة والأخلاق، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أي: وتواصوا بالصبر عن المعاصي التي تميل إليها النفس، وعلى البلايا والمصائب التي يُبتلى بها العباد.

وليس المراد من الصبر حَبَسَ النفس فقط على المكروه، بل هو تلقي ما يأتي من الله ﷻ بالرضا باطناً وظاهراً، فكأنَّ في التواصي بالحق رتبة العبادة التي هي فعل ما أمر، وفي التواصي بالصبر رتبة العبودية التي هي الرضا بما قَدَّر.

وكان الصحابة يقرأ بعضهم على بعض هذه السورة كلما التقوا، فقد أخرج الطبراني في «الأوسط» [٢١٥/٥] والبيهقي في «الشَّعْب»: عن عبد الله بن حفص قال: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾، ثم يسلم أحدهما على الآخر. وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: لو تدبَّرَ الناسُ هذه السورة لوسعتهم.



تفسير سورة الهَمزة تَخْطِئُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي سُورَةِ الْهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ﴿٢﴾ يُحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. ﴿٣﴾ كَلَّا ط
لِيُبَدَّنَ فِي الْخَطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَبَكَ مَا الْخَطْمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ
﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوسَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

توعد الله تعالى في سورة الهَمزة الأغنياء المستكبرين الذين يسخرون من الناس، فقال:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾﴾ .

أي: هلاك لكل طعانٍ عيَّابٍ، اعتاد على الطعن في الناس وانتقاصهم وإظهار عيوبهم.

وأصل الهمز: الكسر والقبض على الشيء بالعنف، والمراد هنا الكسر من أعراض الناس، والغضُّ منهم، والطعن فيهم، ويدخل فيه مَنْ يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه^(١).

وقد توعدَّ الله أمثال هؤلاء الناس بعدد من الآيات؛ منها قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومنها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِسْمِ الْأَلْسَامِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾

أي: جمع بعضه على بعض، وجعله عدَّةً للنوازل.
أو: عدَّه مرةً بعد أخرى حباً له، وشغفاً به، فهو من العدد.
وفي قراءة: (جمع) بالتشديد.

وإنما وصفه بهذا الوصف، لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز، فهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغرُ الناس، ويسخرُ منهم، وتكبيرُ (مالاً) للتحقير، فمهما كان ماله كثيراً فهو قليل وحقير.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾

أي: يظنُّ أنه يخلد في الدنيا ولا يموت بسبب كثرة ماله.

فالمال طوّل أمله في الحياة، ومناه الأمانى البعيدة، فهو يشيد البنيان، ويؤسس المصانع، ويزرع المزارع، ولا يدري أن أجله قريب، فالأجلُ أقربُ إلى الإنسان من أمله.

وقد جاء في الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خطَّ النبي صلى الله عليه وآله خطوطاً فقال: «هذا الأملُ، وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذا جاءه الخطُّ الأقربُ» [رواه البخاري (٦٤١٨)].

ورواه الترمذي [٢٣٣٤] بلفظ: «هذا ابنُ آدمَ، وهذا أجلُه» ووضعَ يدهُ عندَ ففاه، ثم بسطها وقال: «وتمَّ أمله».

وقال الحسن رضي الله عنه: ما رأيتُ يقيناً لا شكَّ فيه أشبه بشكِّ لا يقينَ فيه من الموت، ومعناه: أنَّ الناسَ لا يشكُّونَ بالموتِ مع أنَّهم يعملونَ عملَ من يظنُّ أنه يخلدُ في الدنيا ولا يموتُ^(١).

﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: لا يخلده ماله، فهو ردع له عن حسابانه.

﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليُطرحَنَّ في النار التي تأكل اللحوم وتكسر العظام.

والمعنى: يا أيها الهمزة اللزمة الذي يأكل لحوم الناس، ويكسر من أعراضهم، إنَّك ستطرح بالحطمة، التي تحرق اللحوم، وتكسر العظام. وعظم سبحانه أمرها وهوله فقال:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾

فهي نارٌ لا كسائر النيران.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْجِدَةُ ﴿٦﴾﴾

أي: هي نارُ الله التي أوقدها سبحانه، فلا يقدر أحد أن يطفئها.

﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾

أي: التي تحرق كلَّ شيءٍ، حتى تنتهي إلى القلوب، وتستولي عليها.

أو: التي يبلغ ألمها إلى القلوب التي تكمن فيها الكبرياء وبواعث الهمز واللمز.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾﴾ .

أي: مطبقة مغلقة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد].

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ .

أي: أُطبقت عليهم الأبواب، ثم شُدَّت بأوتاد من حديد حتى يرجع عليهم غمُّها وحرُّها.

وفي قراءة: (عُمُدٍ) بضمّتين، جمع عمود.



تفسير سورة الفيل

نَحَطِمْ أَصْحَابِ الْفِيلِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا ﴿٣﴾ أَبَابِيلَ ﴿٤﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٦﴾﴾

أهلك الله أصحاب الفيل الذين أرادوا هدم بيته الحرام في العام الذي ولد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾

أي: ألم تعلم وتُخبر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟! .
والاستفهامُ للتقرير، والخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام، ويرادُ به العموم، ومعناه: قد رأيتم ذلك، وعرفتُم موضعَ منِّي عليكم .
وقصةُ أصحابِ الفيل كانت إرهاباً وتوطئةً لمولده ﷺ، ولما نزلت هذه السورة وتلاها عليهم النبي ﷺ كان في المشركين من أهل مكة عددٌ كبيرٌ ممن أدرك أحداثها .

فالمرادُ تذكيرهم بما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزته، وتعجيبٌ من كفر المشركين، الذين شاهدوا هذه العظمة من آيات الله

تعالى، كما أنَّ فيها تثبيتاً للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يواجه أذى المشركين وعنادهم، فعنايتهُ تعالى بنبيه عليه الصلاة والسلام أقوى وأتم من عنايته بيته الحرام، فكأنه تعالى قال: أنا الذي فعلتُ ما فعلتُ بأصحاب الفيل تعظيماً لك وتشريفاً لقدمك، وإذ قد نصرْتُك قبل قدمك فكيف أتركك بعد ظهورك^(١)!؟.

ويؤيد الإرهاصَ قصةُ القرامطة الذين استحلوا حرمة البيت الحرام في موسم حج عام (٣١٧هـ) وقتلوا كثيراً من الحجاج، وألقوا جثثهم في بئر زمزم، وقلعوا الحجر الأسود، وأخذوه معهم، وبقي عندهم إلى أن ردَّوه بأمر من الخليفة الفاطمي في مصر بعد اثنين وعشرين عاماً.

وقصة أصحاب الفيل باختصار: أنَّ أبرهةَ الحبشي الذي كان يحكم اليمن في ذلك الوقت بنى كنيسةً بصنعاء، وسَمَّاهَا القُلَيْسَ، ليصرفَ إليها الحاجَّ عن بيت الله الحرام، فخرجَ رجلٌ من كنانة، ففقد فيها ليلاً (أي: تغوَّط فيها) فأغضبَ أبرهةَ ذلك، وحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ، وخرج بجيش كبير، ومعه فيلٌ قوي، ولمَّا وصل إلى أرض الحرم تهيأ للدخول، وعبأ جيشه، وقَدَّمَ الفيلَ فبرك، ولم يتزحزح. ثم أرسل الله طيراً تحمل حجارة، فرمتهم بها فهلكوا جميعاً.

ومرَّ معنا في الحديث الشريف في صلحِ الحديبية: أنَّ النبي ﷺ لما كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركتُ به راحلتهُ، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ، فألحَّت، فقالوا: خلأتِ القصواءُ (أي: حرنتُ) فقال النبي ﷺ: «ما خلأتِ القصواءُ، وما ذاك لها بخُلُقٍ، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الفيل» ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألونني خِطَّةً يعظَّمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها فوثبت. [رواه البخاري (٢٧٣١)].

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾

أي: ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة المشرفة في تضييع

وإبطال، فلم يصلوا إلى ما أرادوا، بل رجع كيدهم عليهم وهلكوا.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾

أي: جماعات جماعات من هاهنا ومن هاهنا.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾

أي: من طين متحجر، فهي كالحجارة التي أنزلها الله على قوم لوط عندما أهلكتهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾

أي: كتبني أكلته الدواب، ثم رائته.
شبهه تعالى تقطع أجسادهم وتفرقها بتفرق أجزاء الروث.





تفسير سورة قريش الطَّعَامُ وَالْأَنْفُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ ① إِلَىٰ أَيْمِهِم رِحْلَةَ الْشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④﴾

ولما ردَّ الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشاً، وقالوا: أهل حرم الله،
قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم ذكَّروهم بها
وأمرهم بشكره وعبادته، فقال:

﴿لِإِيْلَافٍ قُرَيْشٍ ①﴾.

أي: أهلك الله أصحاب الفيل نعمةً منه على قريش، فائتلفوا واجتمعوا في
مكة المكرمة آمنين.

فالإيلاف: مصدرُ ألف رباعياً. وإلاف: مصدرُ ألف ثلاثياً.

ورأى بعضهم أن هذه السورة متصلةٌ بالتي قبلها في المعنى، كأنه تعالى
يقول: أهلك أصحاب الفيل لتألف قريش وتجمع.

ثم فحَّم تعالى أمر الإيلاف وعظمه بقوله:

﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (٢).

وكان لهم رحلتان للتجارة: يخرجون إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، ف (رحلة) منصوبة بإيقاع الفعل عليها.

وقرئت: (ليلاف) بغير همز، و(لإلاف) دون ياء.

و(الإفهم) دون ياء، و(إلفهم) بلام ساكنة وليس قبلها ياء.

وبعد أن ذكّرهم تعالى بما خصّهم من النعم، أمرهم بعبادته والقيام بشكره:

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (٣).

وهو الكعبة المشرفة، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالتَّقْلِيدَ ذَلِكُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ (٤).

أي: الذي تفضّل عليهم بنعمة الغنى، ونعمة الأمن، فلا يصيبهم ما يصيب غيرهم من الجوع والخوف، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَاطَبُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبِطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولا شك أنّ نعمه تعالى عليهم كثيرة لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهاتين النعمتين: الأمن والطعام، فدل ذلك على أنهما من نعم الله الجليلة، التي تستوجب شكره، وشكره لا يكون إلا بعبادته سبحانه وحده كما شرع وأمر على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام.





تفسير سورة الماعون عَلَامَاتُ الْمُكَذِّبِينَ بِالذِّينِ فِي سُورَةِ الْمَاعُونِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِ ①﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِهِ
الْمَسْكِينِ ③ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ
⑥ وَيَسْمَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦ .

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّبِ ①﴾ .

أي: هل عرفتَ الذي يكذبُ بيومِ الجزاء والحساب مَنْ هو؟ .

فهو استفهامٌ يرادُ به المبالغة في التعجب من حال المكذب بيوم القيامة، يخاطبُ الله تعالى به كلَّ إنسانٍ عاقلٍ، أو هو تشويق المخاطب إلى معرفة صفات المكذِّب بالدين ليحترز منها ويتجنبها .

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ②﴾ .

أي: فذلك الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى، ويردُّه بخشونة فلا يعطيه حقه ولا يواسيه .

﴿وَلَا يَخُصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾.

أي: لا يطعمه، ولا يأمر بإطعامه، وهذا غاية البخل، فهو يبخل بماله وبمال غيره.

فالإقدام على إيذاء الضعيف، ومنع المعروف، من أبرز علامات المكذب بالحساب والجزاء. فالمنسلخون عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى انسلخوا في الحقيقة عن المشاعر الإنسانية الكريمة، وتغلّبت عليهم الأثرة والأنانية وحبُّ الذات والسمعة والرياء، ولهذا توعدّهم تعالى بقوله:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: غافلون لاهون غير مباليين بها، فهم ساهون عن فعلها بالكلية.
أو: يؤخرونها عن وقتها، وقد جاء في الحديث الشريف: أن هذا من علامات المنافقين، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «تلك صلاةُ المنافقِ يجلسُ يرقبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بينَ قرني الشيطانِ قام ففرها أربعاً، لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلاً» [رواه مسلم (٦٢٢)].

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

أي: يصلونها رياءً وسمعةً ليراهم الناس، ويثنوا عليهم، فهم كما قال تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

أي: ويمنعون ما يتعاور في العادة بين الناس من متاع البيت كالفأس والقدر والدلو.

فهم لم يحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه، حتى ولا بإعارة ما ينتفع به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم، فهم لمنع الزكاة وأنواع النفقات الواجبة أولى. فالآية تزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيمة، فإنَّ البخلَ بها غايةُ البخل، قال العلماء: يستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم، ويفضل عليهم، ولا يقتصر على الواجب^(١).





تفسير سورة الكوثر إِعْطَاءٌ وَسُكْرٌ فِي سُورَةِ الْكُوثَرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأُنْتَرُ ﴿٣﴾﴾

أمر الله تعالى النبي ﷺ بإخلاص العبادة لله، ومساعدة المحتاجين، شكراً على ما أعطاه، وذلك في مقابل الذين لم يحسنوا عبادة الله، ولا أحسنوا إلى خلقه.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ ﴿١﴾﴾

أي: إنا أعطيناك الخير الكثير من العلم والعمل وشرف الدنيا والآخرة.

فقد حدث أبو بشر: عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن الناس يقولون: هو نهر في الجنة، فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. [رواه البخاري (٤٩٦٦)].

وأصل الكوثر فَوْعَلٌ من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد وكثير في القدر والخطر كوثرًا، فهو الفضائل الكثيرة التي فُضِّلَ بها عليه الصلاة

والسلام على جميع الخلق، فقد أعطي: النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده. وأولى الأقوال في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء: أنه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث:

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءً، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليّ أنفأ سورة» فقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (٢) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ (٣) إِن شَاءَ رَبُّكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٤) .

ثم قال: «أندرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي صلى الله عليه وسلم، عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوضٌ تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عددُ النجوم، فيختلجُ العبدُ منهم (أي: ينتزع ويقتطع) فأقول: ربِّ إنه من أمتي. فيقول: ما تدري ما أحدثتُ بعدك» [رواه مسلم (٤٠٠)].

وعن أنس رضي الله عنه أيضاً قال: لما عُرجَ بالنبِيِّ صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: «أتيتُ على نهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤِ مجوّفاً، فقلتُ: ما هذا يا جبريلُ؟ قال: هذا الكوثرُ» [رواه البخاري (٤٩٦٤)].

ولما سُئِلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) قالت: هو نهرٌ أعطيه نبيُّكم صلى الله عليه وسلم؛ شاطئاه عليه درٌّ مجوّفٌ، آنيته كعددِ النجوم. [رواه البخاري (٤٩٦٥)].

قال ابن حجر رحمته الله: «ثبت تخصيصه بالنهر من لفظِ النبي صلى الله عليه وسلم فلا معدّل عنه» (١).

قال الشيخ محيي الدين النووي: «قال القاضي عياض: أحاديثُ الحوضِ

صحيحةً، والإيمانُ به فرضٌ، والتصديقُ به من الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يتأول، ولا يُختلف فيه، وحديثُه متواترُ النقل^(١).

والإعطاءُ إيتاءٌ على جهة التمليك، وفيه إشارة إلى أن المُعطى وإن كان كثيراً في نفسه، فهو قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام، بناءً على أن الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم، والإعطاءُ يستعمل في القليل والكثير^(٢).

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزِرْ﴾

أي: فاعبد ربك الذي أعزك بما أعطاك مراغماً للمشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، وانحز له وباسمه مخالفاً لعبدة الأوثان، وتصدق على المحاوِج، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٦] لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام].

ولهذا كان النبي ﷺ يصلي صلاة العيد في يوم الأضحى ثم يذبح أضحيته.

﴿إِنَّكَ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

أي: إن عدوك ومبغضك هو المنقطع عن كل خير.

أو: هو الذي لا عقب له.

أو: هو الضعيف الحقير، وأنت الأعزُّ الأشرفُ، تبقى ذريتك وحسنُ صيتك، وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة.

وأصل البتر: القطع، وشاع في قطع الذنب، وقيل لمن لا عقب له: أبتَر،

(١) تفسير الخازن: ٥٨٢/٦.

(٢) انظر: روح المعاني: ٣١٥/٣٠.

على الاستعارة، والأبترية معللة بالبغض فتدور معه، والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقة^(١).

والجملة كالتعليل لمفهوم الكلام؛ فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم، فصلّ وانحر خالصاً لوجه ربك، ولا تكثر لقول الشانئ الكريه، فإنه هو الأبتري لا أنت.

فالله سبحانه يبتري شانئ رسول الله ﷺ من كل خير، وهو يعمُّ جميع من اتصف بذلك.



(١) روح المعاني: ٣٠/٣١٧.



تفسير سورة الكافرون إِغْلَانُ الْبِرَاوَةِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ
مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنةً، ويعبدون الله سنةً،
فأنزل الله هذه السورة، يأمر النبي ﷺ أن يعلن إخلاصه في عبادة الله واستقامته
على دينه.

﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُونَ ﴿١﴾﴾

وهم كفرةً مخصوصون، علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾

أي: لستُ عابداً ما تعبدون، فلا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من
عبادة آلهتكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٣)

أي: ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة الله وحده.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ (٤)

أي: ولا أنا عابد في الحال معبودكم.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (٥)

أي: ولا أنتم في الحال بعبادين معبودي.

فكل واحدٍ منهما يصلح أن يكون للحال والاستقبال، ولكن يختص أحدهما بالحال، والثاني بالاستقبال، وقد يكون المراد التكرار ليفيد التوكيد، وكلما كانت الحاجة إلى التوكيد أشدَّ كان التكرار أحسن، ولا موضع أحوج إلى التوكيد والتكرار من هذا الموضع^(١)، قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٦)

أي: لكم شركم الذي أنتم عليه، ولي ديني الذي أنا عليه، وهو الإسلام لله تعالى وحده، فهو الدين عند الله.

وسمى دينهم ديناً، لأنهم اعتقدوه، وتولَّوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].



تفسير سورة النصر تَسْبِيحٌ وَاسْتِغْفَارٌ فِي سُورَةِ النَّصْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾.

أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يكثر في آخر حياته من التسبيح والاستغفار:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾﴾.

أي: إذا أظهر الله دينه، وفتحت مكة وسائر بلاد الشرك.

فالمراد من المجيء الحصول، فقد فتحت مكة في العام الثامن من الهجرة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف، وذلك على رأس ثمانين سنين ونصف من مقدمه المدينة، فسار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى بلغ الكديد (وهو ماء بين عُسْفَانَ وقُدَيْد) أفطر وأفطروا. [رواه البخاري (٣/٨)].

وعن عروة بن الزبير قال: لما سار رسول الله ﷺ عام الفتح، فبلغ ذلك فريشاً، خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتمسون الخبر عن رسول الله ﷺ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مر الظهران، فإذا هم بنيران كأنها

نيران عَرَفة، فقال أبو سفيان: ما هذه؟ لكأنَّها نيرانُ عرفة. فقال بديل بن ورقاء: نيران بني عمرو. فقال أبو سفيان: عمرو أقلُّ من ذلك. فرأهم ناسٌ من حرس رسول الله ﷺ فأدركوهم فأخذوهم، فأتوا بهم رسول الله ﷺ، فأسلم أبو سفيان. فلَمَّا سار قال ﷺ للعباس: «احبس أبا سفيان عند حَظْمِ الجبلِ حتَّى ينظُرَ إلى المسلمين».

فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمرُّ مع النبي ﷺ، تمرُّ كتيبةً كتيبةً على أبي سفيان، فمرَّت كتيبةٌ فقال: يا عباسُ مَنْ هذه؟ فقال: هذه غفارٌ، قال: ما لي ولغفار؟! ثم مرَّت جُهينةٌ، قال مثل ذلك، ثم مرَّت سعد بن هذيم، فقال مثل ذلك، ومرت سليم، فقال مثل ذلك.

حتَّى أقبلت كتيبةٌ لم يرَ مثلها قال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعدُ بنُ عبادة معه الراية، فقال سعدُ بن عبادة: يا أبا سفيان، اليومُ يومُ الملحمة، اليومُ تستحلُّ الكعبةُ. فقال أبو سفيان: يا عباسُ حبِّذا يومُ الذمارِ (أي: تمنى أن يكون له يدٌ فيحامي قومه ويدفع عنهم).

ثم جاءت كتيبةٌ، وهي أقلُّ الكتاب فيهم رسولُ الله ﷺ وأصحابه، ورايةُ النبي ﷺ مع الزبير بن العوام، فلَمَّا مرَّ رسولُ الله ﷺ بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعدُ بنُ عبادة؟ قال: «ما قال؟» قال: قال كذا وكذا. فقال: «كذب سعدٌ، ولكن هذا يومٌ يعظّم الله فيه الكعبة، ويومٌ تكسى فيه الكعبة».

قال: وأمر رسول الله ﷺ أن تركزَ رايتهُ بالحجُونِ. [رواه البخاري (٤٢٨٠)].

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ (٢)

أي: ورأيت الناسَ يدخلون في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (٣)

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: فقل: سبحان الله حامداً له.

أو: فنزّهه تعالى حامداً له .

﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ تواضعاً له وشكراً .

وفي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه» قالت: قلت: يا رسول الله أراك تكثر من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. قال: «خبرني ربّي أني سأرى علامةً في أمّتي، فإذا رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه. فقد رأيتها: إذا جاء نصر الله والفتح، فتح مكة. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنّه كان تواباً» [رواه مسلم (٤٨٤)].

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: إنّه لا يزال كثير القبول للتوبة من المسيّئين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم .

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم يؤمر بالاستغفار فما الظنّ بغيره؟! .

وجاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي» يتأول القرآن. [رواه مسلم (٤٨٤)]. أي: يفعل ما أمر به في القرآن .
والجدير بالذكر أنّه عليه الصلاة والسلام علم من هذه السورة قرب أجله:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمرٌ يدخلني مع أشياخ بدرٍ فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هذا معنا، ولنا أبناءٌ مثله؟ فقال عمر: إنّه من حيث علمتم. فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، فما رأيت أنّه دعاني يومئذٍ إلا ليربهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. [رواه البخاري (٤٩٧٠)].



تفسير سورة المسد خُسْرَانٌ وَعَذَابٌ فِي سُورَةِ الْمَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ
﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴿٥﴾﴾

عادت بنا الآيات في سورة المسد إلى أوّل مراحل الدعوة في مكة المكرمة .
ففي الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء ٢١٤] خرج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى صعد الصفا فهتف: «يا صباحاه»^(١) فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «إني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» قال أبو لهب: تبّاً لك ما جمعنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . [رواه البخاري (٤٩٧١)].

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾

أي: خاب وخسر صاحبها، وقد هلك وتحقق خسارانه وهلاكه .

(١) يا صباحاه: كلمة اعتادوا قولها عند وقوع أمر عظيم ليجمعوا ويتأهبوا له .

والتباب: هو الخسار المُفْضي إلى الهلاك، وفي الآية إخبارٌ بعد دعاء، والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه.

وفي قراءة: (أبي لهب) بسكون الهاء.

والمرادُ من اليد صاحبها، وهو أبو لهب، واسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وعدل عن الاسم إلى الكنية لما فيه من الشرك، ووافقت كنيته ماله، وماله إلى النار، والنار ذات لهب. مات بعد وقعة بدر بالعدسة، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريشٌ تتقيها كالتاعون، فبقي ثلاثاً حتى أنتن، فحفروا له حفرةً ودفعوه بعود حتى وقع فيها، ثم قذفوه بالحجارة حتى واروه، فكان الأمرُ كما أخبر الله تعالى.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ﴾

أي: ما أغنى عنه ماله وما كسب منه.

أو: ما كسب من أولاد، لأن ولد الإنسان من كسبه.

﴿سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ﴾

أي: ناراً تلتهب عليه. وهو وعيد كائن لا محالة وإن تراخى وقته.

وفي قراءة: (سَيَصِلُنَّ) بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ﴾

وهي أم جميل بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان، كانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في عذابه في نار جهنم، فهي تحمِلُ الحطب، فتلقيه على زوجها ليزدادَ عذاباً على ما هو فيه من العذاب. وكانت في غاية العداوة لرسول الله ﷺ، تحمِلُ الشوكَ والحسكَ فتطرحه بالليل في طريق رسول الله ﷺ لتؤذيه بذلك.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم: عن قتادة ومجاهد: أنها كانت تمشي بالنميمة، فالحطبُ مستعارٌ للنميمة، لأن النميمة توقد الشر بين الناس. وقد يكون المعنى: أنها كالحطب في مصيرها إلى النار، والجزاء من جنس العمل.

وقرأ عاصم: (حَمَّالَةَ الحَطْبِ) نصباً على الذم، أي: أذم حمالة الحطب، وقرأ الآخرون: (حَمَّالَةٌ) بالرفع.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

أي: في عنقها حبل ممّا مُسَدَ وَفُتِلَ من الحبال، وهذا يدل على شدته وغلظته، فالآية تبيّن حالها في نار جهنم.

وعن قتادة: أنه كان في جيدها قلادةٌ من ودع، وقال الحسن: من خرز، وقال ابن المسيب: كانت قلادةً فاخرةً من جوهر، وأنها قالت: واللات والعزى لأنفقنّها على عداوة محمد، ولعلّ المراد على هذا أنها تكون في نار جهنم ذات قلادة من حديد ممسود بدل قلادتها التي كانت لها في الدنيا، ويؤيد ذلك أنه سبحانه قال: ﴿فِي جِيدِهَا﴾ ولم يقل في عنقها، مع أنّ العنق يذكر مع الغل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ [يس: ٨] فالجيدُ يذكر مع الحلي، ففي الآية تهكم بها وتحقير لها^(١).

أخرج ابن أبي حاتم: عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنتُ حرب ولها ولولة، وفي يدها فهر (حجر) وهي تقول:

مذمّماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا

ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في المسجدِ ومعه أبو بكر، فلمّا رآها أبو بكرٍ قال: يا رسولَ الله قد أقبلتُ، وأنا أخافُ عليك أن تراك، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنّها

لَنْ تَرَانِي» وقرأ قرآنًا اعتصمَ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، إنني أخبرتُ أن صاحبك هجاني، قال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولت وهي تقول: قد علمت قريشُ أنني ابنةُ سيدها.

أورده ابن كثير في تفسير هذه السورة، ثم قال: قال العلماء: وفي هذه السورة معجزةٌ ظاهرةٌ ودليلٌ واضحٌ على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما أن يؤمنا ولا واحدٌ منهما لا باطنًا ولا ظاهراً، لا سرّاً ولا علناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة.





تفسير سورة الإخلاص الْأَخْدُ الصَّمَدُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا: يا محمد أنسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة. [أخرجه أحمد (١٣٤/٥) والترمذي (٣٣٦٤) والطبراني في الأوسط (٣٠٢/٣٠) وأبو يعلى (٢٠٤٤)].

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾

أي: الشأن هذا، وهو أن الله واحد لا ثاني له، ف (هو) ضمير الشأن، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبره الجملة بعده، والسرُّ في تصديرها به التنبيه على فخامة مضمونها، مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير^(١).

أو الذي سألتموني عنه هو الله الواحد في الألوهية والربوبية، الموصوف بصفات الكمال والعظمة، المنفرد عن الشَّبه والمثُل والنظير، فلا يوصف أحدٌ

(١) روح المعاني: ٣٤٥/٣٠.

بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال رجلٌ أحدٌ، ودرهمٌ أحد، بل (أحدٌ) صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشاركه فيها أحد.

وفي كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي: قال الحليمي: (الأحد) هو الذي لا شبيه له ولا نظير، كما أنّ (الواحد) هو الذي لا شريك له ولا عديد، ولذلك سَمَى اللهُ ﷻ نفسه بهذا الاسم لَمَّا وصف نفسه بأنه ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَدِّ﴾ (١) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٢﴾ فالمراد بالأحدية عدم إمكان الشركة، وعدم صورتها ولو بوجه من الوجوه.

وقد ابتعد سيد قطب ﷻ كثيراً عن هذا المعنى، وأخطأ في التعبير عندما قال: إنها أحدية الوجود، فليس هناك حقيقةٌ إلا حقيقته، وليس هناك وجودٌ حقيقيٌ إلا وجوده.

ولا شك أنّ الله موجودٌ أزلاً وأبداً وجوداً مطلقاً، ووجوده لا ينفي وجود مخلوقاته التي دلت عليه، إلا أنّ وجودها مقيّدٌ بمكانٍ وزمانٍ وكمية وكيفية، ووجوده تعالى منزّه عن جميع ذلك.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢)

أي: الله السيد المصمود إليه في الحوائج، من صمد إليه إذا قصد، فهو الذي يَصْمُدُ إليه كلُّ مخلوق، ولا يُسْتَعْنَى عنه، وهو الغني عمّا سواه، كما في قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعْمَةٍ فَمِنَّ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

فهو السيد المقصود في جميع الحوائج، المرغوب إليه في الرغائب، المستعان به عند المصائب وتفريج الكرب، الكامل في جميع صفاته وأفعاله، المتناهي في السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والإحسان، الدائم الباقي بعد فناء خلقه، الذي لا تعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات.

فكل هذه المعاني يدل عليها لفظ (الصمد)، فعلى هذا يقتضي ألا يكون في

الوجود صمدٌ سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شيء، وأنه اسمٌ خاصٌ بالله تعالى انفراداً به، له الأسماء الحسنى والصفات العليا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وفي «صحيح البخاري»: باب قوله: الله الصمد، قال أبو وائل: هو السيد الذي انتهى سؤده.

وفي تفسير ابن كثير: ﴿اللَّهُ الْأَكْمَدُ﴾ قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته.

﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة، كما قال تعالى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وُلْدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١].

فكل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم، لأنَّ الجسم اسم للمتركب الحادث.

فالآية تكذب جميع أصناف المشركين من العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والنصارى الذي قالوا: المسيح ابنُ الله، واليهود الذين قالوا: عزيزُ ابن الله. فنفت عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

أي: ولم يكن له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله تعالى: كذبني ابنُ آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأماً

تكذيبه آيَ فقلوه: لن يعيدني كما بدأتي، وليس أول الخلق بأهونَ عليَّ من إعادتي، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذَ اللهُ ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم ألد، ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد» [رواه البخاري (٤٩٧٤)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لأصحابه: «أبِعْجُرُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟» فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيْنَا يَطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثَلَاثُ الْقُرْآنِ» [رواه البخاري (٥٠١٥)].

قال ابن حجر: «ثلث القرآن» حمّله بعضُ العلماء على ظاهره، فقال: هي ثلث باعتبار معاني القرآن، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت على القسم الثالث فكانت ثلثاً لهذا الاعتبار، ويُستأنس لهذا بما أخرجه أبو عبيد: من حديث أبي الدرداء قال: جزأ النبي ﷺ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن.

وقال القرطبي: اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء الله تعالى يتضمنان جميع أصناف الكمال لم يوجد في غيرها من السور، وهما: الأحد الصمد^(١). وورد في فضلها عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: «لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله يحبها» [رواه مسلم (٨١٣)].

لقد انطوت هذه السورة الجليلة مع قصرها على الأسس الكبرى لعقيدة التوحيد.



تفسير سورة الفلق

الاستِعَادَةُ بِاللَّهِ مِنْ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ
الَّتَفَلَّتْ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

أخرج الترمذي [٢٠٥٨] وحسنه، والنسائي، وابن ماجه [٣٥١١]: من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجن وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات، فأخذ بها، وترك ما سواها.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ (١) .

أي: قل ألتجئ وأعتصم وأحترز برب الفلق. وهو يعم جميع المخلوقات، فإنه تعالى فلق: أي شق وفرق بنور الإيجاد عنها، سيما ما يخرج من أصل كالعيون من الجبال، والأمطار من السحاب، والنبات من الأرض، والأولاد من الأرحام، وخصَّ عرفاً بالصبح، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّحْمِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ أَلْمَى مِنَ أَلْمَيْتِ وَيُخْرِجُ أَلْمَيْتَ مِنَ أَلْحَى ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفَكُونَ﴾ (١٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ أَلَيْلَ سَكناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿[الأنعام].

فتعليقُ العيادِ باسمِ الربِّ المضافِ إلى الفلقِ المنبئِ عن النورِ عقبِ الظلمةِ، والسعةِ بعدِ الضيقِ، والفَتْقِ بعدِ الرتقِ، عِدَّةُ كريمةِ بإعادةِ العائدِ مما يعوذُ منه، وتقويةٌ لرجائه بذكرِ بعضِ نظائره^(١).

وإعادةُ من المضارِ تربيةً وتركيةً، ولهذا أضيفَ الفلقُ إلى الربِّ الذي هو وحده قادرٌ على تغييرِ الأحوالِ، وتقليبِ الأطوارِ، وكذلك المربوبُ لا يستغني في شيءٍ من أحواله عن الربِّ ﷻ.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

أي: من شر ما خلق من الإنسان والجن.

أو: من شر كل مخلوق قام به الشر.

فالشرُّ مسندٌ في الآيةِ إلى المخلوقِ المفعولِ، لا إلى خَلْقِ الربِّ تعالى الذي هو فِعْلُهُ وتكوينه، فإنه لا شرٌّ فيه بوجه ما، فإن الشرَّ لا يدخل في شيءٍ من صفاته وأفعاله، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسماً، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، تعالى ربنا وتقدَّس عن ذلك.

وما يفعله ﷻ من العدلِ بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خيرٌ محض، إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شرّاً بالنسبة إليه، فالشر وقع في تعلُّقه بهم، وقيامه بهم لا في فِعْلِهِ القائم به تعالى، فإنه خالق الخير والشر، فالسارق إذا قُطعت يده فَقَطَّعَهَا شرٌّ بالنسبة إليه وخيرٌ محض بالنسبة إلى عموم الناس، وخير بالنسبة إلى متولِّي القطع أمراً وحكماً، فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به، إذا عرفتَ هذا عرفتَ معنى قوله ﷻ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك» [رواه مسلم (٧٧١)]^(٢).

(١) روح المعاني: ٣٥٨/٣٠.

(٢) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قيم الجوزية.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

أي: ومن شر ليل إذا أظلم، والغسق: الظلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء ٧٨].
ويسمى القمر غاسقاً في حال خسوفه، ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي فنظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، استعيني بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب» [رواه الترمذي (٣٣٦٦) وقال: حديث حسن صحيح].

والسبب الذي لأجله أمر الله تعالى بالاستعاذة من شر الليل، وشر القمر إذا وقب، هو أن الليل إذا أقبل محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة، وفيه تنتشر الشياطين.

ففي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ - أَوْ أَمْسَيْتُمْ - فَكْفُّوا صَبِيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَخَلُّوهُمْ، فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مَغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرْبَكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا أَنْيَتَكُمْ، وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرَضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفِئُوا مَصَابِيحَكُمْ» [رواه البخاري (٥٦٢٣)].

ورحم الله ابن قيم الجوزية عندما قال: فتأمل الاستعاذة برّب الفلق من شرّ الظلمة، ومن شرّ ما يحدث فيها، ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد بأنّ القرآن بل هاتان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ومضادة لما جاءت به الشياطين من كل وجه.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

أي: ومن شرّ النفوس السواحر اللاتي يعقدن عُقَدًا في خيوط، وينفثن عليها، والنفث: النفخ مع ريق.

وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره^(١).

وقد ثبت: أن النبي ﷺ قد تعرّض لمثل هذا الأذى، ففي الحديث الشريف: عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيلُ إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كنت يوماً أو ذات ليلة وهو عندي دعا ودعا، ثم قال: «يا عائشة؛ أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشطٍ ومُشاطةٍ وجُفِّ طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان» فأتاها رسول الله ﷺ في ناسٍ من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحنّاء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين» قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً» فأمر بها فدُفنت. [رواه البخاري (٥٧٦٣)].

والسحر الذي أصابه عليه الصلاة والسلام كان مرضاً عارضاً من الأمراض شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته، وأشد الناس بلاء الأنبياء، فليس بدع أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» [٢١٨٦]: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: يا محمّد أشتكيت؟ قال: «نعم» قال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك، باسم الله أرقيك.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (٥).

إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه، وذلك بمباشرة أسباب الشر قولاً وفعلاً، كأن ينظر إلى المحسود ويوجّه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب، فإنّ نفس الحاسد تتكيّف بكيفية خبيثة، قد تؤثر في المحسود، وتجلب له شراً قد يصل إلى حدّ الإهلاك إذا وافق قدر الله تعالى.

وحقيقة الحسد: تمنّي زوال النعمة عن المحسود، وقد يكون معه سعي، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوّذ منه.

وقيّده تعالى بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأنّ الإنسان قد يكون عنده حسدٌ لكنه يخفيه، ولا يترتب عليه أذى بوجه من الوجوه، فللحسد ثلاث مراتب:

أولها: تمنّي زوال النعمة عن المحسود، وسواء أردتها لنفسك أم لا، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على الفساد وإيذاء الخلق، فلا يضرّك كراحتك لها، ومحبتك لزوالها من حيث هي آلة الفساد.

وثانيها: تمنّي استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة. وكلاهما حسد مذموم.

وثالثها: حسد الغبطة، وهو تمنّي أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن يتمنّي زوال النعمة عنه، فهذا لا بأس به، ولا يعابُ صاحبه، فهو من المنافسة؛ كما في الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن؛ فهو يقومُ به آناء الليل، وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً؛ فهو ينفقه آناء الليل، وآناء النهار» [رواه البخاري (٧٥٢٩) ومسلم (٨١٥)].

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد، وختم بالحسد، ليُعلم أنه شرها، وهو أول ذنب عصي الله به عندما حسد إبليس آدم، وأبى أن يسجد له.

ومرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَلْفُوكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ

إِنَّهُمْ لَمَجْذُونَ﴾ [القمم: ٥١].

وقول النبي ﷺ: «العينُ حقٌّ، ولو كانَ شيءٌ سابقَ القدرِ سبقته العينُ، وإذا استُغْسِلتم فَاغْتَسِلُوا» [رواه مسلم (٢١٨٨)].

وقد اشتملت هذه السورة على قواعد نافعة هامة لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلَّت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثيرٌ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنَّفث في العقد، أسأله تعالى أن يعيدنا من شرهم.



تفسير سورة الناس

الاستعاذة بالله من شرّ الشيطان في سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ
الْخَاسِّسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ .

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ (١) .

أي: قل ألتجئ وأحتمي برب الناس .

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٢) .

أي: مالكهم ومدبّر أمورهم .

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ (٣) .

أي: معبودهم .

وأضيف الرب إلى الناس خاصة - وإن كان رب كل مخلوق - تشریفاً لهم ،

ولأنَّ الاستعاذة من شرِّ المُوسوس في صدور الناس، فكأنه قيل: أعوذ من شرِّ المُوسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم^(١). وكرر الله تعالى الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمرة موقعة، تحقيقاً لهذا المعنى، وتقوية له، ولم يعطف بالواو لما فيها من معنى المغايرة، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

فالمستعاذ به هو الله ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾.

فمن كان الله ربَّهم ومَلِكهم وإلههم فهم جديرون ألا يستعينوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجؤوا إلى غير حماه، فهو كافيتهم، وحسبهم وناصرهم ووليَّهم، فكيف لا يلتجئ العبدُ عند النوازل ونزول عدوه إلى ربه ومالكة وإلهه؟!.

وقدَّم الربوبيةَ لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخَّر الإلهية لخصوصها، لأنَّه سبحانه إنما هو إله مَنْ عبده وحده، واتخذه دون غيره إلهاً.

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنی:

- فإنَّ الرب: هو القادر، الخالق، البارئ، المصور، الحي، القيوم، العليم، السميع، البصير، المحسن، المنعم، الجواد، المعطي، المانع، المقدم، المؤخر، الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته.

- وأما الملك: فهو الأمر، الناهي، المعزُّ، المذلُّ، الذي له من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنی: كالعزيز، الجبار، المتكبر، الحكم، العدل، الرافع، الخافض، المعز، المذل، العظيم، الجليل، الكبير، مالك الملك، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى المَلِك.

- وأما الإله: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل

في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنی.

(١) تفسير النسفي: ٦١٠/٦.

فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهو الشر الداخل في الإنسان، بينما تضمنت سورة الفلق الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد، وهو شر من خارج الإنسان^(١).

﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَّاسِ الْخَنَّاسِ﴾

﴿مِنْ شَرِّ أَلْوَسَّاسِ﴾ أي: من شر الشيطان المُوسوس. سُمِّيَ بفعله مبالغة، لأن الوسوسة شغله الذي هو عاكف عليه، وهي الصوت الخفي.

﴿الْخَنَّاسِ﴾ أي: الرجاء الذي يتوارى ويختفي عند ذكر الله تعالى.

وحقيقة اللفظ تفيد الاختفاء بعد الظهور، فليس المراد مجرد الاختفاء، فإنَّ العبدَ إذا غفل عن ذكر الله جَثَمَ على قلبه الشيطان، وبذر فيه أنواع الوسواس، التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّه، واستعاذَ به انخَسَ وانقبض؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وجيء بلفظ فعال للمبالغة دون الخانس والمنخنس، إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله تعالى، وذلك دأبه ودينه.

وتأمل كيف جاء بناء (الوسواس) مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، كما جاء بناء (الخنَّاس) على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل، فكلما ذكر الله تعالى انخَسَ، ثم إذا غفل عاوده بالوسوسة، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما^(٢).

وبعد أن بيَّن تعالى وسوسته بيَّن محلَّها فقال:

(١) انظر: تفسير المعوذتين، لابن قَيِّم الجوزيَّة.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

﴿الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾

وهذا يدل على أن الله تعالى جعل للشيطان دخولاً في جوف العبد، ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وُكِّلَ بالعبد، فلا يفارقه إلى الممات .
 دلَّ على ذلك الحديث الشريف: عن صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمتُ لأنقلب، فقام معي ليقبني - وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمرَّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعَا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «على رسلكمَّا، إنها صفية بنتُ حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إنَّ الشيطانَ يجري من الإنسانِ مجرى الدم، وإنِّي خشيتُ أن يقذفَ في قلوبكمَا شرًّا» أو قال: «شيئاً» [رواه مسلم (٢١٧٥)].

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

أي: إنَّ الوسواسَ الخناسَ يوسوس للجنِّ كما يوسوس للإنس .
 وقد يكون المعنى: إنَّ الذي يوسوس نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس إلى الإنسيِّ، فشياطين الإنس والجن يشتركون في الوحي الشيطاني، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام ١١٢].
 ففي الآية دليل على الاستعاذة من شرِّ نوعي الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن، نسأل الله أن يعيذنا منهم.





الخاتمة

هكذا ختم الله تعالى القرآن العظيم الذي هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ سَلَّمَ وَأَمِنَ، وَمَنْ زَاغَ عَنْهُ خَسِرَ نَدْمًا، وَتَخَطَّفَتْهُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ.

أَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُوقِّفَنَا لِتِلَاوَتِهِ، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ، وَالْعَمَلِ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَأَنْ يَنْوِّرَ بِهِ قُلُوبَنَا وَقُبُورَنَا، وَيَجْعَلَهُ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ أَبْصَارِنَا وَبِصَائِرِنَا، وَجَلَاءَ هُمُونِنَا وَأَحْزَانِنَا. اللَّهُمَّ آمِينَ.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوْلَى وَأَخْرَأً.



تم إعداد هذا التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم في مكة المكرمة بتاريخ (٥/٦/١٤١٧هـ)، الموافق لـ (١٧/١٠/١٩٩٦م).

وأعيد النظر فيه بمكة المكرمة أيضاً بتاريخ (١/١٢/١٤٣٠هـ)، الموافق (١٨/١١/٢٠٠٩م).

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير

إلى عفو ربه ومرضاته

عبد الحميد محمود طهماز

المصادر والمراجع

• أولاً: من كتب السُّنة:

- ١ - بذل المجهود في حل أبي داود، المكتبة الإمدادية، ط ٣.
- ٢ - الترغيب والترهيب، للمنذري، الطبعة القطرية.
- ٣ - تيسير الوصول، للشيباني، طبعة مصطفى البابي الحلبي.
- ٤ - صحيح البخاري مع فتح الباري، الطبعة السلفية.
- ٥ - صحيح مسلم، تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٦ - سنن أبي داود، ط: دمشق، عزت دعاس.
- ٧ - سنن النسائي، ط: إحياء التراث العربي.
- ٨ - جامع الترمذي، دار إحياء التراث.
- ٩ - سنن ابن ماجه، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ١٠ - الموطأ، تحقيق وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي.

• ثانياً: من كتب التفسير:

- ١١ - أضواء البيان، للشنقيطي، المطابع الأهلية، الرياض.
- ١٢ - البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر.
- ١٣ - تفسير الألوسي (روح المعاني)، دار الفكر - بيروت، إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٤ - تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، للعمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، دار الفكر.

- ١٥ - تفسير البيضاوي (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ١٦ - تفسير البيضاوي وحاشية الكازروني عليه، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت.
- ١٧ - تفسير التحرير والتنوير، للطاهر ابن عاشور، الدار التونسية.
- ١٨ - التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، طبعة عيسى البابي الحلبي.
- ١٩ - تفسير الخازن (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ٢٠ - تفسير الطبري (جامع البيان)، دار المعرفة، دار الفكر - بيروت.
- ٢١ - تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير)، دار الفكر، الطبعة الأولى.
- ٢٢ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ط: وزارة الثقافة في مصر.
- ٢٣ - تفسير ابن كثير، طبعة دار الفكر العربي.
- ٢٤ - تفسير ابن كثير (المختصر)، للصابوني، طبعة دار القرآن الكريم - بيروت.
- ٢٥ - تفسير النسفي (مع مجموعة التفاسير)، دار إحياء التراث - بيروت.
- ٢٦ - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، لإسماعيل حقي، اختصار الصابوني، دار القلم.
- ٢٧ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم، لطنطاوي جوهري.
- ٢٨ - حاشية الجمل على الجلالين (المسمى بالفتوحات الإلهية).
- ٢٩ - حاشية الشهاب على البيضاوي.
- ٣٠ - حاشية الصاوي على الجلالين، طبعة البابي الحلبي.
- ٣١ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار المعرفة.
- ٣٢ - زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

٣٣ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للنيسابوري، المطبوع على هامش جامع البيان.

٣٤ - فتح القدير، للشوكاني، دار المعرفة - بيروت، مكتبة المعارف بالرياض.

٣٥ - في ظلال القرآن، لسيد قطب، ط ٩، دار الشروق - بيروت، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٣٦ - قرة العينين على الجلالين، محمد أحمد كنعان، المكتب الإسلامي.

٣٧ - المحرر الوجيز، لابن عطية، الطبعة القطرية.

٣٨ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ط ١، الهند.

• ثالثاً: مراجع مختلفة:

٣٩ - أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية، لعبد الله الطريقي.

٤٠ - إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس، لعبد الحميد طهماز.

٤١ - إنارة الدجى في مغازي خير الورى، حسين المشاط المكي، ط: دار المنهاج.

٤٢ - الأنساب والأولاد، لعبد الحميد طهماز.

٤٣ - البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة، للشيخ العزّامي، ط ١.

٤٤ - التأمين في الشريعة والقانون، لشوكت عليان.

٤٥ - جريدة المسلمون، عدد (١٩٠).

٤٦ - حياة الصحابة، للكاندهلوي، دار القلم - دمشق.

٤٧ - حياتنا والموعود المجهول، لعبد الحميد طهماز، دار القلم - دمشق.

٤٨ - خلق الإنسان بين الطب والقرآن، للدكتور محمد علي البار.

- ٤٩ - الخنزير بين ميزان الشرع ومنظار العلم.
- ٥٠ - دائرة معارف القرن العشرين، لبطرس البستاني، دار المعرفة.
- ٥١ - دراسات تاريخية عن صموئيل الثاني.
- ٥٢ - دراسات تاريخية من القرآن الكريم، الدكتور محمد بيومي مهران.
- ٥٣ - رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، دار إحياء التراث.
- ٥٤ - ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد، طبعة قطر.
- ٥٥ - الزواج في الإسلام، لعبد الحميد طهماز، مكتبة البيت.
- ٥٦ - السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين، سبّاقة الخلق إلى الإسلام، لعبد الحميد طهماز، دار القلم - دمشق.
- ٥٧ - سيرة نبي الهدى والرحمة.
- ٥٨ - سيرة ابن هشام، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
- ٥٩ - الشفا، للقاضي عياض، وشرحه، لملا علي القاري، مطبعة المدني - القاهرة.
- ٦٠ - الصراع بين العرب وأوروبا.
- ٦١ - طفل الأنوب والتلقيح الصناعي، لمحمد علي البار.
- ٦٢ - عائشة أم المؤمنين، لعبد الحميد طهماز.
- ٦٣ - العسل فيه شفاء للناس، لنزار الدقر.
- ٦٤ - العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، لعبد الحميد طهماز.
- ٦٥ - علم الفلك، لمحمد رضا مدور.
- ٦٦ - الغارة على العالم الإسلامي، لشتاتيه.
- ٦٧ - القرار المكين، للطبيب مأمون شقفة، ط ١.
- ٦٨ - قصص الأنبياء.
- ٦٩ - الكنز المرصود في قواعد التلمود، يوسف نصر الله، دار القلم - دمشق.

- ٧٠ - لسان العرب، لابن منظور.
- ٧١ - اللسان العربي والإسلام معاً في معركة المواجهة.
- ٧٢ - مؤتمر تفسير سورة يوسف، للشيخ عبد الله العلمي.
- ٧٣ - مباحث في علوم القرآن، لصبحي الصالح، دار العلم للملايين - بيروت.
- ٧٤ - مجلة أخبار العالم الإسلامي، العدد (١٠٤٦ - ١١٠٧).
- ٧٥ - مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس.
- ٧٦ - مجلة العلم، العدد (٢١).
- ٧٧ - مجلة المعرفة، المجلد التاسع.
- ٧٨ - محمد في الكتاب المقدس، للأب داود بنيامين كلداني، ترجمة فهمي شما.
- ٧٩ - المسيح إنسان أم إله، لمرجان.
- ٨٠ - معاذ بن جبل، لعبد الحميد طهماز.
- ٨١ - المعجم الوسيط.
- ٨٢ - المغني، لابن قدامة.
- ٨٣ - المغني في الضعفاء، للذهبي.
- ٨٤ - المقدمة لكتاب تفسير الأحلام.
- ٨٥ - نظرات في كتاب الحلال والحرام، لعبد الحميد طهماز.



ترجمة المؤلف

(١٩٣٧ - ٢٠١٠م)

• هو: عبد الحميد بن محمود بن عبد القادر طهماز، وُلد في مدينة حماة عام (١٩٣٧م) من عائلة تمتد فروعها في عدد من المحافظات السورية، ونشأ بها، وتلقّى تعليمه في مدارسها.

وعقب حصوله على شهادة الثانوية العامة، ذهب إلى دمشق بقصد الالتحاق بكلية الطبّ في جامعتها، لكنّ بعضَ زملائه شجّعوه على الالتحاق بكلية الشريعة، والتي كانت قد افتتحت حديثاً، فالتحق بها عام (١٩٥٥م) رغم معارضة كثيرٍ من أهله وأقاربه، وتلقّى فيها العلوم الشرعية على أيدي خيرة أساتذتها، مثل: الدكتور مصطفى السباعي، ومصطفى الزرقا، ومحمد المبارك، والدكتور محمد منتصر الكتاني، والدكتور فتحي الدريني وغيرهم، كما كان يختلف إلى بعض علماء دمشق ويحضر حلقاتهم العلمية.

• وعقب تخرّجه من الجامعة وحصوله على إجازتها العلمية عام (١٩٥٩م)، رجع إلى حماة، وتمّ تعيينه من قبل وزارة التربية والتعليم مدرّساً للتربية الإسلامية في مدارسها، وهناك توثقت صلته بالشيخ محمد الحامد رحمته الله، أحد كبار علماء حماة، ومجدّد نهضتها الدينية، وقد شكّلت هذه الصلة منعطفاً جديداً في حياته، وكان لها أبلغ الأثر في سيرته العلمية والسلوكية، فلازم الشيخ ملازمةً كاملةً، ولم يكد ينقطع عن مجالسه ودروسه العلمية العامة والخاصة، كما كان يصاحبه في أسفاره، وقد أجازه شيخه في العلوم الشرعية، كما أجازه في طريقته في السلوك، وتلقّن منه الذّكر على الطريقة النقشبندية.

• وعندما مرض الشيخ محمد الحامد رحمته الله مرضه الذي توفّي به، استلم

باليابة عنه مسجد السلطان تدريساً وخطابة، وعقب وفاة شيخه عام (١٩٦٩م) قامت إدارة الأوقاف بتعيينه رسمياً مدرّساً وخطيباً في المسجد خلفاً لشيخه، فسار على منهجه العلمي، والتزم بوصاياه وطريقته، فكان يُلقَى في المسجد درساً يومياً عدا يوم الخميس من كلِّ أسبوع، في علوم شرعية متنوّعة، فخصّص يومين للفقهِ يشرحُ بهما كتاب «الهدية العلائية» في الفقه الحنفي، ويومين للتفسير يعتمد فيه على كتاب «تفسير الخازن» مع الرجوع إلى أمهات كتب التفسير، ويومين للسيرة والحديث، قرأ فيهما «الشفاء» للقاضي عياض و«حياة الصحابة» للكاتب الهلوي، وشرع بتدريس «صحيح البخاري»، كما كان له درسٌ أسبوعيٌّ خاصٌّ بعد العصر يقرأ فيه من «إحياء علوم الدين» للغزالي، ودرس آخر في النَّحو يقرأ فيه من كتاب «مغني اللَّيب» لابن هشام.

وفي عام (١٩٨٠م) غادر سورية إلى المملكة العربية السعودية، على أمل أن يعود في أقرب فرصة ممكنة، فعمل في الرياض مُعيداً في معهد تعليم اللُّغة العربية لغير الناطقين بها، لمدة ثلاثة أعوام، ثم انتقل إلى المدينة المنورة مدرّساً في معهدها العلميّ لمدة عامين، ثم نُقلَ إلى نجران، فأقام بها عامين وبضعة أشهر.

وفي عام (١٩٨٨م) استقرَّ به المقام في مكّة المكرّمة، حيث عمل محاضراً في معهد إعداد الأئمة والدعاة التابع لرابطة العالم الإسلاميّ لحوالي العشرة أعوام.

• وقد أولى التآليفَ عنايةً خاصّةً، وأثرى المكتبة الإسلامية بعددٍ من الكتب القيمة في مواضيع مختلفة، كالتفسير والفقه والسيرة والتراجم، حيث بدأ بالتآليف في حياة شيخه وبتشجيع منه:

- فألّف رسالةً في «أحكام الحيض والنفاس»، والذي يُعدُّ من أصعب أبواب الفقه.

- ومن أهم مؤلفاته في الفقه كتاب «الفقه الحنفي في ثوبه الجديد»، وهو كتاب في خمسة مجلّدات متوسطة الحجم، بيّن فيه الأحكام الشرعية على

مذهب أبي حنيفة بأسلوب سهل وميسر، مع ذكر أدلتها من الكتاب والسنة، حيث خصص المجلد الأول لفقه العبادات، والثاني للأحوال الشخصية والالتزامات والتبرعات، والثالث لنظام الحكم والقضاء والعقوبات، والرابع للمعاملات، والخامس للقضاء وغيره من المباحث، وفي آخره مختصر في الفقه الأكبر (العقيدة).

- ومن مؤلفاته في التفسير «التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم» في ثمانية مجلدات، بدأ بتأليفه إبان إقامته في المدينة المنورة، فكان أول كتاب صدر منه: «النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب»، واستمر في إصداره متفرقاً على حسب ما يفتح الله عليه من موضوعات السور الكريمة، إلى أن اكتمل تفسيراً كاملاً لجميع سور القرآن الكريم، بعد ما يزيد على عشرة أعوام، ويقوم أسلوبه على إبراز الموضوع الأساس لكل سورة من سور القرآن الكريم، والذي ترتبط به وتدور حوله جميع موضوعاتها الفرعية.

- ومن مؤلفاته في السيرة: «سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة»، اعتمد فيه على ما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية الثابتة من سيرته ﷺ، وأعرض عما ورد في كثير من كتب السيرة من أخبار ليس لها سند ثابت.

ومن مؤلفاته في التراجم:

- «السيدة عائشة، أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام».
- «عبد الله بن عباس، الإمام الحبر عالم العصر».
- «أنس بن مالك، الخادم الأمين والمحِبُّ العظيم».
- «أبو موسى الأشعري، الصحابيُّ العالم المجاهد».
- «معاذ بن جبل، إمام العلماء ومعلم الناس الخير».
- «السيدة خديجة، أم المؤمنين وسبَّاقة الخلق إلى الإسلام».
- «أبو عبد الرحمن السلمي، شيخ قرآء الكوفة».

- «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد».

وقد اتبع في التعريف بهؤلاء الأعلام أسلوب المحدثين، والمنهج العلمي الدقيق الذي التزمه لتحقيق الروايات التاريخية، وردّ الروايات الضعيفة والمكذوبة، التي امتلأت بها بعض كتب المؤرخين، وخصوصاً في الأحداث التي حصلت بين الصحابة رضي الله عنهم.

وقد كان رضي الله عنه حريصاً على قول كلمة الحق، وردّ ما يسمعه أو يقرؤه من آراء يراها مخالفة للصواب، لا يخاف في ذلك لومة لائم، وهذا أمر يشهد به كل من عرفه وصحبه، وقد حفلت كثير من مؤلفاته بمثل هذه الردود، وبيان ما يراه من الحق والصواب.

وقد ألفت كتابه عن السيدة عائشة رضي الله عنها ردّاً على تناول بعض المؤلفين عليها، واتهامها بأنها كانت سبب الفتنة التي حدثت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

كما كانت ترجمته لكل من الصحابين الجليلين: عبد الله بن عباس وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما، إتماماً لهذا الموضوع، وتوضيحاً لموقفهما من الأحداث التي حصلت في عهد علي رضي الله عنه.

- وألف رسالة في الدفاع عن صحيح البخاري بعنوان: «الصحيح أن كل ما في صحيح البخاري صحيح»، للردّ على بعض المشككين بصحة بعض الأحاديث المروية فيه.

- وألف رسالة بعنوان: «نظرات في كتاب الحلال والحرام في الإسلام»، بيّن فيها حكم بعض المسائل الفقهية التي رأى أنّ مؤلفه الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله جانب فيها الصواب.

- وله رسالة بعنوان: «الثور والسراج المنير»، ردّ فيها على من يزعم أنّ ذات الله تعالى إنّما هي نور، كما ردّ فيها على من يقول بأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخلوق من نور.

- كما ألفت رسالة بعنوان «أمهات الأنبياء»، ردّ فيها على من يقول بعدم

نجاه والدة النبي ﷺ، وأثبت أن أمهات الأنبياء المذكورات في القرآن الكريم
كُنَّ جميعاً على دين التوحيد.

• توفي الشيخ رحمه الله في الرياض يوم الجمعة ليلة السبت بتاريخ (١٥/٢/
١٤٣١هـ، الموافق ٢٩/١/٢٠١٠م)، عن عمر يناهز (٧٣) عاماً، وصُلِّي عليه
في مسجد الراجحي، ودُفن في مقبرة النسيم.



فهرس الموضوعات

- تفسير سورة الباريات: العبادة والرّزق في سورة الذّاريات ٥
- مقسمات الرزق ٥
- القول المضطرب ٧
- المستغفرون بالأسحار ٩
- الأسباب السماوية للرّزق ١٠
- ضيف إبراهيم ١٢
- عبر وعظات ١٥
- الفرار إلى الله ١٧
- الحكمة من الخلق ١٩
- تفسير سورة الطّور: مُطَارَدَةُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الطُّورِ ٢١
- مصير المكذّبين ٢١
- الفضل والعدل ٢٤
- المطاردة والحصار ٢٨
- تفسير سورة النّجم: الوحيّ والإنذار في سورة النّجم ٣٣
- استقامة النبي ﷺ على الحق ٣٣
- لقاء الأمينين ٣٥
- تحقيق الوحي وتأكيدّه ٣٧
- صرعى الأوهام والشهوات ٤١
- كبائر الذنوب ٤٥

- ٤٦ - التحذير من كبيرة العُجب
- ٤٧ - الانتفاع بسعي الآخرين
- ٥٠ - إنذار وسجود
- تفسير سورة القمر: الإِنذَارُ بِالسَّاعَةِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ
- ٥٥ - انشقاق القمر
- ٥٩ - المنتصر بالله تعالى
- ٦١ - تيسر القرآن للذكر
- ٦٨ - إثبات القدر
- تفسير سورة الرحمن: التَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ
- ٧١ - أعظم النعم
- ٧٤ - توبيخ وإنكار
- ٧٥ - تفصيل النعم
- ٧٧ - حاجز بين البحرين
- ٧٩ - فناء المخلوقات وضعفها
- ٨٢ - التذكير بمصير الكافرين ومصير المؤمنين
- تفسير سورة الواقعة: الأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ
- ٨٩ - تحقيق القيامة وتأكيده وقوعها
- ٩٢ - مصير المقربين يوم القيامة
- ٩٦ - أحوال أصحاب اليمين في الجنة
- ٩٩ - الترف والضلال في أصحاب الشمال
- ١٠٢ - الإيجاد والإمداد
- ١٠٧ - القسم العظيم
- ١١٠ - توبيخ الضالين المكذبين وتحذيرهم

- ١١٢ - أحوال المحتضرين
- ١١٥ • تفسير سورة الحديد: الإنفاقُ والإمساكُ في سورة الحديد
- ١١٥ - تسبيح المخلوقات
- ١١٩ - الإنفاق في سبيل الله
- ١٢٢ - الأجر والنور
- ١٢٥ - طول الأمل وقسوة القلوب
- ١٢٧ - الصديقون والشهداء
- ١٢٩ - حقيقة الحياة الدنيا
- ١٣٢ - الرضا بالقدر
- ١٣٤ - الحق والقوة
- ١٣٦ - البخل والحسد
- ١٣٩ • تفسير سورة المجادلة: الشكوى والتجوى في سورة المجادلة
- ١٣٩ - السميع البصير
- ١٤١ - الظهار وحكمه
- ١٤٤ - النجوى المحرمة
- ١٤٨ - من آداب المجلس
- ١٥١ - حزب الشيطان
- ١٥٤ - حزب الله تعالى
- ١٥٩ • تفسير سورة الحشر: أحداثٌ وعبرٌ في سورة الحشر
- ١٥٩ - الحشر الأول
- ١٦٣ - أموال بني النضير
- ١٦٥ - المستحقون للفيء
- ١٦٩ - كذب وخذلان

- ١٧٢ - التقوى والمحاسبة
- ١٧٧ • تفسير سورة الممتحنة: البراءة والبيعة في سورة الممتحنة
- ١٧٧ - تحريم موالاة الكافرين
- ١٨٠ - البراءة
- ١٨٣ - بر وعدل
- ١٨٥ - تحريم المؤمنات على الكفار
- ١٨٩ - البيعة
- ١٩٣ • تفسير سورة الحديد: بشارة وتجارة في سورة الصف
- ١٩٣ - المقت الخالص
- ١٩٦ - بشرى عيسى عليه السلام
- ١٩٩ - ظهور الإسلام
- ٢٠١ - التجارة والجهاد
- ٢٠٥ • تفسير سورة الجمعة: حاملو الرسالة في سورة الجمعة
- ٢٠٥ - الفضل الكبير
- ٢٠٩ - المعرضون عن حمل التوراة
- ٢١١ - تكليف وتحذير
- ٢١٥ • تفسير سورة المنافقون: المعرضون عن حمل الرسالة في سورة المنافقون
- ٢١٥ - تكذيب المنافقين
- ٢١٨ - الأعداء والأذل
- ٢٢١ - الاشتغال بالأموال والأولاد
- ٢٢٣ • تفسير سورة التغابن: الخاسرون في سورة التغابن
- ٢٢٣ - توبيخ الكافرين

- ٢٢٦ - الزعم الباطل
- ٢٢٨ - التسليم لقضاء الله
- تفسير سورة الطلاق: التَّقْوَى والتَّيَسُّرُ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ ٢٣١
- ٢٣١ - الطلاق للعدة
- ٢٣٥ - التقوى في معاملة المطلقات
- ٢٤٠ - حساب وعذاب
- تفسير سورة التحريم: أَرْوَاحُ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ ٢٤٣
- ٢٤٣ - قصة تحريم العسل
- ٢٤٦ - عتاب وتأديب
- ٢٤٩ - التوبة النصوح
- تفسير سورة الملك: الْخُلُقُ وَالتَّذْيِيرُ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ ٢٥٥
- ٢٥٥ - الحياة والاختيار
- ٢٥٧ - الكواكب زينة ورجوم
- ٢٥٩ - حسرة وندامة
- ٢٦١ - الخسف والحاصب
- ٢٦٥ - المصارحة بالحقيقة
- تفسير سورة القلم: الْاسْتِدْرَاجُ فِي سُورَةِ الْقَلَمِ ٢٦٩
- ٢٦٩ - صاحب الخلق العظيم
- ٢٧٣ - تحقير المكذِّبين وفضح عيوبهم
- ٢٧٥ - قصة أصحاب الجنة
- ٢٧٩ - التوبيخ والتحدي
- ٢٨١ - الأمر العظيم
- ٢٨٤ - الصبر لحكم الله

- ٢٨٦ - العين حق
- تفسير سورة الحاقة: الحقُّ الثابتُ في سورة الحاقَّة ٢٨٩
- ٢٨٩ - تعظيم يوم الحق
- ٢٩٠ - قوارع وعبر
- ٢٩٣ - بين يدي الواقعة
- ٢٩٥ - أصحاب اليمين
- ٢٩٧ - أصحاب الشمال
- ٣٠٠ - تنزيل رب العالمين
- تفسير سورة المعارج: تحقيرُ المُكذِّبينَ بيومِ الدينِ في سورةِ المعارجِ ٣٠٣
- ٣٠٣ - العذاب الواقع
- ٣٠٧ - المكرمون يوم القيامة
- ٣١٠ - أماني خادعة
- تفسير سورة نوح: دَعْوَةٌ وَدُعَاءٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ ٣١٣
- ٣١٣ - الإنذار من العذاب الأليم
- ٣١٥ - استمرار الدعوة
- ٣١٩ - المَكْر الكبير
- ٣٢٠ - الدعاء
- تفسير سورة الجن: الجنُّ المؤمنون في سورةِ الجنِّ ٣٢٣
- ٣٢٣ - المستمعون للقرآن الكريم
- ٣٢٦ - سفه وضلال
- ٣٢٨ - الحرس والشهب
- ٣٣٠ - الرخاء والأمن
- ٣٣٣ - بطلان الكهانة والتنجيم

- تفسير سورة المُزمل: قِيَامُ اللَّيْلِ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ ٣٣٥
- تأنيس وملاطفة ٣٣٥
- المهمة الثقيلة ٣٣٨
- بعث النار ٣٤١
- تخفيف قيام الليل ٣٤٤
- تفسير سورة المدثر: التَّبْلِغُ وَالتَّذْكَرَةُ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ ٣٤٧
- الإنذار ٣٤٧
- المعاند المكذب ٣٥٠
- خزنة جهنم ٣٥٤
- الحمر النافرة ٣٥٩
- تفسير سورة القيامة: النَّفْسُ اللَّوَّامَةُ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ ٣٦١
- يوم القيامة والنفس اللوامة ٣٦١
- التأنِّي عند نزول الوحي ٣٦٥
- رؤية الله يوم القيامة ٣٦٨
- الفراق والمساق ٣٧٠
- تفسير سورة الإنسان: الشَّاكِرُ وَالكَافِرُ فِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ ٣٧٥
- الأصل الضعيف ٣٧٥
- أعمال الشاكرين ٣٧٨
- بشارة ونعيم ٣٨١
- تثبيت وإرشاد ٣٨٧
- تفسير سورة المرسلات: الإِعْدَارُ وَالْإِنْدَارُ فِي سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ ٣٩١
- الوعيد الواقع ٣٩١
- الخلق والكفت ٣٩٥

- ٣٩٧ دخان وشرر
- ٣٩٩ الجمع والمصير
- تفسير سورة النبأ: تَهْوِيلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي سُورَةِ النَّبَأِ ٤٠٣
- ٤٠٣ الخبر العظيم
- ٤٠٥ إنعام وإحكام
- ٤٠٧ يوم الفصل والحق
- ٤١١ تعظيم وتهويل
- تفسير سورة النازعات: الطَّامَّةُ الْكُبْرَى وَالطُّغْيَانُ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ ٤١٣
- ٤١٣ البعث والجزاء
- ٤١٦ المعرفة والخشية
- ٤٢٠ الطامة الكبرى
- تفسير سورة عَبَسَ: الْكَفْرَةُ الْفَجْرَةُ فِي سُورَةِ عَبَسَ ٤٢٣
- ٤٢٣ عتاب وموعظة
- ٤٢٨ تكفير وتحقير
- تفسير سورة التَّكْوِيرِ: الْوَحْيُ وَالْإِسْقَامَةُ فِي سُورَةِ التَّكْوِيرِ ٤٣٣
- ٤٣٣ اضطراب النظم الكونية
- ٤٣٧ طريق الاستقامة
- تفسير سورة الْإِنْفِطَارِ: الْغُرُورُ وَالْفُجُورُ فِي سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ ٤٤٣
- تفسير سورة الْمُطَفِّفِينَ: دِيْوَانُ الشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّفِينَ ٤٤٩
- ٤٤٩ القيام لرب العالمين
- ٤٥١ الفجار في سجين
- ٤٥٤ الأبرار في عليين

- تفسير سورة الإنشقاق: انقيادٌ واستسلامٌ في سورة الإنشقاق ٤٥٩
- تفسير سورة البروج: تأيُسٌ وتثبيتٌ في سورة البروج ٤٦٥
- تفسير سورة الطارق: القولُ الفصلُ في سورة الطارق ٤٧٣
- تفسير سورة الأعلى: التسييحُ والتذكيرُ في سورة الأعلى ٤٧٧
- تفسير سورة الغاشية: موعظةٌ وتذكيرةٌ في سورة الغاشية ٤٨٣
- تفسير سورة الفجر: إهلاكُ الطغاةِ والجبابرةِ في سورة الفجر ٤٨٩
- تفسير سورة البلد: افتحامُ العقبةِ في سورة البلد ٤٩٧
- تفسير سورة الشمس: تزكيةُ النفسِ في سورة الشمس ٥٠٥
- تفسير سورة الليل: توفيقٌ وخذلانٌ في سورة الليل ٥١١
- تفسير سورة النجم: إنعامٌ وإكرامٌ في سورة الضحى ٥١٧
- تفسير سورة الشرح: إنعامٌ وإكرامٌ في سورة الشرح ٥٢٣
- تفسير سورة التين: تقويمٌ وتنعيسٌ في سورة التين ٥٢٧
- تفسير سورة العلق: سُجودٌ وطُغيانٌ في سورة العلق ٥٣١
- تفسير سورة القدر: ليلةُ الشرفِ والسلامِ في سورة القدر ٥٣٧
- تفسير سورة البينة: دينُ القيمةِ في سورة البينة ٥٤١
- تفسير سورة الزلزلة: إخبارٌ وحسابٌ في سورة الزلزلة ٥٤٥
- تفسير سورة العاديات: صراعٌ وحسابٌ في سورة العاديات ٥٤٩
- تفسير سورة القارعة: موازينُ الأعمالِ في سورة القارعة ٥٥٣
- تفسير سورة التكاثر: تنبيهُ الغافلينِ في سورة التكاثر ٥٥٥

- تفسير سورة القصص: الْإِنْسَانُ وَالزَّمَانُ فِي سُورَةِ الْعَصْرِ ٥٦١
- تفسير سورة الهَمزة: تَحْطِيمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي سُورَةِ الْهَمَزَةِ ٥٦٥
- تفسير سورة الفيل: تَحْطِيمُ أَصْحَابِ الْفِيلِ فِي سُورَةِ الْفِيلِ ٥٦٩
- تفسير سورة قريش: الطَّعَامُ وَالْأَمْنُ فِي سُورَةِ قُرَيْشٍ ٥٧٣
- تفسير سورة الماعون: عَلَامَاتُ الْمُكْذِبِينَ بِالذِّينِ فِي سُورَةِ الْمَاعُونِ ٥٧٥
- تفسير سورة الكوثر: إِعْطَاءٌ وَشُكْرٌ فِي سُورَةِ الْكُوْثِرِ ٥٧٩
- تفسير سورة الكافرون: إِعْلَانُ الْبِرَاءَةِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ ٥٨٣
- تفسير سورة النجر: تَسْبِيْحٌ وَاسْتِعْفَارٌ فِي سُورَةِ النَّجْرِ ٥٨٥
- تفسير سورة المسد: حُسْرَانٌ وَعَذَابٌ فِي سُورَةِ الْمَسَدِ ٥٨٩
- تفسير سورة الإخلاص: الْأَحْدُ الصَّمَدُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ ٥٩٣
- تفسير سورة الفلق: الْاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ أَسْبَابِ الشَّرِّ فِي سُورَةِ الْفَلَقِ ٥٩٧
- تفسير سورة الناس: الْاسْتِعَاذَةُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ فِي سُورَةِ النَّاسِ ٦٠٣
- خاتمة ٦٠٧
- المصادر والمراجع ٦٠٩
- ترجمة المؤلف ٦١٥
- فهرس الموضوعات ٦٢١

